# هل للوحدة مستقبل ؟

## محاولة في البحث عن معادل سياسي لحركة القومية العربية

صفوان قدسي



— ١ —

باديء ذي بدء ، لامناص من الاقرار بأن هذا العنوان « هل للوحدة مستقبل ؟ » ربما يترك انطباعاً بأن كاتب هذا المقال يرى إلى الوحدة العربية على أنها مجرد امكانية، أو على أنها وجود بالقوة ليس من المؤكد أنه سوف يصبح وجوداً بالفعل .

وفي وقت من الأوقات ، فإن الفكر العربي سلح نفسه بنظرية تقول إن الوحدة العربية آتية لاريب فيها ، وأن حركة التاريخ لابد وأن تفضي في نهاية المطاف إلى تحقيق هذه الوحدة .

وفي منتصف الستينات ، وضع المؤرخ البريطاني الذائع الصيت « آرنولدتوينبي » كتاباً تحت عنوان : « من النيجر إلى النيل » ، واختار

له مترجمه إلى العربية عنواناً أشد جاذبية هو « الوحدة العربية آتية » .

في هذا الكتاب ، يبدو المؤلف شديد التفاؤل انطلاقاً من فكرته القائلة إن العرب سوف ينجزون وحدتهم القومية بحلول عام ١٩٧٤ . وهو يستند في فكرته تلك إلى مقارنات تاريخية . فالوحدة العربية تلوح في الواقع بعيدة بقدر مابدت الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية بعيدتين في أعقاب انحسار الثورة الأوربية في منتصف القرن التاسع عشر. والمقارنة التاريخية التي يعقدها « توينبي » تتخذ الشكل الآتي : « مطامح أوربا ، القرن التاسع عشر ، وإن بدت ميئوساً منها في سنة ١٨٤٩ ، تم تحقيقها بصورة ناجزة في سنة ١٨٧١ . لذا غدا توحيد ألمانيا وتوحيد إيطاليا السريع ، الحدثين البارزين في تاريخ أوربا القرن التاسع عشر الملئ بالأحداث . وإذا شئنا بدء التأريخ لهما بنهاية الحروب النابليونية ، فإن عملية التوحيد هنا تكون قد استغرقت ستا وخمسين سنة . وليس عجيباً أنها استطالت حتى هذا القدر ، إذا أخذنا بعين الاعتبار تلك العقبات الكأداء آنذاك . انتظر فترة ٥٦ عاماً من نهاية الحرب العالمية الأولى كي تترك للعرب فترة مساوية من الوقت ليقوموا بنفس الانجاز السياسي الصعب . على هذا الأساس يكون للعرب من الوقت حتى سنة ١٩٧٤ كيما ينجزوا وحدتهم بنفس سرعة الألمان والإيطاليين ولا يمكن حتى لألد أعداء العرب أن يضمن أن وحدتهم لن تكون قد أنجزت في ذلك التاريخ »(١) .

---

(١) — انظر كتاب « الوحدة العربية آتية » — ص ١٧٥ — تأليف آرنلدتوينبي ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة — منشورات دار الآداب — بيروت — نيسان ١٩٦٨ .

ها قد مضت ثلاث سنوات على التاريخ الذي حدده « توينبي » لتحقيق الوحدة العربية ، استناداً إلى بعض المقارنات التاريخية ، ومع ذلك فإن هذه الوحدة تبدو الآن بعيدة المنال .

ليس معنى ذلك أن الوحدة العربية مستحيلة وأنها لن تأتي على الإطلاق فتلك هي استنتاجات خصوم الوحدة ومناهضيها . وليس معنى ذلك أن المشروع الوحدوي محكوم عليه بالاخفاق ، فتلك هي استنتاجات الذين يمخرون عباب المحيط فلا يرون من جبل الجليد غير قسم ضئيل يحسبونه الجبل بأكمله ، ولا يدرون أن كتلة الجليد مختفية تحت سطح الماء .

استنتاجاتنا هي أن الوحدة العربية ليست حكماً أصدره التاريخ على العرب ولا مهرب من تنفيذ هذا الحكم .



استنتاجاتنا هي أن الوحدة العربية ليست حتمية تاريخية ، وأننا لسنا مجرد أدوات لتحقيق هذه الغاية الكونية .

استنتاجاتنا هي أن الخبرة البشرية تقدم الشواهد يوماً بعد يوم على عقم المذهب القائل بوجود حتمية يخضع لها البشر والتاريخ في آن معاً ، كما تثبت بؤس القائلين بوجود قوانين تحيل الانسان إلى قطعة تافهة في آلة التاريخ الكبرى .

استنتاجاتنا هي أن الوحدة العربية لا تتحقق إلا لأننا نريد تحقيقها ، ولا تتحول إلى واقع قائم بذاته إلا لأننا عازمون ومصممون على فعل ذلك.

هل للوحدة مستقبل ؟ .

تلك مسألة تتوقف علينا نحن . للوحدة مستقبل عندما نقرر نحن أن يكون لها هذا المستقبل . وليس للوحدة مستقبل ، عندما ندع أمر الوحدة لقوى خفية نظن أنها قادرة على تحريك التاريخ . فالتاريخ صراع ارادات، والمنتصر هو الذي يملك الارادة الأقوى .

— ٢ —

يكتب اللورد أكتون(١) في كتابه « محاولة في القومية » المنشور عام ١٨٦٢ :

« إن نظرية القومية إذن إنما هي خطوة رجعية في التاريخ » .



يعرض جان جاك شيفالييه فكرة اللورد أكتون على النحو الآتي :

« إن القومية لاتستهدف الحرية ولا الازدهار ، بل هي تضحي بهما في سبيل الضرورة الملحة في تحويل القومية إلى قالب للدولة ومقياس لها . وإن تطورها سيكون متسماً بالخراب المادي كما يتسم بالخراب المعنوي » .

---

(١) — أحد كتاب القرن التاسع عشر البارزين . يصفه جان جاك شيفالييه في دراسته المسماة « فكرة الأمة وفكرة الدولة » بأنه كاثوليكي ذو نزعة تحررية . انظر كتاب « معنى الأمة » تأليف البرنيي وعدد من الباحثين . ترجمة أديب العاقل — مراجعة سهيل شباط — منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي — ١٩٧٦ — دمشق .

على العكس من ذلك ، فإن « هانس كوهن » يرى الأمر من زاوية مخالفة عندما يقول : « إن النزعة القومية تتطلب القومية — الدولة ، إذ أن خلق القومية — الدولة يقوي النزعة القومية »(١) .

كان « كوهن » يرى أن على الدولة والقومية أن يتطابقاً تطابقاً تاماً ، وإذا كانت الوقائع لا تنطبق ، فالوقائع هي المخطئة .

لسنا هنا بصدد عرض الآراء التي ترى في الدولة والقومية شيئاً واحداً ، أو تلك التي تميز بينهما ، وإنما نحن الآن بصدد الوصول إلى فكرة أساسية وهي أن القومية توجد أحياناً دون أن يوجد معها معادلها السياسي وهو هنا الدولة . بل أنه يحدث في بعض الأحيان أن يوجد هذا المعادل السياسي ، لكن ظروفاً معينة تؤدي إلى غياب هذا المعادل السياسي ، أي إلى غياب الدولة ، لكن ذلك لا يعني بحال من الأحوال أن القومية قد آلت بدورها إلى زوال .

في محاضرة ألقاها ساطع الحصري في القاهرة عام ١٩٥٠ تحت عنوان ، « القومية العربية » ، يخاطب المحاضر مستمعيه قائلاً : « تعرفون أن بولونيا كانت ، حتى أواسط القرن الثامن عشر ، دولة مستقلة ، وقوية الشكيمة ، ولكنها بعد ذلك أخذت تضعف وتتضعضع ، إلى أن انقرضت وزالت من عالم الوجود ، لأن جاراتها الثلاث تألبت عليها ، واستولت

(١) — انظر المرجع السابق « معنى الأمة » ص ٦٢ .

على أراضيها ، ثم تقاسمت تلك الأراضي فيما بينها ، وأصبح قسم من أراضي بولونيا جزءاً من بروسيا ، وقسم آخر جزءاً من روسيا ، وقسم ثالث جزءاً من النمسا . كما أن سكان كل قسم من هذه الأقسام أصبحوا من رعايا الدولة المستولية عليها . بهذه الصورة اندرست الدولة البولونية وزالت من عالم الوجود . ولكن هل اندرست معها الأمة البولونية أيضاً ؟. كلكم تعرفون أن : كلا ! . . ظلت الأمة البولونية أمة حية واعية ، رغم حرمانها من دولة قومية ترعى شؤونها ، وتجمع شملها . دخل البولونيون تحت حكم الدولة الثلاث التي ذكرتها ، ولكنهم لم يندمجوا بحكامهم الجدد ، بل ظلوا محافظين على كيانهم القومي . إنهم لم يتركوا لغتهم الخاصة ، ولم ينسوا تاريخهم الخاص . وظلوا يشعرون بأنهم ليسوا روسا ، ولا بروسيين ، ولا نمسويين بل إنهم يتميزون عن هؤلاء جميعاً . إنهم بقوا متمسكين بقوميتهم ، شاعرين بها ؛ وظلوا ينزعون إلى التحرر من ربقة هؤلاء الحاكمين ، وإلى الاتحاد مع أبناء جلدتهم الآخرين ، إلى أن نالوا بغيتهم هذه ، وأعادوا بناء دولتهم المنقرضة . . .»

— ٣ —

المعادل السياسي للقومية هو الدولة. قد لايتحقق هذا المعادل السياسي في بعض الأحيان ، وقد يتحقق في أحيان أخرى ، لكن كل قومية تبحث عن معادلها السياسي ، أي تبحث عن دولتها الخاصة بها .

(١) — انظر : مختارات ساطع الحصري — الجزء الأول — ص ٧٦ — ٧٧ . منشورات دار القدس — بيروت ١٩٧٤ .

المعادل السياسي للقومية العربية هو الدولة العربية الواحدة ، أي الغاء هذه الكيانات المنتشرة على امتداد الأرض العربية ، لصالح كيان واحد ووحيد .

وفي وقت من الأوقات ، فإن النهوض القومي الذي شهده الوطن العربي كان يمثل شكلاً من أشكال البحث عن المعادل السياسي لحركة القومية العربية .

ثمة نهوضان قوميان شهدهما الوطن العربي في تاريخه الحديث ، وهما نهوضان لا يقوم التمييز بينهما إلا على سبيل الفرز والتصنيف وتسهيل الفهم . النهوض القومي الأول حدث في مواجهة الاضطهاد القومي الذي تعرض له العرب من قبل العثمانيين ، والنهوض القومي الثاني حدث في مواجهة الاضطهاد القومي الذي تعرض له العرب إبان المد الاستعماري الذي اجتاح المنطقة منذ أواخر القرن التاسع عشر .

في خلال هذين النهوضين ، كانت النظرية السياسية السائدة في الحياة العربية هي أن هذا النهوض القومي لابد من أن يجد معادله السياسي . وهذا المعادل السياسي لا يتمثل في الخروج على الاضطهاد القومي الذي تعرض له العرب فحسب ، ولا يتمثل أيضاً في الحصول على الاستقلال الوطني فقط ، وإنما المعادل السياسي لهذا النهوض القومي هو في اقامة الدولة العربية الواحدة ، أي في إنجاز الوحدة العربية .

— ٤ —

يعترض بعض المعترضين على الوحدة العربية باثارة بعض العقبات التي تحول ، في رأيهم ، دون تحقق المشروع القومي العربي .

من ذلك مثلاً مايقولونه من أن الأقطار العربية لاتتوفر فيما بينها الوحدة الطبيعية .

ومن ذلك مثلاً مايقولونه من أن الأقطار العربية لاتتوفر فيها الوحدة التركيبية ، أي التشابه في نمط الانتاج والموارد والامكانيات .

ومن ذلك مثلاً مايقولونه من أن الروح الوطني هو الروح السائد بين العرب ، أكثر من سيادة الروح القومي .



ندع الدكتور جمال حمدان يفند هذا الكلام ، وهو عالم الجغرافيا السياسية الأول في الوطن العربي .

. . . « ان الوحدة السياسية لاتأتي بالضرورة من الوحدة الطبيعية ، وإنما من الوحدة البشرية تأتي . فالعبرة في قيام دولة موحدة دستورياً هي وحدة الناس ، أي وحدة القومية ، بمعنى تجانسهم في المقومات الأساسية من لغة مشتركة وتاريخ ملتحم ومصلحة مترابطة وعقيدة سائدة ، وهذه جميعاً أركان متوفرة في القومية العربية ربما كما لاتتوفر في قومية أخرى معروفة . ولاعبرة بعد هذا بتجانس أو تباين الأرض التي يحتلونها .

ثم إن الوحدة السياسية وحدة وظيفية ، والوحدة الوظيفية في أي

مجال لاتأتي من الوحدة التركيبية بل من التنوع التركيبي . فأي جدوى من أن تتحد أقطار متشابهة منمطة في إنتاجها ومواردها وامكانياتها ، إلا أن يكون مجرد تمدد أميبي عقيم ؟ وهذا بالدقة -ايعرف بمبدأ « التنوع في الوحدة » أو « الوحدة في التنوع » .

وإذن فليس مما يضير قضية الوحدة العربية أو يخرب حركة القومية العربية أن يكون لكل قطر من أقطارها شخصيته الطبيعية المتبلورة بدرجة أو بأخرى داخل الإطار العام المشترك . وهذا التنوع والتباين في البيئات إنما يثري الشخصية العربية العامة ويجعلها متعددة الجوانب . وهو في نفس الوقت لاعلاقة له بالتعدد الدستوري ولايعني التمزيق السياسي أو تأكيد الانفصالية الراهنة بحال ، ولايشجع الولاءات الوطنية أو روح الاقليمية في وجه الولاء القومي العربي الكبير أو على حسابه . لا ، ولاهو يمهد لنعرة محلية وانعزالية فكرية وسياسية بقدر مايضيف إلى العزة القومية الواسعة وينميها » (١) .

— ٥ —

ليست العروبة مفهوماً عرقياً . إنها بالدرجة الأولى ، وقبل كل شيء ، مفهوم حضاري وثقافي . ولعل هذا هو الذي حدا بساطع الحصري إلى أن يقول في كتاب مفتوح إلى الدكتور طه حسين نشر في مجلة الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٣٨ تحت عنوان : « بين مصر والعروبة» :

(١) — انظر كتاب « شخصية مصر : دراسة في عبقرية المكان » تأليف د . جمال حمدان . ص ١٣ — ١٤ . منشورات : مكتبة النهضة المصرية — القاهرة . ١٩٧٠ .

« . . اضمنوا لي وحدة الثقافة ، وأنا أضمن لكم كل ماتبقى من ضروب الوحدة . . » (١) .

بهذا المعنى يمكن القول « إن كل من ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم باللغة العربية ، هو عربي . . . مهما كان اسم الدولة التي يحمل جنسيتها وتابعيتها بصورة رسمية ، ومهما كانت الديانة التي يدين بها ، والمذهب الذي ينتمي إليه ، ومهما كان أصله ونسبه ، وتاريخ حياة أسرته ، فهو عربي » .

وبهذا المعنى فان الأقوام الأخرى التي تعيش على الأرض العربية هي أقوام عربية بالمعنى الحضاري والثقافي للكلمة .

وبهذا المعنى أيضاً فإن جميع الذين أسهموا في صنع الحضارة العربية ، فكراً وعلماً وفلسفة . هم من العرب ، لأنهم ، بصرف النظر عن أصولهم العرقية ، ، تكلموا بالعربية ، وكتبوا معظم ماكتبوا بالعربية ، وعاشوا في ظل الحضارة العربية .

الفارابي بهذا المفهوم الحضاري الثقافي عربي ، وابن سينا عربي ، وغيرهما كذلك .

وبهذا المعنى أيضاً ، يمكن استبعاد أي مفهوم عرقي ربما يكون قد لحق بحركة القومية العربية فيوقت من الأوقات . وبهذا المعنى أيضاً يمكن نفي أية شبهة تعصب ربما تكون قد لحقت بدعاة القومية العربية .

(١) — انظر : مختارات ساطع الحصري — الجزء الأول — ص ٢١٠ .

وانطلاقاً من ذلك ، فإن الأقوام الأخرى التي تعيش على الأرض العربية تعتبر جزءاً من حركة القومية العربية في تطلعها إلى العثور على معادلها السياسي ، أي في محاولتها بناء دولتها القومية .

-٦-

نتساءل مجدداً :

— هل للوحدة مستقبل ؟ .

ونجيب بأن الأمر متوقف علينا نحن ، فبقدر مانسعى إلى هذا الهدف العظيم ، فإن تحقيق هذا الهدف يصبح أيسر منالاً .



وإذا كان « توينبي » قد افترض ان الوحدة العربية سوف تتحقق بحلول عام ١٩٧٤ ، استناداً إلى مقارنات تاريخية ، فان عدم تحقيق هذا الافتراض يومىء إلى حقيقة مفادها ان الأمر كله في يدنا نحن وليس في يد أية قدرية تاريخية قد تأتي وقد لاتأتي .

* *

خلدون الشمعة

# مقدمة في الجنس الروائي

— ١ —

مانزال الرواية على اختلاف تجاربها في الآداب الغربية والشرقية من أصعب الأجناس الأدبية وأقلها قابلية للتحديد . وإذا كانت كلمة « رواية » العربية اصطلاحية أي أنها اسم اصطلاحي ، فإن الكلمة باللغات الأوروبية تعني : « قصة نثرية ذات طول معين » . ولكن هذا التعريف يطرح من الأسئلة أكثر مما يجيب عن أسئلة . وقد جرت العادة ان يرجع الدارسون الغربيون نشوء الرواية إلى أعوام ( ١٦٠٥ — ١٦١٥ ) أي إلى الفترة التي ظهرت خلالها رواية ( دون كيخوته ) لثر فانتس .ويعيدهاالدارسون البريطانيون إلى بدايات القرن الثامن عشر أي إلى روايات ( ديفو ) مؤلف ( روبنسن كروزو ) و ( توماس ستيرن ) مؤلف رواية ( تريسترام شاندي ) ، وإلى روايات ( ريتشارد سن وفيلدينغ ) .

فلماذا لاتدرس ( حي بن يقظان ) لابن طفيل الاندلسي كنموذج للجنس الروائي الذي ينزع نزوعاً فلسفياً في أدبنا العربي . ؟ . .

ولماذا لاتدرس ( ألف ليلة وليلة) كنموذج من نماذج الجنس الروائي الذي يعتمد على الوحدة المفهومية Conceptual Unity بدلاً من الاعتماد على الوحدة العضوية Organic Unity كما نلاحظ في الروايات الغربية النموذجية التي تناقش عادة في الأطروحات التي تدرس ( الجنس الروائي ) وتطوره عن (الجنس الملحمي) . ؟

— ٢ —

يقرن ظهور الروايات عادة بظهور النثر كأداة تجريبية أشد صلة بالواقع من الأدوات الفنية الأخرى .

ولهذا فالصلة بين المذهب الواقعي بالمعنى الشامل للمصطلح وبين الجنس الروائي ، كانت وثيقة منذ البداية . وإذا كان الفن الروائي يقترب من فن التاريخ و ( الريبورتاج ) أحياناً ، أي يقترب من الصحافة وعلم الاجتماع والتاريخ فإن البنية الروائية كثيراً ماتستعار من الملحمة أو الأسطورة كما هو الشأن في رواية ( يوليسيس ) لجيمس جويس .

ولعل افتقار الرواية للأعراف الخاصة بها مقابل ثراء القصيدة والمسرحية بأعراف خاصة بهما ، هو الذي يجعل الرواية من أصعب الأجناس الأدبية وأقلها قابلية للتحديد . وبالطبع فنحن لانقصد بالتحديد وضع قواعد تصادر على حرية الإبداع داخل الجنس الروائي ، وإنما نقصد بذلك الحدود المستخلصة من تجربة الروائيين داخل الجنس الروائي. وبهذا المعنى ينبغي التأكيد على أن نظرية الأجناس الأدبية المعاصرة تتسم بأنها وصفية بالضرورة . وهذا يشير إلى أن هذه النظرية تتكيف بموجب كل نتاج جديد وأصيل .

— ٣ —

ومما يجعل الرواية من أشد الأجناس الأدبية إثارة للانتباه هو أنها تلح — بسبب السمة التمثيلية التي تتسم بها — على طرح العلاقة الوثيقة بين الواقع التخيلي وبين الواقع غير التخيلي . وبهذا الاعتبار فإن نزوع الجنس الروائي نحو منح الخيال القصصي القدرة على الإقناع الواقعي ، إنما يؤكد على حقيقة هامة مفادها ان « الواقع » ليس هدفاً ثابتاً يتسم بالاستقرار ، وإنما هو هدف متحرك لايقبل أن يسمر كما تسمر الفراشة المقتنصة ، بدبوس .

ومع ذلك فإن خاصية الإقناع بإمكان الحدوث ، جعلت بعض نقاد الرواية يرون فيها فناً إشارياً Referential Art . ويلاحظ أن التيار السائد في نقد الرواية العربية يعاملها على هذا الأساس . فبدلاً من أن تدرس الرواية باعتبارها تخلق واقعاً يوازي الواقع الخارجي ويمثله ، أخفقت في أن تلاحظ الطبيعة التمثيلية للرواية .

ونعني بهذه الطبيعة انها تمثل الواقع تمثيلاً رمزياً . ولاتشير كلمة الرمز هنا إلى كلمة تقف نقيضاً للواقع وإنما هي تقدمه تقديماً فنياً . لهذا تعتبر الرواية فناً . فالزمن الموضوعي الماثل في الواقع يصبح في الرواية زمناً نفسياً . وحتى في الحالات التي يظل فيها الزمن الموضوعي الماثل في الواقع زمناً موضوعياً في الرواية ، فإنه يقدم على أساس انه الزمن الذي تشعر به الشخصيات الروائية وتحياه .

— ٤ —

وقد ظل النقد ردحاً من الزمن يعامل الرواية وكأنها تاريخ كاذب

أو تاريخ مروي رواية رديئة . ولم تكتسب الرواية احترام النقد إلا عندما أصبحت فناً يختلف عن التاريخ والسيرة الذاتية . بل إن « حياة » الرواية ، قدرتها على ان تمنحنا الحياة كما تحس بها الشخصيات الروائية ، وكثافتها الاجتماعية ومداها ، ومطابقتها للسياقات الواقعية أحياناً ، تجعلنا نلح على أن مصلح الواقعية ينبغي ألايغفل الحقيقةالقائلةبأن الأدب عمل من أعمال التخييل أو الخلق التخيلي . ومن البديهي ان الخيال في هذا السياق متصل الجذور بالواقع ، وإلا لانقلب هذا الخيال إلى وهم . وفي حين يكون الخيال ،قادراً على الإقناع بالواقع فإن الوهم يكون عاجزاً عن أداء هذه المهمة .

— ° —

ويرى بعض نقاد الرواية ان من آثار ظهور مصطلح الواقعية في الرواية ، شيوع دراسة الرواية باعتبارها انعكاساً للواقع وبالتالي الاعتماد على مصطلحات العقدة والشخصية والوصف الخ . ولكن الرواية الحديثة تعدت هذه المصطلحات بكثير . فثمة خصائص بنيوية خاصة بالرواية أصبح النقد الأدبي يلح عليها ويبلورها في مصطلحات ( التوتر ) ، و ( المفارقة ) ، و ( وجهة النظر ) ، و ( الرمز ) . . الخ . .

بل إن الناقد المعروف مارك شورر Mark Schorer يلح على على مايدعوه بـ « التقنية باعتبارها اكتشافاً . » . . أي يلح على العناصر الشعرية في عملية التخييل القصصي بدلاً من أن يلح على أدوات تقليد الواقع . وبهذا فهو يجعل الفن الروائي نموذجاً ابتكارياً يقلده الواقع أو يحاكيه بدلاً من أن يقلد هو ( أي الفن الروائي ) الواقع . وليست هذه الفكرة جديدة . . فقد سبق أن نادى بها ( أوسكار وايلد ). ولكن ( مارك شورر ) لايطرحها اليوم على سبيل التبشير بفكرة جديدة وإنما ينطلق في فكرته من منطلق تشخيص الوضع الذي آلت إليه

الرواية الحديثة . وبهذا الاعتبار تصبح نظرية الجنس الروائي المعاصر ذات نزوع شعري . فالشعر يقدم المثال . والرواية المعاصرة التي تقترب من الشعر ترى في العمل الروائي عملاً مصنوعاً . أو بناء لفظياً Verbal Structure . وبالطبع فإن لهذا النوع من الرواية والنقد الملحق بها عيوبه . فهو يرجع البنية الأساسية للرواية إلى ملامح بلاغية ولغوية بدلاً من أن يرجعها إلى أنظمة نفسية أو اجتماعية .

— ٦ —

وللناقد فرانك كيرمود Kermode نظرية في الرواية مفادها أن ثمة شبهاً بين البنى القصصية وبين البنى الأخرى في صنوف الكتابة المختلفة ككتابة التاريخ على سبيل المثال . وحصيلة ذلك ان (كيرمود) يلح على أن جميع أنواع الكتابة بما فيها التاريخ إن هي إلا حبكات قصصية مضمرة وبالتالي فهي تنتمي إلى عالم القصة .

— ٧ —

من الطبيعي القول أن الرواية قد مرت في أطوار متعددة . وهذا من الأسباب التي شجعت ظهور النقد ذي النزعة التاريخية . فقد أطلق عليها أولاً اسم « الملحمة المحلية » . ثم صادف تطورها ظهور طبقة خاصة بقراء الرواية ، الطبقة البورجوازية . وأصبحت من ثم تعامل على أساس انها تمثل إدراك العالم الواقعي المادي والأخلاقي لدى طبقة معينة . وفي مرحــلة أخرى نظر إلى الرواية على أساس صلتها بالشخصية الإنسانية المكتملة في نموها الأخلاقي . وأخيراً أصبحت الرواية لدى بعض النقاد مرتبطة بأفكار معينة تتعلق بمبدأ السبب والنتيجة والتسلسل التاريخي للأحداث في مجتمع من المجتمعات .

وبالطبع فإن النظرية الخاصة بالحداثية Modernism في الرواية تلح باستمرار على مسألة القلقلة السائدة في مقاييس الرواية كجنس أدبي مستقل ، وتتنبأ بموت الرواية كما يعرفها قارىء الرواية التقليدية العادي .

وهذا يساعد على اكتشاف حقيقة مفادها أن وجوه الواقع دائبة التغير . كما يساعد على أن يوضح بعض وجوه التطور الروائي :

سيطرة الشكل في صورته الأشد واقعية في القرن التاسع عشر ، وظهور الطبيعية Naturalism فيما بعد ، ومن ثم ظهور بعض أشكال القص التي تنتمي إلى الحداثية Modernism كالرواية المضادة على سبيل المثال Anti - Novel .

— ٨ —



والسؤال الذي يطرحه تطور الفن الروائي على صعيد الآداب الأجنبية يثير أسئلة كثيرة حول علاقتنا بهذا التطور . إن ظاهرة التعدد الأسلوبي Poly Stylistic التي تلاحظ في الرواية العربية تثبت أن التطور الروائي في تجربة أدبنا العربي الحديث ما يزال من العسير أن ينظر اليه على أساس أنه يعبر عن ضرورات ثقافية واجتماعية تتصل بالقارىء . بل إن المرء ليميل إلى النظر إلى تجربة تطور الجنس الروائي لدينا على أساس المؤثرات الثقافية الأجنبية أو ما يطلق عليه بـ « المثاقفة » Acculturation بلغة الأنثروبولوجيا الثقافية . فعندما لا تتجاوز أعداد النسخ المطبوعة من روايات( جبرا ابراهيم جبرا ) أو ( حليم بركات )أو (هاني الراهب )أو (حيدر حيدر أو (وليد إخلاصي )الثلاثة آلاف نسخة، يستغرق رواجها عدة

سنوات، فإن من الصعوبة بمكان أن نتحدث عندئذ عن ضرورات في التطور الأسلوبي فرضها تطور مماثل أو مطابق للذوق الأدبي لدى القارىء العربي .

— ٩ —

إن السؤال عن آفاق تطور الجنس الروائي يطرح إذن من منظور التأكيد على أن الرواية المعاصرة ، ربما أكثر من أي جنس أدبي آخر ، استطاعت أن تهضم أجناساً أدبية متعددة وأن تتمثلها . فقد استطاعت الرواية الحديثة أن تستوعب جميع الأجناس الأدبية تقريباً . وهذا ما يجعلنا نؤكد مجدداً على ما كتبناه عن ضرورة إعادة اكتشاف الأجناس الأدبية الخاصة بالتراث العربي . إن مثل هذا الاكتشاف سيمنح الروائي العربي معرفة نقدية أعمق بالأجناس الأدبية التراثية ، يمكنه أن يوظفها في بلورة تجربته الروائية الجديدة .



— ١٠ —

إن إعادة الاكتشاف هذه ، لا بد أن تؤدي بنا في نهاية الأمر إلى التأكيد على الأهمية النوعية لأجناس فنية عربية متميزة كالمقامة والحكاية والخبر والنادرة والمناظرة .

— ١١ —

لقد تردد في النقد المعاصر أن العرب لم يعرفوا نظرية متطورة نقدياً وخاصة بالأجناس الأدبية . غير أن دراسة المقامة كجنس أدبي مستقل وليس كقصة قصيرة غير مكتملة الخصائص ، ودراسة ( ألف

ليلة وليلة ) باعتبارها تنتمي إلى جنس أدبي متميز هو الكتاب القصصي الذي يختلف عن جنس الرواية بأنه رواية تتألف من حكايات متصلة الحلقات تشكل وحدة مفهومية مقابل الوحدة العضوية التي تتميز بها الرواية التقليدية ، لا بد أن تكون مغامرة بالغة الأهمية . بل إن كتاباً في الحب كطوق الحمامة لابن حزم الاندلسي سوف يؤدي بنا في مسار يشير إلى جنس أدبي متميز يتأرجح بين الحكاية والنادرة والمقالة والقصيدة ، دون أن يبدو عالة على أي من هذه الأجناس . إن هذا الجنس الأدبي المتميز قد ظهر حديثاً على أيدي كاتب يدعى ( فوزرينسكي ) في مؤلف تحت عنوان :

( عن النساء الأكبر سناً ) . وعنوان فرعي هو ( كتاب في الحب ) . غير أن ( ابن حزم ) في (طوق الحمامة ) سبقه إلى ابتكار هذا الجنس الأدبي بعدة قرون .



— ١٢ —

إن ما يهمنا من إعادة الاكتشاف هذه ، أن توضع المعرفة النقدية بأجناس أدبية عربية مختلفة بين يدي الروائي العربي ؛ فتكون بمثابة أدوات تقنية واضحة المعالم والسمات ، للرواية الحديثة التي يعتزم إنجازها . فالرواية كما هو معروف فن مركب وليست فناً بسيطاً . ولهذا فإن عناصر الأجناس الأدبية التراثية المختلفة لا بد أن يكون لها دورها في تطور الجنس الروائي في تجربته العربية المعاصرة .

موريس جانجي

# سمات الرواية الجديدة



حاول كثير من النقاد تقصي سمات الرواية الجديدة ، واستشفاف ملامحها ، مؤملين إيجاد قاسم مشترك يجمع بين مختلف الأدباء الذين ينضوون تحت هذه التسمية ، غير أن تلك المحاولات ذهبت هباء ، ترى ماالذي يجمع مثلا بين آلان روب غرييه ، وناتالي ساروت ، وميشيل بوتور ، وكلود سيمون وغيرهم ؟ لاشيء . . ولعل هذا مادفع بعضهم إلى القول بانه توجد روايات جديدة بقدر ما يوجد روائيون جدد .

وقد سعى غاتيان بيكون ، مدفوعاً بحب التصنيف والوضوح ، إلى أن يقسم الرواية الجديدة إلى مدرستين : « الأولى وتسمى مدرسة النظرة ، تجعل من الشيء ، لا من الانسان موضوعاً لها ، فتحاول وصفه ، وتحليله بالطريقة الطبيعية المباشرة ، ورواد هذه المدرسة : روب غرييه وكلود سيمون وميشيل بوتور . . يتخذون من فلوبير قاسماً مشتركاً ، ويفيدون منه في اقامة مدرستهم الطبيعية الجديدة .

أما المدرسة الثانية ، وقد اسماها الباطنية ، فتتخذ من المونولوغ الداخلي محوراً تدير عليه أعمالها ، وطابعاً تتسم به دون غيرها ، ولكنها تختلف عن النزعات الأخرى التي تعتمد على المونولوغ الداخلي بانها تتمادى في الكشف عن طوايا النفس وخبايا اللاشعور ، دون أن تقف عند حد . . ويمثل هذا الاتجاه صمويل بيكيت ، وناتالي ساروت . . »

ولعل الصعوبة في إيجاد قاسم مشترك إيجابي بين الروائيين الجدد مرده في تقديرنا ، إلى أن الرواية الجديدة لم تكن في بدايتها ملهباً ، ولم يكن أصحابها منظرين ، فالتنظير لها إنما نشأ بعد ذلك بكثير ، حين حاول هؤلاء الروائيون أن يجدوا تفسيراً وتعليلا لكتاباتهم حتى أن تسمية « الرواية الجديدة » قد اطلقت مصادفة ، وشاعت مصادفة ، ولم تكن واضحة في أذهان روب غرييه ، وساروت ، وبوتور ، وسواهم ، حين كتبوا أعمالهم في هذا الاتجاه .

ومع ذلك ، إذا كان غرض التصنيف ، إيجاد صلة قرابة بين هؤلاء الروائيين ، رغم الفروق التي تفصل بينهم ، فمما لاشك فيه ، أنها قرابة سلبية تقوم على الرفض ، وقد أعلن آلان روب غرييه في تصريح له نشر في مجلة « الفيغارو » : « إن العناصر الإيجابية شخصية بالنسبة لكل واحد منا ، وإذا كان من الممكن لعدد من الروائيين، أن يشكلوا جماعة ، فذلك إنما يحدث على أساس العناصر السلبية ، أو على أساس الرفض الذي يجمع بينهم تجاه الرواية التقليدية . .(*) » .

الرفض إذاً هو الذي يصل بين هؤلاء الروائيين ، على الرغم من الفروق الشخصية في تعاملهم مع الواقع ، وفي نظرتهم إلى العالم ، ولكنه رفض لأي شيء؟ . . أنه رفض للشخصية، وللحدث أو الحكاية ، رفض للواقع في عصرنا الحاضر : عصر الشك ، كما تدعوه ناتالي ساروت ، ورفض للالتزام ، بالمعنى الذي شاع عند الوجوديين وبخاصة عند سارتر .

ولما كانت الرواية الجديدة مؤسسة على الرفض ، لايجتمع كتابها على خصائص إيجابية للرواية ، ولا يقرون أصلا بوجود مثل تلك الخصائص ، فلا بد لنا والحالة هذه ، من أن نبحث في النقاط السلبية التي ينعقد اجماع هؤلاء الروائيين على رفضها ، لايشذ في ذلك منهم أحد ، وهذه النقاط هي : ١ – الشخصية ٢ – الحدث أو الحكاية ٣ – الواقع ٤ – الالتزام .

وكل ما نرجوه أن نصل ، بعد استكمال بحث هذه النقاط البارزة ، إلى استخلاص سمات الرواية الجديدة ، أغراضها ، مقاصدها ، منطلقاتها والمرتكزات التي تقوم عليها ، فنكون بذلك قد سلكنا مسلكاً عكسياً ، من حيث أننا انطلقنا مما ترفضه الرواية الجديدة وتنفيه ، من أجل الوصول إلى ما تقره وتثبته .

١ – الشخصية

يقول آلان روب غرييه : « لاتستهدف رواياتنا خلق شخصيات ، ولا سرد حكايات ».

(*) مجلة الفيغارو الادبية تاريخ ٢٩ آذار ١٩٥٨

يبدو هذا القول للوهلة الأولى غريباً لدرجة المفارقة، فماذا يبقى من الرواية، إذا خلت من الشخصيات والأحداث ؟ ثم أليست روايات آلان روب غرييه نفسها مؤسسة على الشخصية والحدث ؟ شيء ما يحدث لشخص ما . . بيد أننا إذا أمعنا النظر قليلا ، تبين لنا أن الروائيين الجدد ، لا يرفضون الشخصية والحدث بقدر ما يرفضون مفهوماً معيناً عن الشخصية والحدث ، ساد في القرن التاسع عشر ، ولا يزال سائداً إلى يومنا هذا عند بعض الروائيين ، وهذا المفهوم أصبح اليوم ، بنظر الروائيين الجدد ، مفهوماً قديماً ، بالياً ومهترئاً ، يجب حذفه والغاؤه .

وقد كانت ناتالي ساروت سباقة إلى كشف تفكك الشخصية الروائية وتحللها ، فقد نشرت في عام ١٩٥٠ مقالا : « عصر الشك » ، هاجمت فيه بعنف الرواية التقليدية ، ومقوماتها الأساسية التي هي : الشخصية الاشكالية والعقدة ، مبينة كيف أن الكاتب والقارئ على السواء ، فقدا ثقتهما بالشخصية الروائية ، وأصبحت موضع شكهما المتبادل ، أضف إلى ذلك أن تلك الشخصية الاشكالية ، قد تصدعت ، وتهافتت ، لأنها فقدت مبررات وجودها ، والنسغ الذي كان يكفل لها قديماً الحياة والبقاء ، تقول ساروت : « فقدت الشخصية ، شيئاً فشيئاً كل شيء : أجدادها ، وبيتها المبني بعناية ، الغاص بالاشياء من كل نوع . . . فقدت املاكها ، شهادات استثمارها ، ثيابها ، وجهها ، جسدها ، وبخاصة . فقدت ذلك الشيء الثمين الذي كانت تتميز به : طبعها الخاص ، وحتى اسمها ...(١) »



لقد أصبحت الشخصيات الاشكالية من مخلفات القرن الماضي ، وغدت اشبه بتماثيل من الشمع ، تحدثنا نفوسنا بأن نجسها لنرى إن كانت ستتحرك ، فقد أصبحت مشلولة ، ومعقدة ، ولم تعد قادرة على احتواء الواقع النفسي الحالي ، بكل ثرائه وتدفقه ، تقول ساروت : « لقد قامت في الربع الأول من هذا القرن ثورة حقيقية في الأدب ، ثورة اطلقها بروست ، وجويس ، وفرجينا وولف ، وكافكا . لقد غير هؤلاء الكتاب مركز الثقل في الرواية .

وكانت الشخصية ، الشخصية المكيفة بوساطة العقدة الروائية ، هي مركز الثقل هذا .

بيد أن هذه الشخصية التقليدية ، قد فقدت قدرتها على الاقناع ، وغدت ، من فرط تكرار استنساخها بابداع انماط لاتحصى بالطريقة نفسها ، تعبيراً عن الاتفاقي ، وعما هو

(١) عصر الشك . ص ٧١ — ٧٢

L'ere de Soupçon - Nathalie Sarraute - Idées - N.R.F.

سراب . ولقد كفتنا عن الاعتقاد ، منذ زمن طويل ، بقدرة هذه الشخصية على التعبير ، وحدها ، لا عن واقع مجهول فحسب ، بل عن الواقع الظاهر واليومي الذي نعرفه ، أعني الواقع الذي علمنا فرويد وبروست وجويس وكفكا رؤيته .

ومن هنا هذا النزوع في الرواية المعاصرة إلى إهمال هذا الاتفاق الروائي المحض ، أعني بطل الرواية . فقد تصدعت هذه الشخصية في الأدب الحديث ورقت،ولم تعد سوى الدعامة الهشة والمتحركة للمادة الجديدة التي تفيض عنها من كل ناحية . . . تلك المادة التي غدت من التعقيد بحيث أن حدود بطل الرواية التقليدية المحددة جداً ، الغليظة والصلبة ، لايمكن لها استيعابها . »(١) .

لقد جاءت الرواية الجديدة لتكون على نقيض الرواية التقليدية التي تألق نجمها ، وعلا شأنها في القرن التاسع عشر ، على يدي بلزاك وستندال وفلوبير ودوستويفسكي ، نقيض لها في سماتها وخصائصها جميعاً ، فالرواية الجديدة ترفض الشخصية الاشكالية رفضاً قاطعاً . إن بلزاك ، على سبيل المثال ، حريص على أن يكون لابطاله اسماء علم ، بل القاب واسماء أسرة ، لأن الاسم ضرورة لاغنى عنها في المجتمع البورجوازي ، فهو يمنح الشخصية هويتها ووظيفتها ، ويحدد انتماءها وتفردها ، كما يحدد طابعها وماضيها . . والنقد التقليدي حريص هو أيضاً على إبقاء الشخصية الاشكالية ، فالروائي الحقيقي ، في عرف النقاد التقليديين ، انما هو القادر على خلق الشخصيات ، وهل يتأتى كتابة رواية من غير شخصية ذات طابع مميز ومحدد على تلك الشخصية الحدث الذي تؤديه ؟ .



لقد كانت الشخصية اللبنة الأساسية التي يقوم عليها العمل الروائي كله ، إن الشخصيات التي خلقها بلزاك ، من أمثال الأب غوريو والأب غرانديه وراستينياك ووبابانبريه وسيزار بيروتو ... والتي تزدحم بها الملهاة البشرية ، لاتزال ماثلة في أذهاننا ، تثير فينا الحب أو الكراهية ، تحملنا على القسوة عليها تارة ، أو الاشفاق عليها والرثاء لحالها تارة أخرى ، ولكنها تبقى على كل حال شهادة على حصر البورجوازية الصاعدة ، ترصد واقع هذه الطبقة ، وتعبر عن احتياجاتها ، وتعكس تطلعاتها .

إن الرواية البلزاكية آخذة اليوم في الأفول ، فقد تخلى عنها سندها الكبير « البطل » ، يقول آلان روب غرييه : « الحقيقة أن خالقي الشخصيات ، بالمعنى التقليدي للكلمة ،

---

(١) الرواية الجديدة والواقع – مقال ساروت – العدد ١٦٥ من مجلة المعرفة ص : ٨٤

لم يعد باستطاعتهم أن يقدموا لنا سوى اشباح ، هم أنفسهم قد كفوا عن الإيمان بها ، ان رواية الشخصيات الآن أصبحت ملكاً للماضي . فقد كانت من الصفات التي تميز حقبة معينة : أعني الحقبة التي وصل فيها الفرد إلى قمة مجده » .

ويتابع غرييه فيقول : « وربما لم يكن ما حدث الآن تقدماً ، ولكن من المؤكد أن الحقبة الحالية هي حقبة الشخص المرقم Numero Matricule إذ لم يعد مصير العالم ، على الأقل بالنسبة لنا ، مرتبطاً بصعود أو سقوط عدة رجال ، وعدة أسر ، إن العالم لم يعد ملكاً خاصاً ، موروثاً أو مباعاً ، لم يعد تلك الغنيمة التي كان الكثيرون يهتمون بامتلاكها ، لا بمعرفتها . لقد كان « الاسم » مهماً جداً في زمن البورجوازية البلزاكية . كان « الطابع » مهماً جداً ، فقد كان سلاحاً يبارز به ، وأملاً في النجاح ، والتمرين على السيادة والغلبة . كان مهماً أن يكون للمرء وجه في هذا الكون الذي كانت الشخصية تمثل فيه وسيلة وغاية كل بحث . .

أما اليوم ، فعالمنا أقل ثقة في نفسه ، وربما أكثر تواضعاً ، مادام قد تخلى عن فكرة القوة العظمى للشخص ، ولكنه أكثر طموحاً مادام يبحث عما بعد ذلك . إن العبادة المفرطة « للانساني » قد تخلت عن مكانها لحالة شعور وإدراك شاملة وأقل تمركزاً في الذات . . »(١)



إذاً الروائيون الجدد يعلنون عن سقوط الشخصية التي كانت تحتل الصدارة في القرن التاسع عشر . ويطالبون بحذفها والغائها ، لأنها أصبحت ، على حد تعبير روب غرييه ، مومياء . فما تعليل غياب الشخصية في الرواية الجديدة ؟ .

إذا سلمنا بأن الحياة الثقافية غير منفصلة عن الوقائع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فلا بد لنا من أن نربط بين ظاهرة غياب البطل في الرواية الجديدة ، وبين تاريخ الرأسمالية الغربية . وهذا بالضبط مافعله لوسيان غولدمان حين فرق بين ثلاث مراحل مرت بها الرأسمالية الغربية ، امتدت المرحلة الأولى منها إلى حوالي عام ١٩١٠ وأطلق عليها اسم الرأسمالية الليبرالية : انها مرحلة الفردية باجلى معالمها واوضح صورها ، وقد عبرت هذه المرحلة عن نفسها على صعيد الفكر ،من خلال الفلسفة العقلانية ، والفلسفة التجريبية ، كما عبرت عن نفسها ، على صعيد الأدب ، من خلال الرواية الكلاسيكية : الرواية ذات الشخصية الاشكالية .

---

(١) نحو رواية جديدة — الآن روب غرييه — ترجمة مصطفى ابراهيم مصطفى — دار المعارف ص : ٣٦ .

ونلمس في الرواية ذات الشخصية الاشكالية تأكيداً على الفرد والقيمة الفردية . وتظهر الفردية بجلاء ، في الروايات التي ظهرت خلال هذه الحقبة ، ابتداء من دون كيخوتي وانتهاء بالاحمر والأسود ومدام بوفاري .

وأما المرحلة الثانية من تاريخ الرأسمالية الغربية ، فهي المرحلة التي تبدأ في حوالي عام ١٩١٠ – ١٩١١ والتي أطلق عليها اسم مرحلة الامبريالية . فقد شهدت تلك المرحلة أزمات اقتصادية واجتماعية عنيفة وحادة ، حتى لقد خيل للمفكرين الماركسيين الذين عايشوا تلك المرحلة ، أنها ستكون النذير والأزمة النهائية الكبرى للرأسمالية ، سيعقبها اندحار النظام الرأسمالي ، ثم سقوطه ، والانتقال إلى النظام الا شتراكي .

لقد تألق في تلك الحقبة الأدب الروائي الذي يستمد فلسفته من الفلسفة الوجودية ، فظهرت رواية « الغثيان » «(١) لسارتر ، ورواية « الغريب » لكامو ، فروكتتان وموزسو يؤكدان صعوبة الفرد في التلاؤم مع المحيط بهما ، وهكذا طرحت لأول مرة مشكلة الشخصية في الرواية . إن هذه المرحلة ، على الصعيد الاقتصادي ، هي مرحلة انتقال من الرأسمالية الليبرالية إلى رأسمالية التروستات ، فكان لابد لمرحلة الانتقال هذه من أن تنعكس على الشخصية الروائية التي أصيبت بدورها بالانحلال والتفكك ، من جراء فقدان الفرد للدور البارز الهام الذي كان يحتله في الحقبة السابقة .

حاول بعض الروائيين ، في ذلك الحين ، التغلب على أزمة الشخصية الروائية باحلال الشخصية الجماعية محل الشخصية الفردية ، وكتابة روايات ذات شخصية جماعية ، كما فعل روجيه مارتان دي غار مثلا في روايته الضخمة آل تيبو ، وكما فعل توماس مان في روايته آل بودنبروك ، وكما فعل اندريه مالرو في روايته الوضع الانساني ، غير أن تلك المساعي بقيت في إطار المحاولات ، ولم يكتب لها النجاح في التغلب على أزمة البطل الفردية ،

(١) لابد أن ننوه إلى أن رواية « الغثيان » الصادرة عام ١٩٣٨ تشكل انعطافاً في تاريخ الرواية على جانب كبير من الاهمية ، وخروجاً مطلقاً على المفهوم التقليدي للرواية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ( بلزاك – ستندال – ميريدث – ديكنيز ) والرواية الطبيعية في النصف الثاني من القرن نفسه ، من حيث أنها ركزت على الخبرة ، ولم تتركز على تحليل الطباع الفردية للشخصية . ألم يمهد سارتر ، من هذا المنطلق لظهور الرواية الجديدة ؟

لأن الثورة الاشتراكية التي اجتاحت أوروبا ، وإن نجحت جزئياً في هز المجتمع البورجوازي الأوروبي وخلخلته ، إلا أنها لم تملك القدرة الكافية على تغيير هذا المجتمع تغييراً جذرياً .

وجاءت المرحلة الثالثة ، وهي المرحلة التي نعيشها اليوم ، والتي تهمنا بصورة خاصة في هذه الدراسة : مرحلة المجتمع التكنوقراطي ، فقد تميزت تلك المرحلة بظهور آليات واعية للانتظام الذاتي ، ووجدت مرحلة التنظيم المعاصرة هذه تعبيرها الأدبي في الرواية الجديدة ، التي يعتبر آلان روب غرييه وصمويل بيكيت خير ممثلين لها ، إذ يقدمان لنا نموذجاً للإنسان ، ذات بنية نفسية ، سلبية ، غريبة عن كل قرار مسئول ، وموجهة بصورة رئيسية نحو الاستهلاك .

ولكن كيف يتم التخلص من الشخصية في الرواية الجديدة ؟

هنا لا بد من التنويه بأن التخلص من الشخصية ، عند الروائيين الجدد ، يتم بطريقتين متباينتين . تقوم الطريقة الأولى على طمسها ، هكذا ، وبمنتهى اليسر ، في حين تقوم الطريقة الثانية على مطالبتها بالتهام نفسها . وإذا كان روب غرييه قد اختار المسلك الأول ، فإن بيكيت قد اختار المسلك الثاني ، ولكن هذين المسلكين ، في النهاية ، يلتقيان في الهدف والمثال ، فقد لاحظ برنار بنغو بأن الراوي غير المرئي ، في رواية « الغيرة » إذا ماقرر ان يظهر ويتحدث ، فلن يكون خطابه مختلفاً كثيراً عن خطاب المسخ المتغير الشكل الذي يصوره بيكيت في « اللامسمى » ، ذلك الكائن الذي لا هوية له ولا ذاكرة ، ولا يقدر أن ينشيء افكاراً مترابطة ، ويتساءل فيما إذا لم يكن غير شكل من أشكال الكلمات التي يتلفظها .

يقول بنغو : « في الطريقة التي تقوم على طمس الشخصية ،يكسب العالم الخارجي مافقده الإنسان من أهمية ، ويصبح عالماً قاسياً ، جامداً ، قاطعاً ، لا ينفذ إليه أحد ، يصدم به ، من غير ان يؤنس ، عالم يكتفي الانسان بالنظر إليه ، والاشياء فيه ليست ملكاً للشخصيات ، بل هي ملك للاشياء ، وتمحي أمامها . اما في طريقة التهام الشخصية لنفسها ، فيتحطم العالم الخارجي ، ويصبح ذريعه الوعي ، ولا يجد ما يرتكن إليه ، لافي الخارج ، ولا في الداخل ، ويجر في سقطته تلك الشخصية ، وقد اصبحت عاجزة عن تحديد موقفها منه (١) . »

(١) مجلة ايسبري – آب ١٩٥٨ – ص : ٥٦ – ٥٧

في الملهاة الانسانية تتزاحم الشخصيات تزاحماً لا نظير له ، كان بلزاك يقول إنه يريد ان ينافس الأحوال المدنية، وكان البطل في الرواية التقليدية عامة يرسم سلفاً في ذهن الروائي ، ويعد مسبقاً على صورة تفسير ، أي أنه يأخذ أبعاده كلها ، قبل ان يشرع الروائي بالكتابة ، فجوليان سوريل ، والاب غوريو ، وإيما بوفاري تتمتع بطبيعة إنسانية ثابتة ومستقرة ، ثبوت العالم الذي يحيط بها واستقراره .

أما اليوم ، فقد حصل تبدل جذري في مفهومنا عن الانسان والعالم . لقد تغير كل شيء . نظرية الطبيعة الانسانية الثابتة ، المستقرة ، الخالدة ، انهارت ، وانهار معها مفهوم الثبات الانساني ، فالانسان متغير ، ولايمكن للروائي ان يعرف شيئاً مؤكداً عن أبطاله سلفاً ، لا يقدر ان يحدد ملامح وجهها ، وهيئتها ، ولون عينيها ، لأنها غدت بلا وجه ، قد يكون لها اسماء ، غير ان أحداً لايقدر ان يتذكر تلك الأسماء إلا بمشقة بالغة ، فمن يتذكر ليون دلمون بطل رواية « التغيير » لميشيل بوتور ؟ . . الا يمكن ان يسمى دلمون دوبون ؟ . .



وقد يحدث لبس بين لقبين غريبين كوالاس وماثياس ، فهل يتسنى لمن يكون قد قد قرأ روايتي آلان روب غرييه الماحي والبصاص ان يجزم إلى أية رواية من الروايتين ينتمي كل اسم منهما ؟ قال بيكيت في « اللامسمى » هذه الأسماء جميعاً إنما تعني ، في الحقيقة ، شخصاً واحداً : هو الشخص الذي يبحث .



في عالم الاستلاب والغربة لم يعد الاسم يعني شيئاً على الإطلاق ، وحسب الروائي ان يكتفي من الشخصيات بعلامات خرس كالحروف آ – س – م – ن . . . أو يستخدم الضمائر الشخصية : هو – هي – هم . . . فليس ، في تقدير الروائيين الجدد ، أفضل من تلك العلامات الخرس للتدليل على تلاشي الفرد وانحلاله .

وهنا لابد من الاعتراف بفضل كفكا ، فقد كان سباقاً إلى البحث عن علامات ورموز لشخصياته ، كأنه يمنحها حرف ( الكاف ) ، وهو الحرف الذي يبدأ به اسمه .

وكذلك فوكنر ، فقد عمد في « الصخب والعنف » إلى اعطاء الاسم نفسه لشخصيتين مختلفتين في روايته .

كل ذلك من أجل التعبير عن تهافت الشخصية وتحللها ، في عالم اضحت معانيه ،

على حد تعبير روب غرييه ، جزئية ، وقتية ، زائلة ، متناقضة ، وموضوع جدل ونقاش دائم .

إن بطل الرواية الجديدة الذي فقد حظوته وتميزه ، بل طابعه وهويته ، واصبح متعذراً علينا ان نحدد موقعه من الخارج ، او تحليله من الداخل ، قد استحال إلى صوت ، مجرد صوت ، ولكن يبقى هذا الصوت جديراً بأن يستمع إليه ، لأنه يختلف من روائي إلى روائي آخر .

بعد أن انسلخ هذا البطل عن العالم ، اصبح صوته غريباً ، غريباً حتى عن نفسه ، أراد أن يتعرف صوته فشعر بنهم شديد إلى الانتماء .

لعازر بطل كيرول الخارج من القبر ، أحسّ عريه . ووحدته، وتشوهه، عليه ان يوجد ، ويحث الخطا بحثاً عن ذاته ، ولكن ماكاد يفلح في إيجاد ذاته ، حتّى شعر أنه وقع من جديد في الأسر ، متقوقعاً في « الشخصية » التي صار عليها ، في نظر الآخرين ، وفي نظر نفسه .



## ٢ — الحكاية



تعد الحكاية الركيزة الثانية التي تقوم عليها الرواية التقليدية ، بعد الشخصية : ركيزتها الأولى ، وقد فقدت الحكاية كذلك في الرواية الجديدة الكثير من اهميتها ، كما أن العقدة نفسها لم تعد تحتل المكانة التي كانت تحتلها في الرواية التقليدية ، واغلب الظن ان رفض الروائيين الجدد للقصة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرتهم إلى الرواية ، فالرواية ، في عرفهم ، ليست سرد قصة اخذت شكلها النهائي الكامل في الماضي ، وفقاً لخطة وضعها المؤلف مسبقاً ، وكأنها جزء متجمد في الزمان ، بل هي بحث عن واقع في سبيله إلى الحدوث والتحقق ، يشارك في تلمسه وخلقه المؤلف ، مثلما يشارك في تلمسه وخلقه القارىء سواء بسواء .

وكلما اسلم الروائي نفسه للبحث ، واوغل في تتبع حدثه ، اكسبه ذلك وعياً بعمله الفني ، وإدراكاً له ، وتعلم مالم يكن له علم به ، وكذلك شأن القارىء ، فبعد ان كان موقفه سلبياً ، ويقتصر على تقبل عالم مكتمل ، جاهز ، قد أعد سلفاً ، من غير ان يكون له نصيب في اعداده ، اصبح موقفه انتقادياً خلاقاً ، وصار يسهم اسهاماً فعالا في إبداع العمل الروائي بإعادة خلقه من جديد خلقاً إيجابياً واعياً !

وإذا كانت الرواية الجديدة، كما بينا، هي بحثاً عن واقع في سبيله إلى الحدوث والتحقق، فقد غلب المضارع على الزمان الروائي، عند كثيرين من الروائيين الجدد، بعد ان كان السرد الروائي مقتصراً على الماضي. الزمن الأمثل للرواية.

ولئن كان جورج لوكاش يحدد زمان الرواية التقليدية بالعبارة: « بدأ الطريق وانتهى السفر . . » فان الزمان في الرواية الجديدة يمكن ان يحدد بالصيغة التالية: « انتهى السفر الآن، من غير أن يبدأ الطريق ابداً . . . » .

ويذهب آلان روب غرييه مذهب لوكاش حين يتحدث عن الزمان في الرواية الجديدة فيقول: « لم يعد للزمن وجود في الرواية الحديثة، وإذا كانت مسائل الذاكرة قد اخذت كل تلك الأهمية. فما ذلك إلا لأنه لا توجد زمانية بالنسبة إلى الذاكرة » (١) .

ليس في الرواية الجديدة « حكاية » بالمعنى التقليدي للكلمة، أي حدث يقع، ثم يتطور شيئاً فشيئاً، ويتعقد، ويزداد تعقيداً، وأخيراً ينحل . . لأن هذا التكنيك، في رأي الروائيين الجدد، إنما هو محض افتعال، لئن كان له مايسوغه في القرن التاسع عشر، فلم يعد اليوم يعني شيئاً على الاطلاق.

لقد طرأ على « الحكاية » تحول يماثل التحول الذي طرأ على الشخصية، فكما ان الشخصية تصدعت وتهافتت وانتهت إلى التلاشي كلياً، كذلك الحكاية انتهت إلى التلاشي والانعدام.

هذا لايعني بالطبع ان لاشيء يحدث في الروايات الجديدة، كما أن اختفاء البطل التقليدي لايعني اختفاء الحضور الانساني من الرواية الجديدة، فالبحث عن بناءات جديدة للرواية شيء، والغاء الحدث شيء آخر، ذلك ان البحث عن بناءات جديدة للرواية، قد فرضته صورة العالم الجديد الذي لم يعد عالماً واضحاً، ثابتاً، مستقراً، كما كان عليه في الماضي.

فمن الانصاف إذاً ان نقول: إن الروائيين الجدد نقلوا مركز الاهتمام في الرواية، من تصوير الشخصية، ودراسة الطباع والحدث والعقدة، إلى البحث عن مادة روائية جديدة، مادة لا اسم لها، بغية النفاذ إلى اعماق العمل الفني، لأن القيمة، في تقديرهم،

(١) une parole exigeante par Ludovic Janvier Les Editions de Minuit ).

تكمن في العمل الفنّي بالذات . ومن هنا كانت أهمية الوصف والحوار في الرواية الجديدة ، فالوصف والحوار يجنحان إلى احتلال المكان البارز في الرواية الجديدة وكأنهما البديل للاحداث في الرواية التقليدية .

ولا بأس من الوقوف عند روايتي « التغير » لبوتور و « الغيرة » لروب غرييه للتدليل على صحة ذلك .

إن موضوع رواية « التغير » يبدو للوهلة الأولى موضوعاً تقليدياً تافهاً ، يعالج مشكلة مطروقة ، مشكلة الزوج والزوجة والعشيقة ، ويكفي ان نقرأ بامعان الرواية لنتبين ان مايهم بوتور بالدرجة الأولى ، ليس معرفة ماإذا كان البطل سيقوم بتطليق زوجته ، كي يعيش مع عشيقته ، ولا أن يستخلص من موقفه فلسفة كاملة عن الحب أو الزواج ، ان مايهمه أولا وأخيراً هو « التغير » في حد ذاته .

نرى رجلا يصبح رجلا آخر ، لالشيء . إلا لأنه يفهم بأنه لايملك القدرة على التغير ، اولا يريده .

يستقل ليون‌دلون الذي يعمل مديراً للآلات الكاتبة والبالغ الاربعين من عمره القطار ، من أجل ان يعلن لعشيقته سيسيل ، المقيمة في مدينة روما ، بأنه وجد لها عملا في باريس ، يمكنها من العيش معه ، حين يكون قد قام بتطليق زوجته ، كما ينوي ان يفعل ، ولكن ماإن يقترب من روما ، ويدخل القطار في المحطة الأخيرة حتى يعلم بأنه لن يقول شيئاً لسيسيل ، التي تعمل سكرتيرة الملحق العسكري الفرنسي في روما ، ولن يفترق عن زوجته هنرييت ، فلتبق إذاً سيسيل في روما ، ولتبق علاقتهما التي اصبحت الآن واهية على ماكانت عليه سابقاً ، وفي هذه الحال فسوف يعود لرؤيتها في خلال اسفاره المهنية كما دأب ان يفعل فيما مضى .

وهكذا فسوف تستمر الحياة على هذا النحو ، مع سيسيل في روما ، ومع هنرييت في باريس ، وأما هو فمقيم في هذا القطار . .

ان ماتبدل فعلا ، او بالأحرى ماتبدد إنما هو الوهم الذي كان الدافع لاتخاذ قراره البدئي ، وهم الوفاق بين رغائبه والواقع .

ولعل الأمر الوحيد الذي كسبه من تلك الرحلة قبوله بعدوله عن التغيير .

حاول دلون ان يكون مخلصاً مع نفسه ، إن يضع حداً للزيف ، سواء في علاقته

بسيسيل ، او في علاقته بهنرييت ، ولكن تبين له في نهاية الأمر أنه يخون الاثنتين معاً ، لأنه لايقدر ان يعزل سيسيل عن روما ، فسيسيل في روما ، غيرها في باريس ، واغلب الظن ان عشقه لسيسيل في روما ماقدر له ان يتم ، لولم توقظه ذكرى رحلة شهر العسل التي قام بها فيما مضى مع زوجته إلى روما ، وما تركته في نفسه تلك الرحلة من سحر وخيال وجمال .

فالصراع في الحقيقة قائم بين مكانين ، بين مدينتين : روما وباريس ، أكثر منه صراعاً بين عاطفتين وامرأتين . والعلاقات الانسانية مقضي عليها بالاخفاق في عالم يتغلب احساس المكان فيه على احساس الانسان .

ولقد استطاع ميشيل بوتور ان ينقل هذا الصراع ، من داخل وعي البطل إلى دخيلتنا ، باستخدام ضمير المخاطب ، بدلا من استعمال ضمير الغائب أو ضمير المتكلم . واهتداء بوتور إلى هذا التكنيك الجديد اتاح له ردم الهوة بين ضمير المتكلم الذي يتميز عادة بجوانية ، ودخيلة حميمية ، وضمير الغائب الذي يتميز بالبرانية . فضمير المخاطب يجمع بين ثراء الأول ووضوح الثاني ، وحين يستهل روايته « التغيير » بالعبارة : « وضعت قدمك اليسرى على المجرى النحاسي ، وبكتفك اليمنى تحاول عبثاً ان تفتح الباب المنزلق مسافة أكبر . . » فكأنما يريد ان يقول : تصور انك وضعت قدمك اليسرى على المجرى النحاسي ، ضع نفسك لحظة في موقف هذا الذي . . . الرواية في ضمير المخاطب تعني ضمناً أنه من المحتمل ان يحدث لك مايحدث للبطل .



إن ضمير المخاطب يحجب الضمير المتكلم الذي يأبى ان يتجسد في أي فرد محدد ، والذي هو بالتالي صوت الضمير : ضميري انا ، وضميرك أنت ، وضمير البطل نفسه . وشيئاً فشيئاً نشعر ان الصوت يتكلم في دخيلتنا ، لقد انتقل الحوار من دخيلة البطل إلى دخيلتنا ، واخذنا نحاور انفسنا ، ان ليون دلمون بات يعنينا جميعاً ، ولعل رواية « التغيير » تعد من هذه الناحية بالذات تمهيداً لرواية الغد .

وفي رواية « الغيرة » يقدم لنا آلان روب غرييه عالماً ، هو حصيلة افعال خيالية وواقعية ، تجري في مكان ما ، وفي زمن معدوم ، وشخصيات الرواية ثلاث : زوج وزوجته وعشيقها فرانك ، يتحددون بالعلاقات البسيطة المقامة فيما بينهم ، علاقات يحددها وضع الأشياء وموقعها ، أكثر مما يحددها هؤلاء الأشخاص انفسهم ، فإن لموقع كرسيين بالنسبة إلى كرسي ثالث اهمية تفوق اهمية الناس الجالسين عليها .

لا نجد في الرواية تحليلا نفسياً للغيرة ، كما يوحي بذلك اسم الكتاب ، كأن يتأمل البطل نفسه في عناصر غيرته ويحللها ، فهذا ابعد مايكون عن مطلب روب غرييه ومرماه ، وكل مايسعى إليه ، هو ان يصف بعيني الزوج الغيور علاقات هذا الزوج بزوجته ، وعشيق الزوجة ، والعالم المحيط بهم جميعاً . انه ، في الحقيقة ، نوع من الوصف المباشر لمشاعر الزوج ، وهو يصارع هذا العالم المحيط به ، وقد غدا هذا الزوج بلا اسم ولا وجه ، فراغاً في قلب العالم ، وفجوة في وسط الأشياء ، لا معنى له بمنأى عن غيرته ، تضاءل حتى استحال عيناً مراقبة ، غرضها ان تضعنا في داخل تلك الغيرة ، كما غدا كل مايواجهه ، ومن يجابهه متشيئاً أيضاً .

عالم الغيرة إذاً عالم التشيؤ ، فهو لايعني سوى الأشياء ، والأشياء الموجودة في ساحة رؤية الراوي فقط .

قال سارتر في معرض كلامه عن فوكنر : « كل تكنيك روائي يحيل إلى ميتافيزيك » أي إلى رؤية شاملة للوجود والعالم ، إن تكنيك الرواية الجديدة ابلغ شاهد على صحة هذا القول .



فقد اظهر استاذ اميركي هو بروس موريسته ، في المؤلف القيم الذي خصه لدراسة اعمال روب غرييه الروائية ، إن كل حدث من الأحداث التي تضمنتها الروايات ألكاتب الفرنسي ، يشبه من بعض جوانبه ووجوهه ماكان يرويه روائيو عصر الرأسمالية الليبرالية . وان تجديد روب غرييه يقوم على رواية تلك الأحداث ، على نحو يختلف كل الاختلاف عن الذين سبقوه من الروائيين ، ولهذه الملاحظة دلالتها ، فهي تبين ان الكاتب ، حين يروي الأشياء بطريقة مختلفة عن متقدميه ، فما ذلك إلا لأن تلك الأشياء اصبحت هي نفسها مختلفة عما كانت عليه ، الأمر الذي يحمله على أن يستخدم اسلوباً جديداً للتعبير عنها ، يغاير الأسلوب التقليدي .

ففي رواية « الغيرة » يستعمل روب غرييه عبارات كتلك العبارة : « الأحذية

Les Romans de Robbe - Grillet par Bruce Morrissette ( Editions de Minuit ).

الخفيفة ، ذات النعال من الكاتشوك ، لا تحدث اية ضجة ، على بلاط الرصيف » . . ألا تعني تلك العبارة ان الأحذية ، اليوم ، هي التي تقود الانسان ؟ .

ان السبب الذي حمل روب غرييه على ان يقول « النعال تتقدم » بدلا من ان يقول : « الانسان يتقدم » إيمانه بأن الشيء هو محرك الاحداث ، فقصة انسان غيور اضحت واقعة تافهة بينما النعال التي تقود الانسان اصبحت هي الظاهرة الاساسية في عالم الاستلاب ، سواء شعرنا بذلك أم لم نشعر .

في « الغثيان » يبدي روكنتان الملاحظة التالية فيقول : « كي تصبح اتفه حادثة مغامرة ، يجب ويكفي ان يقوم الانسان بسردها ، وهذا هو الذي يخدع الناس ، فالانسان دائماً هو قاص حكايات ، يعيش محاطاً بحكاياته وحكايات الغير ، ويرى كل مايحدث له من خلالها ، ويسعى لأن يعيش حياته كما لو كان يحكيها . . . »

بيد ان الأمر يجري في الروايات الجديدة بشكل معكوس تماماً ، ان مسعى مولوى يقوم على ان يروي بامانة ونزاهة مايري ، ولكن سرعان مايتبين له ان ما يسرده لا يمكن سرده ، لأن الشيء ما ان تتحدث عنه حتى يصبح شيئاً آخر ، فالقول إذن انشاء واختلاق واختراع .



فالرواية الجديدة لا تفتقر إلى الأحداث والوقائع ، افتقارها إلى طابع الثبات والبراءة ، فهي لا تكف عن وضع نفسها موضع الجدل والشك ، كما لا تكف عن تدمير نفسها ، لدرجة ان العبارة نفسها يمكن عند بيكيت ان تحتوي على التأكيد والنفي معاً .

لا تولي الرواية الجديدة اهتماماً للتحليلات النفسية ، ولا تعير هماً للمواقف الأخلاقية والايديولوجية ، غايتها ان تخلص الرواية من الزمانية والتاريخ ، فتعيد للعمل الفني نقاءه وصفاءه ، وتخضعه لمقاييس الفن الخاصة به ، وبكلمة ، لم تعد الرواية تستهدف القص بل الوصف .

والواقع ان للاشياء في الرواية الجديدة حظوة ومكانة خاصة ، لا لأن الأشياء لم تكن موجودة في روايات القرن التاسع عشر ، ان روائياً مثل بلزاك كان يولي الاشياء أهمية بالغة ، فمن اية ناحية أتته ، وجدته وصافاً دقيقاً ، ومصوراً بارعاً ، وكان لا يتردد في ان يخصص صفحات كثيرة من الرواية لوصف البيوت والاثاثات والملابس ، يتناولها من جوانبها جميعاً ، ويقلبها من وجوهها كافة ليوفيها حقها من التفصيل والتدقيق ،

بيد ان الاشياء عند بلزاك كانت « الترجمات المادية للفكر » أي انها كانت لغة ، فما هو خارجي ، براني ، ينم عما هو داخلي ، جواني . وكانت الأشياء عند اميل زولا تتمتع بباطنية ، وحياة دفينة صماء تحركها فتغدوا طاقة سحرية او روحية ، لا يملك الانسان حيالها إلا الاذعان لقوة جذبها وإيحاءاتها ، فالقاطرة مثلا تتجاوز ذاتها ، لتصبح رمزاً بل اسطورة .

أما الرواية الجديدة فهي تريد أن تعيد للاشياء كثافتها وثقلها ووجودها المستقل . وإذا كانت الفينومينولوجيا قد انطلقت من المبدأ القائل : « كل شعور هو شعور بشيء ما » ، فإن الروايةَ الجديدة تريد عزل الشعور الانساني القصدي عن الاشياء ، فالعالم موجود ، والأشياء لا تعلن عن الانسان ، ولا تحيل إليه ، فهي تحدده من غير أن تفصح عنه ، حسبها أنها توقعه في شباكها وتأسره ، ومن أجل ذلك يعنى الروائيون الجدد في وصف الأشياء ، وصفاً دقيقاً على غرار ما توحي به الفينومينولوجيا ، ولكن الوصف عندهم يختلف عن الوصف الفينومينولوجي ، من حيث أنه مقصود لذاته ، ولا يرمي إلى أي غرض آخر ، فالاشياء قائمة ولكن الروائي لايكشف لنا عن الطريقة التي قامت بها ، كما ليس له أن يقيمها ، ولا أن يصدر الأحكام عليها .



إن معظم الروائيين الجدد ، وعلى رأسهم آلان روب غرييه ، يصرون على استقلال الشيء عن الانسان ، يقول روب غرييه : « يجب علينا أن نحذر الكنايات والتراكيب الرمزية ... إن عالم بوسكيه – عالمنا – هو عالم من العلامات . كل شيء فيه رمز ، ولكنه ليس رمزاً لشيء آخر موضوع بعيداً عن متناولنا ، وإنما رمز نفسه ، رمز لهذا الجوهر الذي يطلب منا فقط أن نكتشفه »(١) .

فالعالم ليس بذي معنى ، وليس بالعبث ، والشيء لا يوجه للانسان أية اشارة ، ولا يحيل إليه ، بل ليست بينه وبين الانسان أية علاقة .

كان الوصف عند روائيي القرن التاسع عشر اطاراً وديكوراً ، يحيط بالحدث ويزينه ، كان صورة للانسان ، وكثيراً ما كان القارئ ، وهو في عجلة لمعرفة الحكاية ، يسمح لنفسه باسقاط الصفحات الوصفية من الرواية .

---

(١) مجلة النقد « كريتيك » – العدد ١٨٥ – تشرين أول ١٩٥٣ – ( والمقال أعيد نشره في كتاب « نحو رواية جديدة » .

ولو عمد قارئ الرواية الجديدة اليوم إلى اسقاط صفحات الوصف منها لما بقي بين يديه مضمون على الاطلاق . فلم يعد الوصف مجرد تمهيد ، لدخول القارئ إلى موضوع الرواية ، أو وسيلة لحمله على رؤية الاشياء بمزيد من الوضوح والجلاء ، وإنما أصبح وسيلة لتحطيم الاشياء أو اخفائها تماماً .

### ٣ — الواقع

أطلق سارتر في مقدمته لرواية ناتالي ساروت « صورة مجهول » على هذا اللون من الأدب اسم « اللارواية » ، ورأى أنها محاولة لنقض تكنيك الرواية المعروف ، وتحطيم كل ما يتصف بها ، وقد اعترضت ساروت على هذه التسمية في مقابلة اجرتها معها مجلة « الفيغارو ليتريير » ، مدعية أن من يقول « اللارواية » ، يفترض فيه أن يكون عارفاً ماهي الرواية الحقيقية . اما هي فلا تعرف شيئاً عنها وتضيف : « اعتقد أن كل عمل يقوم أساساً على يقظة ضمير صاحبه ... كما أن كل كاتب يستخدم التكنيك الخاص به ، وإن الأدب ، كالفنون التشكيلية ، وكالموسيقى ، يتغير . فهل يمكننا أن نسمي السوريالية « اللافن » ، أو الموسيقى الالكترونية « اللاموسيقى » ؟

من البديهي أن لا تعرف ساروت شيئاً عن الرواية ، ما دامت تعتقد ، كما يعتقد الروائيون الجدد جميعاً أن عمل الروائي يقوم على البحث ، وأن هذا البحث ينزع إلى الكشف ، وإلى إيجاد واقع مجهول »(١) .

فالواقع في نظر الروائي الجديد إنما هو المجهول ، هو المحجوب ، هو ما لا يقبل التعبير عنه بأشكال معروفة ومستهلكة .

وهذا الواقع لا يتكون ، قبل ظهور الكاتب الذي يبحث عنه ، ومن أجل ذلك ، لا يقتصر دور الكاتب على الكشف عن واقع عصره ، والتعبير عنه ، والرواية لا تستخدم لنقل أشياء موجودة قبلها ، أو إخراجها ، أنها لاتعبر بل تبحث ، وما تبحث عنه هو نفسها . فالرواية هي التي تكوّن الواقع وتخلقه ، لاتعرف عما تبحث ، وتجهل الذي تريد أن تقوله ، انها اختراع ، كما سبق أن بينا ، اختراع للعالم وللانسان .

إن كل إنسان يرى في العالم واقعه الخاص به ، فناتالي ساروت تبحث عن الواقع

(١) الرواية الجديدة والواقع — بحث ناتالي ساروت — المعرفة — العدد ١٦٥ ص : ٧٩

الانساني ، وتطلق عليه اسم « المادة الروائية » في أبسط الاشياء ، في تلك التأثيرات المتأرجحة بين الوعي واللاوعي ، التي تتحكم في مزاج الانسان ، وكلامه ، وسلوكه ، وأهوائه ، وهي تسمي تلك التأثيرات أو الدفعات « الانتحاءات » ، لفظة استعارتها من لغة علم الاحياء .

في حين يبحث آلان روب غرييه عن ذلك الواقع ، من خلال حاسة البصر التي تفضل ، في تقديره ، سائر الحواس ، لأنها أكثر موضوعية ، فهي تساعد الانسان على ألا يندمج في العالم ، ويبقى على وعي كامل ، بأن الانسان هو الانسان ، والعالم هو العالم .

كل شعور عند روب غرييه يعكس صورة للواقع ، مثله في ذلك كمثل مرايا متعددة ، حول الغرض نفسه ، ولئن كان كل شعور يعكس صورة ، فلتكن الرواية إذاً صورة فوق الشعور ، أو تتابع صور فوق الشعور .

ثمة نادرة لطيفة ، يعرفها الصغار ، تلخص في رأيي ، على الرغم من سذاجتها ، وجهة نظر روب غرييه هذه .

أشار الطفل إلى عناقيد العنب ، وقال لأبيه : ما نوع هذا العنب ؟

قال الأب : عنب أسود .



— عنب أسود ؟ ولكنه أحمر ، لماذا ؟

أجاب الأب : لأنه لايزال أخضر .

كان فلوبير يحلم أن يكتب كتاباً عن لا شيء ، كتاباً يستطيع أن يقف وحده ، دون الاستناد إلى أي ارتباط ، خارج العمل الأدبي ، يستمد قوامه من نفسه ، ومن قوة أسلوبه الذاتية ، معلقاً ، كما الأرض ، في الهواء . وهذا هو اليوم محط حلم الرواية الجديدة ومعقد أملها .

لا يصف الروائي الجديد الاشياء التي يراها فقط ، وإنما يخترع الاشياء من حوله ، ويرى الا شياء التي يخترعها ، فهو يحاول أن يفرض أسلوباً معيناً ، على واقع غير منتظم أصلا ، وبدلا من أن يحاكي الواقع ، يناقضه ، ويسعى للهرب من نقله .

ففي الفترة التي كان آلان روب غرييه يكتب فيها رواية « البصاص » ، أتيح له القيام برحلة إلى البروتاني ، فايقن أن طيور النورس التي شاهدها على الشاطئ البروتاني على الطبيعة ، لا تشبه تلك التي وضعها في روايته إلا على نحو غامض ، مبهم ، فقال : « لقد استوى عندي هذا الأمر ، إذ لم يعد يهمني أن تشبهها أم لا . كانت طيور النورس

الوحيدة التي تهمني في تلك اللحظة ، هي تلك الطيور الكائنة في رأسي أنا ، وربما كان لهذه الطيور المتخيلة علاقة ما بطيور الواقع ، وربما بطيور بروتاني ، لكنها تغيرت ، وصارت في الوقت نفسه أكثر واقعية ، أو هكذا بدت ، لأنها صارت بعد ذلك خيالية . »(١)

وهكذا لم تعد الرواية الجديدة تهتم بنقل الواقع ، بل غدت تساؤلا عن الواقع ، ومحاولة لأنشائه ، لا لتصويره تصويراً فوتوغرافياً .

وبعد هذا العرض الوجيز لمفهوم الواقعية ، بنظر الروائيين الجدد ، يحق لنا أن نتساءل الآن عن مدى انسجام هذا المفهوم مع المذهب الواقعي .

يقول لوسيان غولدمان : « إذا كنا نعطي لكلمة واقعية معنى إبداع خيالي لعالم تماثل بنيته البنية الجوهرية للواقع الاجتماعي الذي كان العمل قد كتب فيه ، فإن روب غرييه يعد من بين أكثر الكتاب الواقعيين جذرية ، في الأدب الفرنسي المعاصر . .(٢) »

لا ريب في أن غولدمان قد وفق في تعريفه للواقعية ، ولكنه لم يوفق التوفيق نفسه ، حين طبق تعريفه على الرواية الجديدة لاغفاله أمرين أساسيين :

١ – أن الروائيين الجدد ، حين اعتمدوا الوصف ،دون القصد للوصول إلى الموضوعية، وسبر الواقع ، أوقعوا أنفسهم في الذاتية ، إذ وجدوا أن مطلب الموضوعية سراب ووهم ، ورأوا الواقع بمنظار الطبيعيين والرمزيين ، وقد كان لوكاش على حق حين قال : « لا يمكن للوصف أن يفضي إلا إلى المذهب الطبيعي أو المذهب الرمزي ولا يمكن أن يفضي أبداً إلى الواقعية . فالوصف يحول العالم إلى طبيعة صامتة،ولا يمكنه أن يحول دون أن يستولي القارئ على هذه الطبيعة الصامتة ، على هذه الحقيقة التي لا تعدو أن تكون سوى مظهر فيجعل منها رمزاً لما يمكن أن يضفي عليه حينذاك من المعاني جميعاً التي هي خاصة به » .

٢ – لم يفرق روب غرييه بين الموضوعات والموضوعي ، فالموضوعات هي الاشياء منظور إليها من الخارج في حين أن الموضوعي هو الموجود في شموليته ، أعني العالم والروائي منظوراً إليهما جملة ، كان الموضوعي حلم بلزاك ، وكان «الواقع» عند هيغل ، ولوميز بين هذين المفهومين لوجد نفسه مضطراً لاضفاء معنى على العالم .

---

(١) نحو رواية جديدة ص : ١٤٣ .

Stuctures Mentales et Creation Culturelle - Goldmann. (٢)

## ٤ ــ الالتزام

لن نتعرض هنا لشرح مفهوم الالتزام ، كما شاع وانتشر بعد الحرب العالمية الثانية ، على يدي مالرو وبرناتوس وسارتر . فقد أشبع هذا الموضوع شرحاً وتحليلا ، وقد خص سارتر الجزء الثاني من مواقفه لايضاحه وتفنيده بشكل لم يترك فيه زيادة لمستزيد،حسبنا أن نذكر بكثير من الاقتضاب أن دعاة الالتزام يعتقدون أن الأدب التزام ، وإن الأديب ملتزم دائماً ، سواء أراد ذلك ، أم لم يرد ، إذا تكلم قصد العمل ، وقصد التغيير ، وإن للكاتب وظيفة ، ووظيفته « هي العمل على ألا يجهل أحد العالم ، والا يتبرأ احد منه » . فالاديب ليس هو ذلك الانسان المنعزل في برج عاجي ، وانما هو انسان تغوص قدماه في عصره ، وفي التاريخ الذي يعد من صانعيه ، سواء رضي بذلك ام لم يرض ، ومن أجل ذلك يجب أن يكون له موقف من قضايا العالم ، وقضايا عصره .

أن ممارسة الاديب لمهنته تلقي به في غمرة التاريخ واحداثه ، وان مجرد الشروع بالكتابة التزام ، بل هو سبيل إلى طلب الحرية . . .

لا يقبل الروائيون الجدد هذه الافكار ، ويرفضونها جملة وتفصيلا ، وقد ذكرت سيمون دى بوفوار في كتابها « قوة الاشياء » وفي معرض حديثها عن الرواية الجديدة عبارة من عبارات ناتالي ساروت ، لها دلالتها تقول فيها : « حين اجلس إلى مكتبي ، اترك السياسة والاحداث والعالم عند الباب ، واصبح شخصاً آخر » .

هذه العبارة لا تلخص موقف ساروت من الالتزام فحسب ، وانما تعكس موقف الروائيين الجدد جميعاً من تلك القضية – فها هو الآن روب غرييه يعلن بلا مواربة ولا مداجاة : « ليس لدى شيء اقوله » معيداً قولة نابوكوف الساخرة : « ليست لدي رسالة ، أنا لست ساعي برقيات»، ثم يزيد قائلا : « ليس من المعقول أن ندعي الدفاع عن قضية سياسية ، حتى وان بدت لنا هذه القضية عادلة ، وحتى وان كنا نعمل في حياتنا السياسية من أجل انتصار هذه القضية . ان الحياة السياسية تفرض علينا دائماً أن نفترض معاني معروفة مسبقاً ، كالمعاني الاجتماعية ، والمعاني التاريخية ، والمعاني الخلقية ، إلى غير ذلك . أن الفن أكثر تواضعاً – أو أكثر طموحاً – فبالنسبة له لا شيء معروف مسبقاً .

ليس هناك شيء قبل العمل أو فوقه ، ليس هناك يقين ، كما أنه ليست هناك قضية أو رسالة . ان الاعتقاد بان الروائي عنده شيء «يريد ان يقوله » وانه يبحث بعد ذلك

عن الكيفية التي يقوله بها يمثل أخطر الاخطاء المناقضة للحقيقة ، لا ن هذا ( الكيف ) ، هذه الطريقة في القول هي بالضبط مشروع الكاتب ، وهذا المشروع الغامض الذي يصير بعد ذلك المضمون المبهم الذي يحتويه الكتاب(١) . . »

ترفض الرواية الجديدة الا لتزام بشتى اشكاله وبمختلف مفاهيمه ، وترى أن الا لتزام الوحيد الممكن بالنسبة للكاتب هو الا دب ، والا دب وحده .

وان ننسى لا ننسى الحملة التي شنها في عام ١٩٦٤ كاتبان بارزان من كتاب الرواية الجديدة هما : ايف برجيه وكلود سيمون ، على صفحات مجلة الا كسبريس الفرنسية ، يردان فيها على المقابلة التي اجرتها مع سارتر السيدة جاكلين بياتييه ، ونشرتها « لوموند » في ذلك الحين ، وفيها يتساءل سارتر عن معنى الادب في عالم يتضور جوعاً ، فكانت وجهة نظر سارتر أن الادب ، شأنه في ذلك شأن الا خلاق محتاج لان يكون عالمياً ، ولهذا يجب على الكاتب أن يقف إلى جانب السواد الا عظم من الناس فينتصر للمليارين من البشر الجائعين ، اذا اراد أن يتوجه إلى الجميع ، وان يقرأه الجميع ، فان لم يفعل فقد اختار أن يكون في خدمة طبقة اصحاب الا متياز والاستغلال .

عد كل من ايف برجيه وكلود سيمون هذه الافكار التي عرضها سارتر اتهاماً شخصياً موجهاً إلى كل واحد منهما ، فانبرى كل بدوره يدلي بدلوه في الرد عليه ، مبيناً أن الادب ، من حيث انه فن ، ليست مهمته أن يخدم ، ويجب أن لا ينحدر الفن إلى درجة يصبح فيها وسيلة لخدمة قضية غير قضيته ، مهما كانت تلك القضية رفيعة وعادلة ، ثم أن الادب ، كسائر الفنون الاخرى عاجز عن تغيير الواقع ، وقد اثبتت محاولة الا لتزام عند سارتر اخفاقها . وان كان لا مندوحة من التزام الا ديب ، فليكن وعياً تاماً بالمشاكل الحالية للغته ، واقتناعاً باهميتها ، ورغبة في حل المشكلات التي تمليها عليه من الداخل ممارسة العمل الكتابي نفسه .

لم تعد مهمة الادب ، عند الروائيين الجدد ، الشرح . ولم يعد الغرض منافسة الاحوال المدنية ، ولا اختراع القصص . كان سارتر يعتقد بان للكلمات سلطاناً يملك القدرة على تغيير الواقع ، وكان يعتقد أن بامكاننا اقامة حلف بين الادب والسياسة ، من غير أن نسيء إلى أي منهما ، بل كان يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيعتقد أن هذا التحالف هو الشكل الا مثل للكتابة النثرية في هذا العصر .

(١) نحو رواية جديدة ص ١٢٦ .

أما الروائيون الجدد الذين حذوا حذو بيكيت ، فهم أكثر تواضعاً من جهة حين يكتفون بوصف ما يرون وما يحسون ، ولكنهم أكثر طموحاً من جهة أخرى حين يضفون على الادب صفة الاطلاق فيرفعون له وحده تاج الظفر ، ويخلصونه من كل تبرير خارجي .

لم تعد الكتابة من اجل أن يقول الاديب شيئاً ، ولكن من أجل الا يقول شيئاً على الاطلاق ، فمنذ عام ١٩٥٠ تصبح مشكلة الادب الكبرى ، مشكلة اللاشيء ، مشكلة العدمية .

رب قائل يقول : ولكن أليس الغثيان والغريب روايتين عدميتين ، هذا صحيح إلى حد كبير ، بيد أن سارتر وكامو حين اكدا على عبثية الوجود ، فانما فعلا ذلك من أجل أن يضفيا على تلك العبثية معنى . فالعدمية ، في تقديرهما ، لم تكن غير مرحلة عابرة وعلى الانسان أن يتجاوزها . اما العدمية ، عند الروائيين الجدد ، فهي الغاية وهي المآل .

وهنا لا بد من أن نذكر أن سارتر كان قد تنبأ بعد الحرب العالمية الثانية بردة إلى « أدب الاستهلاك » : أدب مجتمع فقد سيطرته على المستقبل ، وكان قد كتب عام ١٩٤٧ يقول : « أن أدب الانتاج الذي يعلن عن نفسه ( وهو يقصد طبعاً الادب الملتزم ) لن ينسي أدب الاستهلاك نقيضه » .

في أدب الاستهلاك لا ننفذ إلى الموجودات ، وانما نلامسها ملامسة رقيقة ، ونداعبها مداعبة ناعمة بالنظر ، اننا نبتلع الكون نيئاً بالعينين

## نحن والرواية الجديدة

نحن البلدان المتخلفة في لغة المتشائمين ، والنامية أو في طريق النمو في اصطلاح المتفائلين ، نحن الجانب الآخر من العالم المتقدم تكنولوجياً ، نحن الذين ذقنا مرارة الحرمان والتخلف والتبعية أجيالا ، وخرجنا إلى العالم ، حاملين وزر اسقامنا وآفاتنا ، نعاني مشكلات اجتماعية واقتصادية وثقافية تثقل كاهلنا وننوء بحملها . . ما موقفنا نحن من الرواية الجديدة ؟

لقد وجهت إلى الرواية الجديدة انتقادات كثيرة ، فقد قيل عنها أنها تريد طرد الانسان من العالم بعد أن تجرده من ماضيه ، وقيل إنها تسعى إلى الشكلية المحضة وتحاول التسلل خارج الواقع الاجتماعي ، وقيل إنها تستهدف الموضوعية المطلقة ، وقيل إنها لا تخاطب إلا

المتخصصين لأنها تقرأ بصعوبة . ولقد سبق أن أشرنا إلى بعض هذه النقاط حين استعرضنا سماتها البارزة .

ولعل أخطر المآخذ على الرواية الجديدة ، في اعتقادنا ، أن كتابات معظم أصحابها تفتقر إلى الحرارة والعفوية والمتعة ، وتبعث على السأمة والملال . نقول هذا على الرغم من أننا نعلم أن لوسيان غولدمان ، وهو من أكثر النقاد حماسة للرواية الجديدة ، ومن أكبر نصرائها ، يجد تبريراً لهذا الملال في الواقع المتشيء الذي نضب نسغ الحياة فيه ، رافعاً بذلك المسئولية عن كاهل الروائي الذي يصف هذا الواقع وينقله .

ومهما يكن من أمر ، ليست الرواية الجديدة « حالة » كما أحب يوسف أدريس أن ينعتها ، مستعيراً في ذلك لغة الطب ، كما ليست تقليعة من تقليعات الانسان الأوروبي الذي ضاق ذرعاً بالتخمة ، من جراء الاكتمال الصناعي الذي يعيش في رحابه ، وليست نزوة من نزوات الفنان الأوروبي الذي ، إذ ذلك الواقع لمشيئته ، غاض معين الحلم عنده ، ونضب جمال الخيال وروعته ، فلم يجد أمامه غير الرفض والتبرم والهلوسة . .

ليست الرواية الجديدة مجموعة من التجارب الشكلية المحضة ، لاتمت إلى الواقع بصلة ، بل جهداً أدبياً يعبر عن الواقع الأوروبي الراهن ، ومحاولة جادة لوصف هذا الواقع الذي تشيأ بحيث فقد فيه الانسان تفرده وانسانيته ، بحكم ظهور عالم مستقل للموضوعات ، له بنيته الخاصة وقوانينه الخاصة ، عالم توجهه وتسيره قدرية الانضباط الذاتي ، وآلياتها البالغة التعقيد .

إن الرواية الجديدة ظاهرة عبرت عن رفض الانسان الأوروبي للواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه من خلال العمل الروائي ، فحين أدرك الكاتب أنه عجز عن تغيير الواقع ، رفضه عن طريق تحطيم الشكل ، ان محاولة الرواية الجديدة ، من حيث تمردها على الواقع ، تشبه مسعى السوريالية إلى حد بعيد ، في تمردها على الواقع والثورة عليه .

وما يدعو إلى الدهشة والاستغراب ، بل إلى الضحك أحياناً ، أن نرى بعض كتاب القصة والرواية عندنا ، يحاولون نقل الرواية الجديدة ، بانتحال مضمونها وشكلها ، دون احساس بضرورتها ، ولا فهم لوظيفتها ، ودون أن يعلموا أن في مثل النقل افتعالا وهجانة ، لان الظروف والشروط التي اوجدت ذلك اللون الادبي في الغرب غير متوفرة بعد عندنا .

لم تظهر الشخصية الأشكالية بعد في الرواية السورية ، شخصية أحسن صنعها ، ورسمت بدقة وعناية بحيث تعرف صفاتها ، وتعكس الواقع الذي تعيش فيه ، وتعبر عنه ، ولعل ذلك يعود إلى أسباب متعددة أهمها في تقديرنا أن البورجوازية السورية قد أجهز عليها قبل أن تأخذ كل امتدادها . (١)

وهنا يأتي الاستغراب الذي يبلغ مداه حين نرى أدباءنا الجدد يعمدون إلى هدم الشخصية التقليدية، وهي مانزال بعد في طور التكوين، ويهدمون كذلك الواقع، قبل أن يتكشف ويتفتح ، ويرفضون الالتزام ونحن في أمس الحاجة إليه ، فلو لم يكن الالتزام موجوداً لوجب إيجاده ، فشعبنا اليوم مثقل بمشكلاته وهمومه وقضاياه .

وأخيراً يكاد يجمع علماء اجتماع الابداع الثقافي الذين تصدوا لعلم اجتماع الأدب ، على أن الرواية بشكل عام ، وليدة الطبقة البورجوازية ، فهي جنس أدبي ينطوي على تناقضات ، عميقة الأصول والجذور لم تنجح أبداً في حلها ، لسبب بسيط : هو أن تلك الطبقة البورجوازية لم يكن حكمها في يوم من الأيام راسخاً على قواعد ثابتة شرعية .

فمن العسير جداً على روائي بورجوازي أن يعطي صورة عالم مستقر ثابت خالد أبداً ، أن الملهاة الالهية محظورة عليه فلا يبقى أمامه غير تلك الملهاة الانسانية التي هي لوحة حية للتمرد والرفض .



● ● ●

(١) ويلاحظ أن امتداد البورجوازية المصرية ساعد كتاباً مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وفتحي غانم على رصد الواقع المصري ، واعطاء الأدب العربي نماذج متميزة يستطيع القارئ من خلالها ، أن يشير إلى مرحلة معينة من تاريخ مصر .

د. منير صلاحي الأصبحي

# الوقائع التاريخية في الخروج وروايات أخرى



تركز جميع الروايات التي اختيرت لهذا البحث (١) على وضع تاريخي – سياسي محدد ، لذا فهي بالضرورة روايات تاريخية ، وإن كانت تختلف في درجة إبرازها للخلفية التاريخية للأحداث التي تعرضها . فبينما تتناول رواية هبستون في وسط الأسود الفترة القصيرة الواقعة بين الحادي والعشرين من أيار والحادي عشر من حزيران ١٩٦٧ ، فإن أحداث رواية متشنر الينبوع تمتد لتشمل فترة تعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد وتستمر حتى العصر الحاضر . وبينما يولي وست في برج بابل حداً أدنى من الاهتمام بالتطورات التاريخية فإن رواية يوريس الخروج تنقلب في كثير من الأحيان إلى السرد التاريخي المباشر بدلاً من السرد الروائي .

ويقول يوريس في ملاحظة يقدم بها روايته إن « معظم الأحداث في الخروج هي مسألة تخص التاريخ » ( ص ١١٧ ) ، ويتابع قائلا إنه قطع حوالي خمسين ألف ميل وهو يقوم

---

( ١ ) هذه المقالة تتابع البحث الذي تناولت عدداً من جوانبه في سلسلة من المقالات نشرتها مجلة « المعرفة » في أعدادها ١٥٠ ( آب ١٩٧٤ ) و ١٥٦ – ١٥٨ ( شباط – نيسان ١٩٧٥ ) و ١٨١ ( آذار ١٩٧٧ ) و ١٨٤ (حزيران ) والروايات المنتقاة للبحث مدرجة في كل من مقالتي العدد ١٥٠ ص ٥٤ – ٥٥ والعدد ١٨١ ص ٥٣

بجمع مواد روايته . ويوحي لونستاين في ملاحظة مماثلة أن أحداث روايته مبنية على تجربة واقعية حدثت أثناء الحرب الفلسطينية عام ١٩٤٨ . وكذلك يسجل بعض الروائيين الآخرين ملاحظات مشابهة ولكن حتى حين لا تتوفر مثل هذه الملاحظات ، فهناك دلائل أخرى كافية تشير إلى الاتجاه التاريخي الذي تنتهجه هذه الروايات ، منها - على سبيل المثال - الإشارات المتكررة إلى أشخاص حقيقيين وأحداث واقعية .

وهكذا فإن هؤلاء الكتاب يدعون بصورة صريحة وضمنية أنهم أدوا « ضريبة الدراسة الجدية » في عرضهم للأحداث التاريخية . وحتى حين لايصدر مثل هذا الإدعاء عن كاتب يكتب عملا قصصياً أو روائياً تاريخياً ، فإننا نتوقع منه إعطاء « صورة صادقة عن العصر الذي يصفه » وأن يكون دقيقاً وصادقاً في إشارته إلى التاريخ الواقعي(٢) ومن المؤكد أننا لانتوقع من الروائي التاريخي أن يقصر أحداثه وشخصياته على الأحداث والشخصيات الحقيقية ، وإلا لفقد عمله صبغته الروائية ، ولكنه حين يلجأ إلى استخدام مثل هذه الشخصيات وتغطية مثل هذه الأحداث ، نتوقع منه الصحة والدقة في التفاصيل التي يوردها والإبتعاد عن أي مغالطة صريحة أو متضمنة ، خاصة حين لايكون القارئ العادي على قدر كبير من الاطلاع على الأحداث الحقيقية التي يسردها هذا الكاتب . وكذلك فإن الصورة الإجمالية التي يقدمها هذا الروائي ، حتى حين تكون أحداثه وشخصياته بأكملها من نتاج مخيلته ، يجب أن تعكس على نحو صادق الفترة التي يقوم بتصويرها . وعلى أساس هذه التوقعات يرتكز فحصنا للوقائع التاريخية الخاصة بالصراع العربي - الصهيوني والقضية الفلسطينية في الروايات الموضوعة قيد الدراسة .

لابد من ذكر أن بعض التفاصيل التاريخية المعروضة في هذه الروايات صحيحة بشكل واضح ، وذلك إذا ماقورنت بالأعمال التاريخية المختلفة المكتوبة عن الموضوع . فالنتيجة الإجمالية لحربي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ مثلا تصور بشكل يتفق مع الأحداث الواقعية . ولكن هذا لايعني بأية حال أن جميع التفاصيل التي توردها الأعمال الروائية هذه صادقة ، لذا لابد من فحص مفصل لها .

. . .

( ٢ ) تركز هذه الفقرة إلى تعريف « الرواية التاريخية » في كتاب :

W. F. Thrall and Addison Hibbard , A Hanbdook to Literature ( New York , 1960 ) , P. 223 .

هناك ذروتان للأحداث التاريخية الخاصة بالصراع من أجل فلسطين تسلط عليهما الأضواء عادة في هذه الروايات ، وهما حرب ١٩٤٨ وحرب ١٩٦٧ . وبالإضافة إلى هاتين الحربين ، هناك تركيز أيضاً على التوترات التي شهدتها فلسطين قبيل حرب ١٩٤٨ . فعلى سبيل المثال ، تجري جميع أحداث رواية غيلون كأس الغضب أثناء الأحداث التي سبقت تلك الحرب في عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ . ومن المعروف أن الصراع الدائر في تلك الفترة كان ثلاثي الأطراف ، يدور بين عرب فلسطين وحكومة الانتداب البريطانية والصهاينة . والمقتطع التالي من رواية كأس الغضب يصلح كمثال جيد على الصورة الإجمالية التي تعرضها هذه الروايات عن أحداث تلك الفترة وخاصة عن طبيعة الصراع الدائر بين الأطراف الثلاثة . المقطع يشكل جزءاً ما يطلق غيلون عليه « مقتطفات من مفكرة لانفتن » وهي مقتطفات تقاطع تسلسل أحداث الرواية بين الحين والآخر . ولانفتن هو صحفي أمريكي موال للصهيونية في مهمة صحفية في فلسطين . ويفترض أن المقطع يسجل أحداثاً جرت في تشرين الثاني عام ١٩٤٧ .

تتوالى الأيام . تتراكم العناوين الرئيسية. يتفاقم الصراع بين اليهودي والبريطاني. تضرم النار في الشاحنات البريطانية . يلقي رجال الأرغن قنابل يدوية داخل مراكز الجنود البريطانيين . تطالب الصحافة البريطانية الغاضبة بوضع حد للإرهاب . يدمر الجيش البريطاني بيتاً يهودياً ، مدعياً أنه مستودع أسلحة . يعين رجال الأرغن كبار بريطانيي فلسطين ليموتوا.يوضع قانون العين بالعين القديم موضع التنفيذ . تتهم الوكالة اليهودية البريطانيين في جوابها للأمم المتحدة. يتوقع اليهود من البريطانيين الإفراج عن ثلاثة قادة . هروب مثير من سجن عكا.٢٥١رجلا يهربون. ١٣١ عرب.خمسة عشر رجلامن الأرغن يقتلون. يستخدم حمام تركي قديم كقاعدة للهجوم . يقوم لصوص بقطع أنابيب المياه إلى النجف . يقول غاندي أن العنف يضر باليهود . ناطق الوكالة اليهودية يسمي هجوم عكا عملية انتحارية.يستمر التفتيش في جميع أرجاء البلاد . تنزع قبعات جميع الركاب من الرجال بصورة فظة من قبل الجنود البريطانيين.يفتشون عن حلاقات من النوع المستخدم في السجون . حريق غامض في مطبعة القدس . الشبهة تتوجه إلى مجموعة فاشية في الجيش البريطاني . البريطانيون يقتلون سائحاً أمريكياً . المخابرات تلقي القبض على فتاتين مشتبه بارتباطهما بالفئات المعارضة . يطلق الرصاص على رجل من رجال الأرغن وهو يوزع المناشير في تل أبيب .

اختطاف رقيب وعريف من الشرطة . يطلق سراحهما بعد بحث يستغرق تسع عشرة ساعة . يوقف الطياورن الأتراك طيارة تقل ثمانية مهاجرين . الحكم بالموت على ثلاثة من رجال الارغن الخمسة المتهمين في محاكمة عكا . تفتيش خمس مطابع في تل أبيب. الجنود البريطانيون يطلقون الرصاص على فتاة في طريق يافا . إنفجار خمسة ألغام على الطرق . إصابة جندي بريطاني . سفينة مهاجرين كبيرة تصل إلى حيفا . مقاومة الترحيل لمدة خمس ساعات . مقتل ثلاثة لاجئين على ظهر السفينة . موت عريف بريطاني بالرصاص في حيفا . رصاص المدافع الرشاشة يهز القدس ، إثر انفجار سيارة شرطة مصفحة بسبب لغم على طريق هاتورين ( ؟ ) قرب دار الأيتام السورية . مقتل جندي بسبب لغم في طريق . الطائفة اليهودية ستتوقف عن العمل خمس دقائق بدءاً من العاشرة صباحاً كإقرار بالنضال من أجل حرية الهجرة . الهاغانا تمنع زرع الألغام في مقر القيادة البريطاني . انفجار يودي بحياة رجل من الهاغانا . رجال الأرغن يتحرشون بإثنين من رجال الهاغانا . إصابة تسعة عشر جندي بريطاني في هجمات في أنحاء مختلفة من فلسطين . البريطانيون يهجرون بعض العائلات من بيوتها . العثور على قنابل مخبأة في معسكر الجيش . العرب ينهبون أحد الباصات . هجمات على الحدود في يافا . الحكم على اثنين من الفتيان بالسجن سبع سنوات لتوزيعهما المناشير . ثلاث فتيات وشابان يقتلون أثناء غارة يقوم بها الجيش على عصابة شترن. القبض على خمسة مراهقين وهم يتدربون ، بعد أن وقعوا في فخ نصبته قوة من الجنود والشرطة في سيارات مصفحة . مقتل جنديين بريطانيين في شارع في تل أبيب . موظفون بريطانيون يتعرضون للهجوم في المقاهي المفتوحة . إدانة رجلين من الهاغانا بتهمة حمل الأسلحة النارية . شاب يحكم بعشر سنين في السجن لصلته بالأرغن . يالها من فوضى .
( ص ١٣١ – ١٣٣ )

إن الاستشهاد بمثل هذا المقطع الطويل غايته إعطاء نموذج عن نزعة موجودة في الطريقة التي تصور بها الروايات المدروسة هنا الوضع في فلسطين قبل حرب عام ١٩٤٨ . ففي هذا المقطع الذي يفترض أنه استعراض لعناوين الصحف الرئيسية في فترة زمنية محددة نجد أن دور العرب في مجرى الأحداث لا يتعدى القيام بعمل من أعمال النهب ، وهذا لا يقلص الدور العربي وأهميته تقليصاً يصل إلى درجة اللامعقول فحسب ، بل إنه أيضاً يشوه

مصلحة العرب التي هي أساس من أسس هذا الصراع . ولابد أن القارئ يلحظ كيف أن الصراع يصور على أنه نزاع بين رجال الهاغانا والأرغن من جهة وبين السلطات البريطانية . بل حتى الخلاف بين الفئتين الصهيونيتين يعطى أهمية أكبر من تلك المعطاة للدور العربي والمصلحة العربية . وفي الواقع أن القسم الأول من الخمسة أقسام التي تكون رواية الخروج يكاد يغفل ذكر العرب إغفالا تاماً ، بحيث أن القارئ لايكاد يشعر بوجود عرب فلسطين على الإطلاق . وهذه النزعة للتركيز على الصراع الصهيوني – البريطاني موجودة بشكل خاص لدى متشنر . (٣)

وحتى حين يجري ذكر دور العرب في هذه الروايات فإن هناك نزعة أخرى ملحوظة ، وهي التأكيد على أن السياسة البريطانية في فلسطين كانت سياسة موالية للعرب . يكتب متشنر أن البريطانيين كانوا ينوون في عام ١٩٤٨ أن « يسلموا » فلسطين إلى العرب ( الينبوع ، ص ٩٧١ ) . وفي رواية روبرت ناثان كوكب الهوا ، ينفذ جندي بريطاني يعمل في خدمة مفتي القدس ، عملا إرهابياً ضد الصهاينة ( ص ١٤٢ ) ، وكذلك تحوم الشبهة حول صحفي بريطاني في فلسطين أثناء حرب ١٩٤٨ بأنه جاسوس يعمل في خدمة العرب ( ص ١٤١ ) . والموالاة البريطانية للعرب حسب ماتصور هذه الروايات لا تقتصر على الأفراد فقط ، فناثان يؤكد أن السبب الوحيد الذي يدفع البريطانيين للإنسحاب من فلسطين هو أنهم يتوقعون أن يسيطر عليها العرب بفضل مساعدتهم ( ص ٥٢ ) . هذه السياسة الموالية للعرب التي يدعيها ناثان تهدف إلى « ضمان صداقة الملك فاروق والمفتي الأكبر وابن سعود وعبد الله ملك شرق الأردن » ( ص ٥ ) . ويكرر يوريس نفس الإدعاء ، فهو يعيد بلا ملل القول بأن قناة السويس والبترول العربي قد أغويا البريطانيين التعاون مع العرب ضد الصهاينة ( الخروج ، ص ٣٢ و ٨٨ و١٥٢ و ١٨١ و ٣٧٥ ) .

ومن الطريف أن هذه الروايات نفسها تعطي أدلة تضع هذه الصورة التي تعرضها للصراع موضع الشك لدى القارئ المدقق حتى ولو كان إطلاعه على الحقائق التاريخية محدوداً . فعلى الرغم من تأكيد الروائيين بأن سياسة بريطانيا في فلسطين كانت موالية للعرب ، فإنهم دون قصد يعطون قدراً كبيراً من الأدلة التي تبرهن على العكس . يوريس مثلا لا يخلق أية

( ٣ ) ليس من الصعب تفسير هذه الظاهرة الموجودة في الروايات الموضوعة قيد البحث ، فاستدرار عطف القارىء الأمريكي على الصهيونية يصبح أسهل حين يصور الصراع من أجل فلسطين على أنه نزاع مع سلطة انتداب بريطانية .

شخصية لمسؤول بريطاني في فلسطين يشعر بالتعاطف مع القضية العربية أو على الأقل يبدي تفهماً لها . هناك شخصية الميجر كالدول المعادي للسامية ، ولكن معاداة السامية لاتعني بتاتاً موالاة العرب . وهناك أيضاً شخصية الجنرال هافن – هرست الذي يوصي باتخاذ اجراءات صارمة ضد الإرهابيين الصهاينة ، ولكنه يفعل ذلك فقط لأنه لا يريد أن تفقد بريطانيا سيطرتها على فلسطين ، وهذا موقف يجعله ، بصورة تلقائية ، معاد للحق العربي .

ولكن يوريس يعطي المثال تلو المثال عن مسؤولين بريطانيين في فلسطين يتعاونون مع الصهاينة ويتعاطفون معهم . فهناك مثلا البريغيدير بروس سذرلند الذي يتوجه لدى تقاعده إلى فلسطين ويعمل كمستشار عسكري في خدمة الصهاينة . وهناك أيضاً الكابتن ألن‌بردجز ، الذي يولد انطباعاً لدى كتي فرمولت بأنه « شخص حقير » ، ولكن يتضح أن « حقارته » هي قناع يخفي وراءه تجسسه على العرب لمصلحة الهاغانا « ( الخروج ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦ ) . وهناك عشرات الضباط والجنود البريطانيين الذين – حسب قول آري بن كنعان – يعملون أربعاً وعشرين ساعة كل يوم في خدمة الصهاينة ( ص ٥٣ ) . وهناك ضباط المخابرات البريطانية الذين يعرضون خدماتهم على المتكابيين (٤) الإرهابيين . وهناك الميجر ب . جي . مالكولم – وهذا اسم روائي يطلقه يوريس على الجنرال البريطاني ونغيت – وهو ضابط بريطاني مسؤول عن قدر كبير من تدريب الجيش الصهيوني وتكتيكاته ، حسب قول يوريس وآخرين .

هناك شخصية لمسؤول بريطاني في لندن يقدمه يوريس على أنه موال للعرب ، وهو خبير شؤون الشرق الأوسط سيسل برادشو . ولكن حتى حسب تصوير يوريس فإن موالاة براد شو للعرب تنحصر في اعتقاده بأن المصالح البريطانية تكمن إلى جانب العرب ( ص ١٨١ ، ٣٧٢ ) ، وهذا يوضح أن ولاء برادشو في الواقع لبريطانيا وليس للعرب . علاوة على ذلك ، يحمل براد شو إعجاباً خفياً بالصهاينة كما يقول يوريس ( ص ١٩٦ ) .

---

( ٤ ) مجموعة خيالية من الأرهابيين الصهيونيين من الواضح أن يوريس يستخدمها كبديل لعصابتي الأرغن والشترن . وفي الواقع أن هناك ظاهرة فريدة في رواية الخروج ، وهي أن المؤلف يبقي على الأسماء الحقيقية لبعض الأماكن والأشخاص والمنظمات ، ولكنه يعطي بدائل خيالية لبعضها الآخر دون أي تبرير أدبي واضح .

وهو يتعرض لضغط مستمر معارض لمواقفه ومطالب بسياسة تخدم المصالح الصهيونية بشكل أفضل ( ص ٣٧٢ ) ، وفي كل مناسبة يتصدى له الجنرال سيركلارنس ترفور – براون المتعاطف مع الصهيونية ( ص ١٣٠ – ١٣٢ و ٣٧٥ – ٣٧٦ ) .

وتعطي رواية الخروج أيضاً أمثلة عن التعاون بين البريطانيين والصهاينة على صعيد التطبيق العملي ، وهو تعاون يكون غالباً ، إن لم نقل دائماً ، موجهاً ضد عرب فلسطين . فبينما يحاول البريطانيون القبض على مفتي القدس مما يؤدي إلى هروبه من وطنه ( ص ٢٨٨ ) ، فإن الهاغانا يعطون حرية كاملة للعمل ( ص ٢٨٦ ) . ومن جهة أخرى ، فإن القائد البريطاني العسكري في فلسطين ( الذي لايتردد يوريس في وصفه بأنه موال للعرب ) يسمح لمالكولم ( ونغيت ) أن يشكل قوة عسكرية يهودية وشرطة يهودية كي تستخدم ضد العرب ( ص ٢٩٦ ) . ويهاجم مالكولم وجنوده اليهود العرب ، بل ويقومون بحملات داخل الأراضي اللبنانية ( ص ٢٩٧ ) . ونجد مثالاً جيداً على موقف مالكولم من العرب في حادثة يقبض فيها على عربيين في إحدى هذه الحملات داخل لبنان :

صفع مالكولم وجه العربي وأعاد السؤال . هذه المرة إدعى العربي براءته والله شهيده على ذلك . أخرج مالكولم مسدسه بهدوء وأطلق رصاصة اخترقت رأس العربي . والتفت إلى الأسير الأخير وسأله : « أين هو مخبأ بنادقكم ؟ » (ص ٢٩٨ ).



وعلى الرغم من السخط البريطاني المزعوم على الطرق التي يتبعها مالكولم ، فإن القائد العسكري « الموالي للعرب » يقاوم الضغط الذي يتعرض له كي يزيح مالكولم عن منصبه فوراً ، ويسمح له بأن يشن على الأقل اثنتي عشرة حملة جديدة « في الأعماق اللبنانية » ( ص ٢٩٨ – ٢٩٩ ).(٥)

كذلك يقول يوريس أن الكثير من يهود فلسطين خدموا في الجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية ( ص ١٥٣ و ٣٠٨ ) وبذلك تلقوا تدريباً عسكرياً وخبرة استعملوها فيما بعد حين وصل تأزم الصراع العربي – الصهيوني إلى ذروته . وفي الواقع ، حتى أثناء الحرب العالمية – كما يقر يوريس – ترأس الضباط البريطانيون « الوحدات الفلسطينية »

---

( ٥ ) يذكر لونستاين أيضاً ( ص ٣٢ على سبيل المثال ) وغيره من المؤلفين الدور الذي لعبه ونغيت أثناء وجوده في فلسطين .

( أي اليهودية ) كإجراء شكلي فقط ، في حين أنها في الواقع ومن أجل جميع « الأغراض العملية » كانت تحت إمرة القيادة الصهيونية السياسية والعسكرية ( ص ١٥٣ ) .(٦)

ويكتب متشو عن فضل البريطانيين على الصهاينة . ففي الينبوع ، يحاول جميل الطبري ، وهو عربي بقي في فلسطين بعد الإحتلال الصهيوني ، تشجيع إيلان إلياف على إيضاح تعليق كان قد أدلى به حول هذا الموضوع بالذات :

اقترح الطبري : « لنأخذ أفكارك واحدة تلو الأخرى . أولا ، إنهم ( أي البريطانيون ) جعلوا منك رجلا . »

هز إلياف رأسه موافقاً . « بإمكانك وضع ذلك بصيغة أقوى . لقد أنقذوني من أوروبا . ثقفوني . » ( ص ٩٧١ ) .

وبعد مناقشة حول بعض النقاط ، يعود الطبري إلى الموضوع :

« نقطتك الثانية . أنهم أثناء الحرب عاملوك معاملة جيدة . »

قال الإسرائيلي : « أجل . لقد علموني كيف أخوض حرب عصابات ، كيف أنظم وحدة عسكرية . . . . كل شيء . . . . ولقد وجدت أن تعليمهم لي كان صحيحاً . » ( ص ٩٧٢ ) .



كذلك يلخص لانغتن ، المؤرخ الذي ينطق باسم غيلون مؤلف كأس الغضب ، تلخيصاً موفقاً تماماً العلاقة البريطانية – الصهيونية في إحدى المقتطفات المأخوذة من مفكرته ، فهو يقول أنه في الواقع « مرت فترة من الزمن لم يكن من الممكن فيها ، لولا البريطانيون في فلسطين ، أي استيطان يهودي » ( ص ١٣٠ – ١٣١ ) . ويدلي برك بن كنعان في الخروج بتصريح مماثل ، إذ يقول في تبرير دعوته إلى التعاون مع السلطات البريطانية مخاطباً « إخوته » المنادين بالعنف : « مهما كانت مرارة مشاعرك . . . ومشاعري . . . لايزال البريطانيون أفضل وسيلة لدينا للحصول على كيان دولة » ( ص ٢٨١ ) . إن لانغتن وبن كنعان يؤكدان

---

( ٦ ) يحدد يوريس منظمتي العلية بيت والبالماخ كمسؤولتين عن هذه الوحدات . وأولى هاتين المنظمتين هي منظمة غير شرعية تقوم بتجهيز اليهود غير المشروع إلى فلسطين حسب إقرار يوريس ( الخروج ، ص ١٠ ، ٢٧٨ ) . أما البالماخ فهي قوة عسكرية نظامية ، شكلتها الهاغانا بتشجيع بريطاني ( ص ٣١٠ ) .

أنه لولا الانتداب البريطاني على فلسطين ، لما تم خلق دولة اسرائيل على الأرض الفلسطينية ، وهذا قول تدعمه الأدلة التاريخية دعماً كبيراً(٧) . فلدى انتهاء الإنتداب البريطاني على فلسطين كان عدد اليهود قد ارتفع من ٦٠ ألفاً في عام ١٩١٩ إلى ٦٧٠ ألفاً في عام ١٩٤٨؛ (٨) وارتفعت مقدرة الصهاينة ومعداتها العسكرية إلى حد مكنهم من فرض إرادتهم على عرب فلسطين رغم كون هؤلاء الأكثرية الساحقة. ومن جهة أخرى ، فإن انسحاب البريطانيين من فلسطين تبعه على الفور تشرد غالبية سكانها العرب بحيث لايوجد مجال للشك في أن هذا التشدد كانت نتيجة مباشرة للإنتداب . وإنما كانت نوايا بريطانيا ومخططاتها ، فإن هذه النتيجة دليل واضح على أن الإنتداب لم يكن في مصلحة عرب فلسطين بأي شكل من الأشكال وبالتالي فإن إصرار الروائيين على أن البريطانيين اتبعوا في فلسطين سياسة موالية للعرب هو إصرار مضحك لامعقول .

وليس القارئ العربي بحاجة إلى المزيد من الأدلة والبراهين لإثبات سخف مثل هذا الإدعاء . ولكن استعراض بعض الوقائع والتفسيرات التاريخية يبين الحد الذي بلغه هؤلاء الكتاب في تجاهل الحقائق من أجل كسب عطف القارئ الغربي ، خاصة الأمريكي ، على الحركة الصهيونية والدولة الاسرائيلية .



لقد ظهر أول دليل مادي على الموقف البريطاني الرسمي من الصهيونية عام ١٩١٧ على شكل وعد بلفور المشؤوم . وهاهي مجموعة من الأدلة الأخرى على تحيز بريطانيا للصهاينة مستقاة ليس من مصادر عربية فقط ، بل وأيضاً من بعض الكتابات الغربية والإسرائيلية :

١ ) أوصى زعماء الحركة الصهيونية عام ١٩١٧ أن تحصل بريطانيا على فلسطين كحمية ، وفي عام ١٩١٧ ، لدى معرفتهم بمعاهده سايكس – بيكو ، بدأ حاييم وايزمن العمل من أجل تغيير نصوص الإتفاق الخاص بفلسطين . فقد أدرك الصهاينة أنه كي تنجح

---

( ٧ ) يقول كنث لف أنه حتى في القرن التاسع عشر سعى اللورد بالمرستن « إلى تشجيع عودة واسعة لليهود الأوروبيين إلى فلسطين كوسيلة للنفوذ البريطاني الامبريالي . »

( ٨ ) هذه أرقام تقريبية يوردها فرد خوري في كتابه المعضلة العربية ـ الاسرائيلية ( سيراكوز ١٩٦٨) ، الجدول رقم ١ ، ص ٣٧٧ ،

خطتهم « كان من الضروري أن يحصل البريطانيون على السيطرة السياسية » في فلسطين(٩) .

٢ ) حتى قبل وعد بلفور ، كان البريطانيون على اطلاع بأن هدف الصهيونية النهائي هو إقامة دولة صهيونية وليس مجرد « وطن قومي »(١٠) .

٣ ) كذلك كان البريطانيون على إطلاع ، منذ عام ١٩١٦ إن لم يكن قبل ذلك ، على أن موقف العرب ، بما فيهم « المعتدلون » و « المتطرفون » والمسلمون والمسيحيون ، كان معادياً للأطماع الصهيونية وما تتضمنه من ضرورة السيطرة اليهودية على فلسطين(١١) .

٤ ) كان في كل من معاهدة سايكس – بيكو ووعد بلفور خرق لوعود سابقة كانت الحكومة البريطانية قد أعطتها للشريف حسين عام ١٩١٥ . وقد شملت هذه الوعود – كما هو معروف – إقامة دولة عربية موحدة مستقلة تكون فلسطين جزءاً منها . (١٢)

٥ ) أخفى البريطانيون الأدلة التي تثبت هذه الوعود ، بغرض إضعاف الموقف العربي ، وذلك بالإمتناع عن نشر مراسلات الحسين – مكماهون التي تحتوي هذه الوعود حتى عام ١٩٣٩ . (١٣)

٦ ) بسبب الضغط البريطاني .

رفض الطلب الرسمي الذي قدمه مواطنو فلسطين العرب – سواء المسلمون أو المسيحيون – الذين شكلوا ما يزيد على ٩٠ بالمائة من السكان أن يتم تمثيلهم في مؤتمر الصلح ( في باريس عام ١٩١٩ ( ، بينما منح الصهاينة



( ٩ ) أ . ل . طيباوي ، « فلسطين في المؤامرة الانغليزية – الصهيونية » في كتاب المقاومة العربية للاحتلال الاسرائيلي ، جمعه ناصر عدوي ( ويلمت ، إيلينوي ، ١٩٧٠ ) ، ص ١١ – ١٢ .

( ١٠ ) نفس المصدر ، ص ١٣ .

( ١١ ) نفس المصدر ، ص ١٤ .

( ١٢ ) أنتوني نتنغ ، « مأساة فلسطين منذ وعد بلفور حتى الآن » ، في كتاب الطريق العربي – الاسرائيلي المسدود من جمع مجدية د . خضوري ( واشنطن١٩٦٨ ) ، ص ٥٤ .

( ١٣ ) خوري ، ص ١٠ .

الذين لم يكن أي منهم من أهالي فلسطين ، تمثيلا كاملا . (١٤)

٧ ) تعاون البريطانيون مع الصهانية في شراء هؤلاء للأراضي في فلسطين ، وكان هذا الشراء أحد القضايا الرئيسية في الصراع العربي – الصهيوني قبل عام ١٩٤٨ . فقد « أجر » البريطانيون أراض اعتبروها ملكاً للدولة إلى اليهود بمبالغ رمزية وبموجب عقود تمتد تسعاً وتسعين سنة . وكذلك فان عزل ملاك الأراضي السوريين واللبنانيين بفعل حدود الإنتداب البريطاني والفرنسي سهل شراء اليهود للأراضي . (١٥)

٨ ) قمع البريطانيون بعنف المقاومة العربية الفلسطينية للاطماع الصهيونية . ففي عام ١٩٣٧ تم القبض على كثير من الزعماء العرب وتهجيرهم أو إجبارهم على الهرب من فلسطين . وفرضت عقوبة الإعدام على العرب الذين يحملون قنابل أو أسلحة أخرى غير مرخص بها . هذه الأفعال شتتت القيادة العربية الفلسطينية وقتلت الكثيرين من أكثر القوميين العرب اندفاعاً وجردت العرب من أسلحتهم. وفي نفس الوقت (كما يشهد بذلك يوريس )ساعدالبريطانيون فعلياً في تدريب قوات الدفاع اليهودي ( كذا ! ) وتسليحها . (١٦)

وينبغي أن تقارن هذه الإجراءات القمعية المتخذة ضد العرب والمقاومة العربية باخفاق البريطانيين في مجابهة الإرهاب الصهيوني بصورة فعالة رغم أن هذا الإرهاب كان موجهاً إلى سلطات الإنتداب ولكنه في معظمه استهدف المواطنين الفلسطينيين بين عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٨ .

٩ ) امتنعت سلطات الإحتلال البريطاني عن إنشاء مؤسسات عربية لتدريب السكان العرب على الحكم الذاتي وعن تشجيع قيام الإدارة المحلية بين العرب ، وبذلك خرقت السلطات البريطانية خرقاً مباشراً شروط الإنتداب ، الذي اعتبرت فلسطين بحسبه دولة تكاد تكون مستقلة . وفي ذات الوقت ، لم يتردد البريطانيون في تحقيق شروط الإنتداب التي تطلبت قيام وكالة يهودية في البلاد . وكان أن الوكالة « تطورت تدريجياً إلى دولة

---

( ١٤ ) طيباوي ، ص ١٦ . .

( ١٥ ) خوري ، ص ١٨ .

( ١٦ ) نفس المصدر ، ص ١٨ .

داخل دولة » كما يقول الكاتب الاسرائيلي روني إ . غابي . (١٧)

١٠ — مثلما كانت الحال في الولايات المتحدة ، أصبح تأييد الصهيونية في بريطانيا موضوعاً للمزاودة من فوق المنابر الإنتخابية ، كل حزب يحاول أن يتفوق على الآخر في محاولاته لإرضاء الصهاينة .

وفي عام ١٩٤٤ وصل الحد بحزب العمال أنه نادى بأن يشجع عرب فلسطين على مغادرتها كي يتيحوا مجالا أكبر للمهاجرين اليهود — وهو اقتراح لم يتجرأ على طرحه قط سوى القلة من المغالين الصهاينة المتطرفين . (١٨)

وليست هذه الوقائع والأدلة سوى بضع أمثلة على الدور الذي لعبته بريطانيا في خدمة الحركة الصهيونية على حساب عرب فلسطين ، وهي ليست مدرجة هنا بغرض تصحيح الصورة التي تقدمها الروايات المدروسة عن الصراع ، إذ أن تطرف تلك الصورة في بعدها عن الواقع واضح بحد ذاته . إنما الغرض من هذه الأدلة التاريخية هو إعطاء دليل كاف على فشل كتاب هذه الروايات في تأدية رسالة الكاتب القصصي التاريخي وفي القيام بقدر معقول من البحث والتمحيص ، والتبسيط والتشويه الذي نجده في عرضهم للصورة العامة للصراع والدور الذي لعبته بريطانيا كافيان لفضح ذلك . ولم تكن هناك حاجة بهؤلاء الكتاب الكثير من العناء في البحث الأكاديمي لو أرادوا الوصول إلى صورة أقرب إلى الحقيقة ، فمجرد التغيير في موقع القوى والقوة العسكرية والنسبة السكانية الذي طرأ على العرب واليهود في فلسطين في فترة الإنتداب كاف لأن يوضح أن الدور الذي لعبته بريطانيا لم يكن قط في مصلحة عرب فلسطين .

إنه من الصحيح أن بعض الفئات الصهيونية قامت بالفعل بمحاربة السلطات البريطانية ، وأن أعمال العنف الذي يرتكبها دوف في رواية يوريس وآريه في رواية ناثان وآرون في رواية لونستاين وما يكل راتز في رواية غيلون لها سند تاريخي ، إذ أن المصالح البريطانية والصهيونية ،لأسباب مختلفة ، (١٩) سلكت اتجاهات مختلفة قرب انتهاء

---

( ١٧ ) في كتاب : دراسة سياسية للصراع العربي — اليهودي ( جنيف ، ١٩٥٩ ) ، ص ٣٢ .

( ١٨ ) خوري ، ص ٢٨ .

( ١٩ ) إرجع إلى خوري ، ص ٣١ و ٣٢ وناصر عروري ، « مقدمة » ، « المقاومة الفلسطينية للاحتلال الاسرائيلي » ، ص ٢ .

فترة الانتداب البريطاني . وقد بدأت الخلافات بين الجانبين تتبلور حوالي عام ١٩٣٦ ولكن قام تعاون تام بين الطرفين خلال الحرب العالمية الثانية كما يقول يوريس .

ولكن الإقرار بوجود هذه الخلافات المصلحية بين البريطانيين والصهاينة لا يعني بأية حال من الأحوال أن الصراع الرئيسي كان يدور بين هذين الفريقين كما يحاول غيلون ويوريس أن يجعلا قراءهما يعتقدون خاصة في الفصول الأولى من روايتيهما ، وكما يوضح المقطع المطول المستشهد به في بداية هذه المقالة من رواية كأس الغضب . لقد كانت الخلافات البريطانية – الصهيونية عارضة ومؤقتة ، أما الصراع العربي الصهيوني فما يزال قائماً حتى الآن ومن الواضح أنه سيستمر فترة ليست قصيرة . وبالمقارنة مع هذا الصراع ، فان خلافات العصابات الصهيونية مع سلطات الإنتداب البريطانية لا تتعدى خصامات العشاق والأدلة التاريخية ، بل وحتى الأدلة التي يعطيها يوريس نفسه وغيره من الروائيين ، تقود المرء إلى الاستنتاج بأن الصهاينة والبريطانيين شكلوا في فلسطين معسكراً واحداً هو معسكر الغزاة المستعمرين ، بينما كان عرب فلسطين هم المعسكر المضاد . ومهما كانت جدية الخلافات الصهيونية – البريطانية فانها لا تغير من جوهر هذا التناقض . وليس التحالف بين بريطانيا واسرائيل في الهجوم على قناة السويس عام ١٩٥٦ سوى دليل جديد على هذه النتيجة .



في مقالة « حجة التفوق والمنطق الامبريالي » (٢٠) تمت الإشارة إلى أن هناك محاولة واضحة في الروايات الموضوعة قيد الدراسة إلى استعمال مصطلحات مستقاة من التجربة الأمريكية لوصف التجربة الصهيونية . وأحد جوانب هذه المحاولة هو تصوير الصهاينة على أنهم يقاتلون المستعمرين البريطانيين مثلهم في ذلك مثل الأمريكيين قبل الاستقلال والغرض من هذه المحاولة واضح تماماً ، وهو كسب عطف القارىء الأمريكي على الموقف الصهيوني . صحيح أن هذه الروايات تتعرض للصراع العربي – الصهيوني ولكنها تفعل ذلك في مرحلة متقدمة بعد أن تكون قد ضمنت ، حسبما يأمل كتابها ، أن يكون القارىء قد انحاز إلى جانب الصهاينة . وانسجاماً مع هذه المحاولة ، يصور العرب بصورة « السكان الأصليين المتوحشين » . وبتصوير البريطانيين بصورة الموالين للعرب ، يمنع القارىء من أن يشاهد عرب فلسطين كمناضلين يقارعون الاستعمار البريطاني وبالتالي من أن يشعر بالتعاطف مع قضيتهم .

(٢٠) المعرفة ، العدد ١٥٨ ( نيسان ١٩٧٥ ) ، ص ٣٣ .

وهذا يفسر إلى حد كبير التصوير المشوه للصراع في فلسطين قبل حرب عام ١٩٤٨ الذي نجده في هذه الروايات ، ويبين أن المغالطة التاريخية الفاضحة التي ترتكبها ليست ناجمة عن جهل أو حسن نية ، بل هي محاولة متعمدة لتحقيق هدف محدد .

. . .

قبل التعرض لحربي عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧ كما تصورهما الروايات المدروسة هنا ، هناك مسألة تاريخية أخرى تستحق الوقوف عندها خاصة وأن بعض هذه الروايات يوليها عناية خاصة . هذه المسألة هي قضية اللاجئين الفلسطينيين .

فهذه القضية هي بلا شك أهم عامل في الصراع العربي – الصهيوني ، وهي التي أملت إلى حد كبير سياسة واستراتيجية كل من الدول العربية وإسرائيل منذ عام ١٩٤٨ ، وهي أهم سبب من أسباب استمرار الصراع . لذا من الضروري فحص العرض التاريخي الذي تورده الروايات لهذه القضية ، خاصة أن تفهم أصول مشكلة اللاجئين أمر لا بد منه لأي شخص يريد أن يكون فكرة واضحة مستنيرة عن الصراع في الشرق الأوسط .

في بعض هذه الروايات ، وبالتحديد في كوكب أهلوا وأحضروا أبنائي من بعيد ، لا تكاد تذكر قضية اللاجئين ، بينما يبحثها كل من يوريس ومتشنر بشيء من التفصيل ويتبرعان بتفسير اتهما لكيفية بدء المشكلة . وفي الواقع ، يأخذ واحد من شخصيات يوريس ، وهو براك بن كنعان ، على عاتقه دراسة للمشكلة لمصلحة دولة اسرائيل ، ويورد يوريس خلاصة عن استنتاجات بن كنعان في روايته .

بدأت مشكلة اللاجئين ، حسب قول يوريس ، في المراحل الأخيرة من معركة ( الخروج ، ص ٥٣٥ ) . فحين تنتهي المعركة ، في كل من الخروج والينبوع ، يسبب هروب السكان العرب دهشة جنود الهاغانا في بداية الأمر ، إذ ، حسبما يذكر المؤلفان ، لا يبدو أن هناك أي سبب أو تبرير لذلك الهروب ( الخروج ) ، ص ٥٣٦ و ٥٧٥ ؛ الينبوع ، ص ١٠٠٩ و ١٠١١ ) . ولكن فيما بعد تعطى سذاجة سكان صفد العرب كتفسير لهروبهم الجماعي . ففي الخروج ، ينجح آري بن كنعان ، الذي يقود البالماخ في المدينة ، في اقناع عرب صفد أن الصهاينة يملكون قنابل ذرية ( ص٣٥٤ ) . ويعطي متشنر نفس التفسير فيقول إن العرب يهربون في رعب معتقدين أن الصهاينة يحوزون على القنبلة الذرية ، ولكن صهاينة الينبوع لا يد لهم في خلق هذا الإعتقاد ، فالعرب هم الذين يخلقون مصدر ذعرهم بأنفسهم ( الينبوع ، ص ١٠١٠ – ١٠١١ ) .

ولكن متشنر على مايبدو يدرك أن هذا التفسير غير كاف ويعطي تفسيراً إضافياً ، وإن كان هذا التفسير الثاني لا يقل سذاجة وتشويهاً عن الأول . عند انتهاء معركة صفد كما يقول متشنر ، يكتشف قواد القوات الصهيونية وثائق خلفها الجنود العرب وراءهم بعد انسحابهم . ولا يكاد هؤلاء الصهاينة يصدقون عيونهم ، حسبما يذكر الكاتب ، إذ أنهم يقرؤون « الأوامر السرية الموجهة إلى ضباط الميدان العرب تطلب منهم إخلاء جميع المدنيين العرب من فلسطين » ، كما تطلب منهم بالإضافة إلى ذلك أن يصدروا أوامر لهؤلاء المدنيين الفلسطينيين بأن « يخلقوا أقصى حد من الفوضى وأن يعطلوا الخدمات الطبيعية » أثناء رحيلهم ( الينبوع ، ص ١٠١٣ ) . ويكرر ناتان ولونستاين ويوريس ( على لسان برك بن كنعان ) الزعم بأن عرب فلسطين غادروا بيوتهم وأوطانهم بناء على أوامر صادرة عن القادة العرب ( كوكب الهوا ، ١٦٤ ؛ أحضروا أبنائي ، ص ١٤ ؛ الخروج ، ص ٥٧٦ ) . ويستنتج كل من رابخ – واحد من الشخصيات الصهيونية في رواية متشنر – وبرك بن كنعان أن مسؤولية مأساة اللاجئين تقع على عاتق القيادة الفلسطينية « الفاسدة » ( الينبوع ، ص ١٠١٣ ؛ الخروج ، ص ٥٧٥ ) . ويضيف برك بن كنعان أن القادة العرب لم يسببوا بصورة مباشرة هروب الفلسطينيين بإعطائهم أوامر الإخلاء هذه فحسب ، بل إن هؤلاء « القادة العنصريين » ( كــذا ! ) قاموا خــلال عــدة عقود من الزمن بملء الجماهير الجاهلة والمؤمنة بالخرافات والخزعبلات بمشاعر الخوف من اليهود ، وهو خوف غير مبني على أية وقائع وهو أيضاً سبب غير مباشر للهروب الجماعي . وإضافة إلى ذلك ، كما يدعي برك بن كنعان ، فإن مشكلة اللاجئين بأكملها هي « نتيجة مباشرة للحرب العدوانية التي شنها العرب لتدمير شعب اسرائيل » ( الخروج ، ص ٥٧٥ ) .

ويتفق كل من يوريس ومتشنر على أن الصهاينة ليسوا أبرياء من أية مسؤولية عن المأساة الفلسطينية فحسب ، بل أنهم في الواقع توسلوا إلى جيرانهم العرب أن يبقوا في البلاد . ففي الينبوع ، يقوم جندي البلماخ ايسيدور غوتسمن ( الذي يسمي نفسه فيما بعد إيلان إلياف ) بالجري في سيارة لاندروفر وراء عرب صفد الهاربين ويتوسل إليهم أن يعودوا إلى بلدتهم . وهو بقيامه بذلك يخاطر بحياته ، إذ يطلق الرصاص عليه مرتين أثناء توسلاته . وعلى الرغم من أنه في وقت لاحق من نفس اليوم يفجع

بموت زوجته – التي يقتلها العرب بالطبع – فإنه يعيد توسلاته في صباح اليوم التالي في عكا ( ص ١٠١١ و ١٠٧٩ )(٢) .

إن النقطة الأساسية في تفسير يوريس ومتشنر وغيرهما هي أن المسؤولية الكاملة عن هروب الفلسطينيين تقع على عاتق القيادة العربية آنذاك . وليس هناك من شك في أن هذه القيادة تتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية ، وهذا موضوع تم بحثه أكثر من مرة ، ولكن مسؤولية القادة العرب بالنسبة لمشكلة اللاجئين بالذات يمكن حصرها في إثارة ضجة دعاوية كبيرة عن الفظائع التي ارتكبها الصهاينة في إذاعة تقارير مبالغ بها عن القتال ، مما أدى بصورة مباشرة وغير مباشرة إلى ازدياد الذعر بين عرب فلسطين (٢٢) . ويبين الدكتور جون ديفز أن

> البحث المستفيض في وقائع اجتماعات الجامعة العربية وقراراتها وبياناتها الصحفية ، وفي التتبع يوماً بعد يوم للإذاعات من العواصم العربية ومحطات الراديو العربية السرية ، أخفق في أن يكشف عن أية إشارة ، مباشرة أو غير مباشرة ، إلى أي أمر أصدر لعرب فلسطين كي ينزحوا (٢٣) .



ومع ذلك فإن يوريس ومتشنر يدعيان بأن صدور أوامر من هذا القبيل عن الحكومات العربية هو أمر « تدعمه الوثائق » بشكل لا يقبل الشك .

ويحاول المؤرخان الاسرائيليان جون ودفيد كمشة في كتابهما تعارض مصائر أن يبرهنا على صدور مثل هذه الأوامر (٢٤) . وهما يتناولان ماحدث في مدينة حيفا كحالة خاصة، باعتبار أن حيفا ، حسب قولهما ، أخليت جزئياً من قبل سكانها العرب قبل مذبحة دير ياسين في نيسان ١٩٤٨ ( رغم أنهما يقران أن غالبية السكان نزحت بعد مأساة دير ياسين ) . وهما يدعيان أن القرار النهائي الذي اتخذه القادة الفلسطينيون في

---

( ٢١ ) إرجع أيضاً إلى الخروج ، ص ٥٥٤و٥٧٥ .

( ٢٢ ) الدكتور جون ديفز ، « كيف ولماذا هرب الفلسطينيون من فلسطين ، » مجلة الشرق الاوسط العالمية، المجلد الأول ، العدد ٢، ( أيار ١٩٧١ ) ، ص ٣٧ ؛ هشام شرابي ، فلسطين واسرائيل : المعضلةالمهلكة ( نيويورك ، ١٩٦٩ ) ، ص ٣٧ .

( ٢٣ ) « كيف ولماذا هرب الفلسطينيون من فلسطين ، » ص ٣٧ .

( ٢٤ ) ( نيويورك ، ١٩٦٠ ) ، ص ١٢١ – ١٢٤ .

المدينة ، وهو قرار بإعلانها ، تم الوصول إليه في جو هادىء بعيد عن العنف ، وأن هذا القرار يشكل تغيراً مفاجئاً في موقف هؤلاء القادة طرأ بعد أن انسحبوا بفرض التشاور من اجتماع للتفاوض مع ممثلي الهاغانا حول شروط استسلام عرب المدينة . ورواية هذين المؤلفين لما حدث في حيفا تتطابق إلى حد مامع مايورده يوريس ، الذي يدعي أنه بعد نجاح الهاغانا في احتلال المدينة « حدث شيء لا يصدق . فقد أعلن العرب فجأة إعلاناً دعا إلى دهشة عامة وهو أن جميع السكان يرغبون في النزوح » ( الخروج ، ص ٥٣٦ ) . ويوحي جون ودڤيد كمشة أن التفسير الوحيد الممكن للقرار المفاجيء بإخلاء مدينة حيفامن قبل سكانها العرب هو أن ممثلي هؤلاء السكان تلقوا من دمشق أوامر النزوح عبر الإذاعة . ويبني المؤلفان استنتاجهما هذا على إدعاء بأن محافظ حيفا اليهودي أعلم ممثلي السكان العرب أنه يريد بقاء هؤلاء السكان في المدينة كمواطنين متساوين مع السكان اليهود . ولكن جون كمشة نفسه يقر في كتاب آخر ، اليقظة العربية الثانية ، أن ممثلي الهاغانا رفضوا مطلبي المفاوضين العرب ، وأن هذين الطلبين كانا « أنه يجب ضمان الأملاك العربية ، وأنه يجب ألا يكون هناك تحيز أو إجحاف في وضع المدينة السياسي في المستقبل(٢٥). وهكذا فإن المؤلف نفسه يتقض الرواية السابقة المتضمنة في كتاب تعارض مصالح ، إذ أن رفض الطلبين المذكورين لا يمكن أن يتماشى مع التأكيدات المزعومة التي يفترض أنها أعطيت للعرب بأنهم سيعاملون على قدم المساواة . كذلك يقرجون كمشة ، بشيء من التردد ، بأن « الحقيقة تبقى أن الاسرائيليين لم يتمكنوا من إثبات أنه كانت هناك مثل هذه الإذاعات » لأوامر بالنزوح صادرة عن دمشق (٢٦) . ( في نفس الوقت يورد الدكتور جون ديفز أن أدلة تثبت أن الإذاعات العربية حضت عرب فلسطين على البقاء . ) (٢٧) .

إن هذا المثال أعطي بشيء من التفصيل هنا لتبيان أن يوريس ومتشنر وغيرهما من الروائيين إنما يوردون نفس الإدعاءات الصادرة عن المصادر الإسرائيلية حول نزوح عرب فلسطين ، وهي ادعاءات ثبت بطلانها . وفي ضوء الأدلة المبينة هنا ، من الواضح

---

( ٢٥ ) ( نيويورك ، ١٩٧٠ ) ، ص ١٢١ — ١٢٤ .

( ٢٦ ) نفس المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .

( ٢٧ ) ( « كيف ولماذا هرب الفلسطينيون من فلسطين » ، » ص ٧ن .

أنه لا بد من وجود تفسير لهذا النزوح يختلف عن التفسيرات التي يوردها هؤلاء الروائيون ، تفسير ليس بعيداً عن متناول أي باحث جاد . في دراسة حول الصراع في الشرق الأوسط ، يدرس فريق من الباحثين ينتمي إلى « الأصحاب الأمريكيين » مسألة اللاجئين الفلسطينيين ويتوصل إلى استنتاج بأن « معظم هؤلاء الذين هربوا فعلوا ذلك بدافع من النزعة الإنسانية تماماً إلى الذعر حين نشوب الحرب والهرب من مناطق القتال . » (٢٨) وعلى الرغم من كل محاولات يوريس ومتشنر وغيرهما إلى تصوير النزوح بأنه إخلاء طوعي ، فإن القول بأن هذا النزوح نجم عن الذعر يحمل من الاقناع أكثر من أي من التفسيرات الأخرى أياً كان مصدرها . وحول نفس هذا الموضوع يكتب الكاتب الاسرائيلي روني إ . غابي في كتابه دراسة سياسية للصراع العربي – اليهودي :

يمكن أن تعطي الطريقة التي هربت فيها المجموعات بل وأعضاء العائلات الواحدة ، إفرادياً وفي إتجاهات مختلفة ، فكرة عن درجة الذعر والرعب اللذين انتشرا بينهم (٢٩)

والسؤال الذي يجب أن يطرح هو ما الذي سبب هذا الذعر ومن يتحمل مسؤوليته . لقد ساهمت وسائل الإعلام العربية في إنتشار الخوف بين الفلسطينيين ، كما سبق أن ذكرنا ، بنشر أخبار أعمال العنف الصهيونية بدلا من كتمانها . وكذلك ينزع بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن توقف الخدمات الأساسية ، الذي رافق الانسحاب البريطاني واندلاع القتال بين عرب فلسطين والصهاينة ، ساهم أيضاً في إنتشار الذعر . (٣٠) ولكن هذه التفسيرات غير كافية ، إذ أن ماحدث في فلسطين يختلف جوهرياً عما يحدث عادة بسبب ظروف مماثلة من اندلاع القتال وتوقف الخدمات . فالمسؤولية الأولى لنزوح عرب فلسطين تقع على عاتق الصهاينة الذين كان دورهم ، بخلاف الدور الذي لعبته وسائل الإعلام العربية ، مخططاً ومدروساً .

ولكن متشنر ويوريس – وإلى درجة أقل لونستاين وناثان – يبرئان الصهاينة من أية مسؤولية عن نزوح سكان فلسطين العرب . ومع ذلك – كما هي العادة في هذه الروايات – يعطي يوريس نفسه أدلة على عكس مايدعيه ذلك في حديثه

(٢٨) لجنة خدمات الأصحاب الأمريكيين ، البحث عن السلام في الشرق الاوسط (فيلادلفيا ، ١٩٧٠) ص ١٩. والاصحاب طائفة دينية اسست في انكلترا في القرن السابع عشر واستقرت في أمريكا فيما بعد .

(٢٩) ص ٨٦ .

(٣٠) خوري ، ص ١٢٣ ؛ غابي ، ص ٨٥ .

عن سكان قرية أبي اليشع العربية ، التي يستخدمها كمثال على القرى العربية التي أقامت علاقات « صداقة » مع الصهاينة .

فحسب رواية يوريس ، عاش أهل هذه القرية في وفاق وتعاون مع جيرانهم سكان المستوطنتين اليهوديتين يد إل وغان دافنا . وقد نشأت صداقة قوية بين كمال ، مختار أبي اليشع، وبرك بن كنعان، زعيم يد إل . ولكن طه ، إبن كمال ، يخلف أباه كمختار للقرية ويغير شيئاً فشيئاً موقفه تجاه جيرانه الصهاينة . وحين ينشب القتال ،يسمح طه لمفرزة من جيش التحرير العربي أن تتمركز في قريته . ويتوقع قروييو أبي اليشع من مختارهم أن يطرد المفرزة ، ولكنه يحافظ على « صمت غريب ، دون أن يدافع أو يهاجم الجنود غير النظاميين » ( أي جنود جيش التحرير ) ( الخروج ، ص ٥١١ ) .

وفيما بعد ، تصدر الأوامر إلى آري بن كنعان – إبن برك – ليحتل القرية العربية ، وهو احتلال – كما يقال له – أصبح ضرورياً بسبب استخدام القرية كمستودع للذخيرة ومعسكر للتدريب وقاعدة للهجمات العربية على المستوطنات اليهودية ( ص ٥٥٤ ) . ولكن آري يشعر أن غالبية أهل القرية « مع اليهود » ( ص ٥١١ ) . وبالإضافة إلى ذلك، فإن رواية يوريس للأحداث تجعل من الواضح أنه ليس بين القرويين من اشترك في الأعمال المتخذة ضد الصهاينة . ومع ذلك ، فحين يصبح آري مستعداً للهجوم يعطي سكان القرية مهلة عشرين دقيقة لإخلائها . ويقف ليراقب « الكثيرين من أصدقاء عمره يجهدون في السير خارجين من أبي اليشع باتجاه هضاب لبنان . » ويحاول مائة من أهل القرية ، يقودهم طه ، أن يقاوموا الصهاينة ولكنهم يخسرون المعركة ويقتلون جميعاً . عند ذلك يأمر آري بتدمير قرية أبي اليشع ( الخروج ، ص ٥٥٨– ٥٥٩) .

وبغض النظر عن مدى انطباق هذه القصة على الواقع ، فإن إحدى النقاط الهامة فيها هي أن القوات الصهيونية تطلب من سكان قرية أبي اليشع إخلاءها وليس الاستسلام مثلا . وحتى إذا سلم المرء جدلا بالزعم بأن احتلال القرية هو ضرورة استراتيجية (٣١) ،

---

( ٣١ ) في هذه النقطة أيضاً يناقض يوريس نفسه، فهو يقول في مكان آخر من روايته إن الصهاينة كانوا حين حدوث هذه الأحداث قد نجحوا في « تطهير » المنطقة بأكملها من قوات جيش التحرير .

فليس هناك أي تبرير عسكري لإرغام أهل القرية على مغادرة وطنهم ليصبحوا لاجئين . إن برك بن كنعان يقول في « دراسته » لمسألة اللاجئين أن الصهاينة « ليسوا مدينين بأية اعتذارات»لارغامهم سكانالقرىالعربية الذين حاربوا القوات الصهيونية على مغادرة بلادهم ( الخروج ، ص ٥٧٦ ) ، ولكن حالة أبي اليشع ، حتّى حسب تصوير يوريس لها ، تنسف مثل هذه الأقوال الواهية .

وكذلك لا تبرير هناك لتدمير القرية ، والتفسير الوحيد الذي يمكن أن يعطى لعمل كهذا هو رغبة الصهاينة في التأكد من عدم إمكانية عودة سكان القرى العربية إليها . يقول هنري قطان إن أحد الأسباب الرئيسية لمشكلة اللاجئين كان تدمير القوات الصهيونية للقرى العربية للغرض المذكور . (٣٢) « لقد تم تدمير مائتين وخمسين قرية عربية بعد بعد طرد سكانها أو قتلهم في عام ١٩٤٨ . » (٣٣)

لقد طرد الكثير من الفلسطينيين الذين غادروا بلادهم بالقوة ، كما يبين الدكتور ديفيز . (٣٤) وقد تحرى وسيط الأمم المتحدة الكونت برنادوت حالة قريتين معينتين وكتب في تقريره أنهما تعرضتا لهجوم الصهاينة دون أية إمكانية لتبرير الهجوم على أساس عسكري ، واضطر السكان إلى إخلاء القريتين ، اللتين دمرتا عندئذ . (٣٥) ولدى احتلال منطقة اللد والرملة قبضت القوات الصهيونية على كل الرجال الذين لم يتجاوزوا الخمسين من العمر كأسرى ثم أمرت باقي السكان ، وعددهم حوالي ستين ألفاً ، أن يغادروا ، بعد أن أعطوهم مهلة قصيرة إلى حد أنهم لم يستطيعوا أن يأخذوا سوى بضعة قليلة من حوائجهم ، إن تيسر لهم أخذ أي شيء على الإطلاق . وقد أرغم هؤلاء السكان العرب ، ومعظمهم



---

( ٣٢ ) فلسطين والعرب واسرائيل : البحث عن العدالة ( لندن ١٩٦٩ ) ، ص٤١ .

( ٣٣ ) باربراك . أسود ، « اشتراك الفلاحين في الحركات الاجتماعية وعلاقته بالثورة الفلسطينية » في كتاب المقاومة الفلسطينية للاحتلال الاسرائيلي ، ص ٢١ .

( ٣٤ ) « كيف ولماذا هرب الفلسطينيون من فلسطين ، » ص ٣٧ .

( ٣٥ ) قطان ، ص ٤١ .

من النساء والأطفال، أن يسيروا على الأقدام كامل المسافة من رام الله في ظروف شديدة البؤس . (٣٦) وفي نفس الوقت ،

ألقي سكان المدن الساحلية ، يافا وحيفا وعكا ، وقد قطعوا عن الداخل ، في البحر حرفياً . وغرق مئات من الرجال والنساء والأطفال في التدافع تحت طلقات الرصاص للوصول إلى أي قارب أوسفينة صيد تأخذهم إلى بر الأمان (٣٧) .

وخلال المراحل الأولى ( نيسان وأيار ١٩٤٨ ) كان هناك سببان رئيسيان لهجرة عرب فلسطين، غير الإخلاء بالقوة . أحد هذين السببين هو الحرب النفسية التي نفذها الصهاينة بمهارة كبيرة . ( ٣٨ ) وإحدى الوسائل النفسية التي استخدمت لتشجيع هروب الفلسطينيين كانت

بلاغات متقطعة مذاعة باللغة العربية من محطات سرية تابعة للهاغانا ومن مكبرات صوتية مركبة فوق سيارات مصفحة في المناطق الهدف . وقد هددت البلاغات بعقوبات أليمة وحذرت من انتشار الأوبئة وأعلنت مسالك محددة يمكن للسكان أن يسلكوها للهروب من المجزرة . (٣٩) .



وكان السبب الثاني هو أعمال العنف والإرهاب التي ارتكبها الصهاينة ، والتي كانت ذروتها مذبحة دير ياسين بتاريخ ٩ نيسان ١٩٤٨ . في الروايات الموضوعة هنا قيد الدراسة ، لا يعطي أي من المؤلفين صورة معقولة عما جرى في دير ياسين ، وهذا متوقع بالطبع ، وفرتل هو الوحيد (٤٠) الذي يولي المذبحة شيئاً من الاهتمام الذي تستحقه .

---

( ٣٦ ) التفاصيل المذكورة هنا مستقاة من خوري ، ص ١٢٤ ، ومن أحد الأعداد الصادرة باللغة الانغليزية من المفكرة الفلسطينية ليوسف الخطيب .

( ٣٧ ) وليد خالدي ، « ١٩٤٨ـ – اللحظة الأخيرة ، » مجلة الشرق الأوسط العالمية ، المجلد الأول ، العدد الثاني ( أيار ١٩٧١ ) ، ص ٤٠ .

( ٣٨ ) الدكتور ديفز ، ص ٣٧ ؛ خوري ، ص ١٢٤ .

( ٣٩ ) خالدي ، ص ٤٠ .

( ٤٠ ) جوزف فرتل ، الإغراء الأخير ( نيويورك ١٩٥٥ ) .

فمتشنر وفيلون وناثان ولونستاين يتجاهلون دير ياسين تجاهلا كلياً . أما يوريس ، فلا بد أن دير ياسين هي المثل الذي احتذاه في حادثة نفي سادج (؟) التي يرويها في الخروج . ولكن حادثة يوريس مصممة لإلقاء أدنى قدر من المسؤولية على عاتق الصهاينة ، إذ أنها تختلف اختلافاً جذرياً عما حدث بالفعل في القرية العربية .

في رواية يوريس :

عهد إلى المكابيين بالمحافظة على قرية نفي سادج العربية العالية الموقع . وفي تسلل للأحداث غريب لا يمكن تفسيره ، انتشر شعور بالذعر بين الجنود المكابيين وبدأوا بإطلاق نيران طائشة وغير ضرورية . وحين بدأ الإطلاق لم يعد بالإمكان وقفه . وقدتم ذبح أكثر من مائتي عربي .

( ص ٥٤٤ )

ويصف يوريس مذبحة نفي سادج ( دير ياسين ) هذه بأنها « أكثر لطخة سواداً في السجل اليهودي . . . »



لم تكن مذبحة دير ياسين لا نتيجة للذعر الإرهابيين ولا بجزرة ارتكبت في ظروف « لا يمكن تفسيرها » ، كما يشهد بذلك شاهد عيان من جنود البالماخ في تقرير نشرته إحدى الصحف الاسرائيلية . (٤١) فالعملية كانت مخططة بدقة من قبل منظمة الأرغن زفاي لومي الإرهابية(٤٢) وتم تنفيذها بمساعدة عصابة شترن . وإضافة لذلك ، كانت

---

( ٤١ ) نشر التقرير في جريدة يديوت أهارونوت في ٤ نيسان ١٩٧٢ . وقد نشرت مقتطفات مترجمة إلى اللغة الانكليزية تحت عنوان « ذكرى دير ياسين » في مجلة الدراسات الفلسطينية ، المجلد الأول ، العدد الرابع ( صيف ١٩٧٢ )، ص ١٤٢ — ١٤٣ . وتحت نفس العنوان نشرت أيضاً مقتطفات من صحف اسرائيلية أخرى تتناول نفس الموضوع . وهذه التقارير تتفق جميعاً على أن جميع العرب الذين أطلق عليهم الرصاص قتلوا قتلا متعمداً وفي حالة من برود الأعصاب .

( ٤٢ ) « مرحباً ؟ » ( اسم الكاتب غير مذكور ) ، مجلة الشرق الأوسط العالمية ، المجلد الأول ، العدد الثاني ( أيار ١٩٧١ ) ، ص ٢ .

العملية ذات هدف واضح ومحدد، وهو إقناع السكان العرب بمغادرة البلاد، كما ذكر ناطق باسم عصابة الأرغن (٤٣). وقد أعلنت هذه العصابة بزهو خبر المجزرة في مؤتمر صحفي تم عقده في نفس الليلة (٤٤).

لسببين نجحت مذبحة دير ياسين في تحقيق الهدف المنشود منها وفي إحداث تأثير كبير على سكان فلسطين العرب. فأولا لم تكن الحادثة عملية عسكرية. وقد ذكر أحد ممثلي منظمة الصليب الأحمر العالمية بعد أن زار القرية في يوم ١٠ نيسان، اليوم التالي للمذبحة أنه لم يكن هناك « أي سبب عسكري أو استفزاز من أي نوع » يفسر الجريمة. والقرية نفسها « لم تظهر أي عداء خاص تجاه جيرانها اليهود. » (٤٥) والسبب الثاني هو الوحشية التي نفذت بها العملية بأكملها. فقد « قتل لا أقل من ٢٥٤ شخصاً، منهم خمس وعشرون أمرأة حامل وخمسون أماً لأطفال رضع وستون امرأة وفتاة أخريات. وجرح حوالي مائتي شخص. » (٤٦).

ويمكن تقدير مدى الدور الذي لعبته هذه المذبحة في خلق « مشكلة اللاجئين » من تصريح أدلى به مناحيم بيغن، قائد عصابة الأرغن، يقول فيه أنه لولا دير ياسين لما كانت هناك دولة اسرائيل قط. (٤٧) ويذكر كاتب إسرائيلي أن هرب العرب من فلسطين كان محدوداً قبل الفترة الممتدة من أول نيسان إلى منتصف أيار. (٤٨) وقد تم أول نزوح رئيسي بعد مجزرة دير ياسين. (٤٩).

ودير ياسين تستحق التركيز والاهتمام لأنها لم تكن حادثة مفردة كما يدعي برك بن كنعان بالنسبة لحادثة نفي سادج ( الخروج، ص ٥٧٤ )، ولكن كتتويج لعدد من أعمال العنف المماثلة الموجهة ضد العرب والتي لا يمكن تبريرها. وقد شملت

( ٤٣ ) نفس المصدر والصفحة؛ البحث عن السلام في الشرق الأوسط، ص ١٠.

( ٤٤ ) « مرحباً ؟ »، ص ٢.

( ٤٥ ) قطان، فلسطين والعرب واسرائيل، ص ٤٢.

( ٤٦ ) « مرحباً ؟ » ص ٢.

( ٤٧ ) « الضيف غير المرغوب فيه » ( اسم الكاتب غير مذكور )، مجلة الشرق الأوسط العالمية، المجلد الأول، العدد ١١ ( شباط ١٩٧٢ )، ص ٢.

( ٤٨ ) غابي، دراسة سياسية للصراع العربي – اليهودي، ص ٨٦.

( ٤٩ ) شرابي، ص ١٧١.

هذه الأعمال – كما يذكر هنري قطان – « نسف البيوت فوق رؤوس ساكنيها وتدمير القرى . »(٥٠) وحتى في حيفا ، التي يستخدمها الكتاب الصهاينة كحالة تدرس للبرهنة على أن هروب العرب من فلسطين كان نزوحاً « تلقائياً » ،(٥١) تم ارتكاب عدد من أعمال العنف هذه ضد السكان العرب قبل أن يجري أي نزوح من المدينة(٥٢) .

وبالإضافة إلى أعمال العنف والحرب النفسية وإرغام الأهالي على النزوح بالقوة وتدمير القرى ، فإن الطريقة التي كان الصهاينة يتصرفون بها بعد احتلالهم قرية أو مدينة عربية ساهمت إلى حد كبير في نشر الرهبة في نفوس الفلسطينيين وبالتالي في هروبهم . ففي حيفا مثلا – كما يذكر يوسف الخطيب في المذكرة الفلسطينية – دنس الجنود الصهاينة حرمة المساجد وسرقوا الشاهدات الرخامية من القبور العربية وكدسوا جثث العرب الذين قتلوا في المعركة على أرصفة الشوارع .

يكتب جوزف فرتل في روايته الإغراء الأخير أن الإذاعة والصحف الصهيونية(٥٣) قللت من شأن مذبحة ياسين معتبرة إياها « شيء يجب نسيانه بسرعة ، شيء ضروري ولكنه مخجل على نحو غير قابل للتحديد . »(٥٤) والروائيون الذين يتناولون أحداث حرب عام ١٩٤٨ في رواياتهم ، يقومون بأكثر من التقليل من شأن مسألة اللاجئين الفلسطينيين ، فهم حين لايتجاهلون المسألة تجاهلا تاماً ، فإنهم يتجاهلون الوقائع التاريخية الكثيرة بهدف تبرئة الصهاينة من أية مسؤولية عن معاناة اللاجئين العرب .(٥٥)

* * *

( ٥٠ ) ص ٤١ .

( ٥١ ) الخروج ، ص ٥٣٦ ، على سبيل المثال .

( ٥٢ ) يوسف الخطيب ، المفكرة الفلسطينية .

( ٥٣ ) ولكن ليس في الإذاعات الصهيونية المبثوثة باللغة العربية،التي دعت عرب فلسطين مراراً وتكراراً لأن « يتذكروا دير ياسين » ( قطان ، ص ٤٣ ) .

( ٥٤ ) ص ٣٣٢. ويجب مقارنة كلمة « ضروري » الواردة في المقطع المقتبس هنا من رواية فرتل ، والتي هي كلمة ذات دلالة كبرى ، مع رواية يوريس لحادثة نفي سادج ( دير ياسين ) .

( ٥٥ ) للبحث صلة .

# « دوستويفسكي » وفن الرواية الفلسفية الاجتماعية *

ف . ايتوف

ترجمة : نزار عيون السود



١

برز دوستويفسكي ، منذ أعماله الأدبية الأولى ، كاتباً مبدعاً ، وخالقاً لشكل روائي أصيل ومتفرد .

إن موضوع « الفقراء » الذي طرحه دوستويفسكي لم يكن موضوعاً جديداً في الأدب الروسي . فقد صور بوشكين ، ومن بعده غوغول ، حياة « الإنسان الصغير ، الضعيف » بتعاطف وحب كبيرين وأصبح الموظف الصغير ، الذي كان يدعى « مستشاراً من المرتبة التاسعة » شخصية لابد منها في « المدرسة الطبيعية » في العقد الرابع من القرن التاسع عشر . وقد شكلت ظروف حياته المضحكة – المبكية أساساً لوصف حياته بصورة ساخرة لدى كل من بوتكوف(١) ( في « ذرى بطرسبورغ » ) ونيكراسوف ( في أشعاره الساخرة ) .

---

( * ) فصل من كتاب « دوستويفسكي كاتب ومفكر » موسكو ١٩٧٢ . بقلم الناقد السوفييتي ف . ايتوف : وهو ناقد معاصر ، كتب عدة أبحاث ودراسات عن دوستويفسكي ، ونال شهادة الدكتوراه في الأدب من جامعة موسكو بأطروحته « واقعية رواية دوستويفسكي « الجريمة والعقاب » . – المترجم –

( ١ ) بوتكوف ( ياكوف بتروفيتش ) كاتب روسي توفي سنة ١٨٥٦ . عاش ومات فقيراً . من أشهر آثاره الأدبية « ذرى بطرسبورغ » حيث صور فيها حياة معدمي المدينة . – المترجم –

ويمكننا أيضاً ، أن نعثر على الجانب المضحك في شخصيته ( ماكار ألكسيفيتش ديفوشكين ) بطل رواية دوستويفسكي « الفقراء » . غير أن دوستويفسكي لم يهدف أبداً إلى وصف الجوانب الهزلية من حياة بطله ، أو إظهار كيف تقضي الحياة على مواهب إنسان ضعيف مستكين، وتلجم عقله . لقد صور دوستويفسكي مأساة حياة بطله من الداخل ، وبالتالي وسع إلى حد كبير ، إمكانات « المدرسة الطبيعية » .

ومع بقائه ، في الاتجاه العام الابداعه ، مناصراً لغوغول في تصوير حياة المعذبين والمهانين ، والمطرودين من المجتمع ، كان دوستويفسكي في سرده الروائي ، وفي وصفه لأشخاصه ، يبتعد باستمرار ، عن مؤلف « قصص بطرسبورغية »(١) ، مكوناً بذلك أسلوبه الخاص الفريد . وأول مايلفت النظر في مؤلفات دوستويفسكي الباكرة ، النمط الجديد لشخصية البطل ، وتقويم المؤلف ( بكسر اللام ) ، الفكري والعاطفي المتفرد له .

إن « الأنسان الصغير ، الضعيف » عند غوغول مثل ( باشماشكين ) في « المعطف » أو ( بوبريشين ) في « مذكرات مجنون » لا يثير فينا سوى الرأفة والشفقة . أما (ماكار ديفوشكين ) في « الفقراء » ، وهو القريب من إنسان غوغول الضعيف ، فيذهلنا بتناقضه التراجيدي ، وبنبله الإنساني الذي يصل إلى درجة التضحية بالذات ، والاستكانة ، والمهانة بأقصى درجاتها . وعندما وصف الناقد الروسي ( بيلنسكي ) روح مؤلفات دوستويفسكي الباكرة ، لم يقتصر على الإشارة إلى « العنصر الإنساني والملحمي العميق المقترن بالعنصر الهزلي » بل وأشار أيضاً إلى « الصبغة واللون التراجيديين العميقين »(٢) في هذه المؤلفات . إن تعزيز الصبغة التراجيدية في أعمال دوستويفسكي ، وتكون الروح التراجيدية ، هما الأتجاه العام للتطور الإبداعي اللاحق عند دوستويفسكي .

لقد ظهرت الروح التراجيدية في « الفقراء » بصورة خافتة ، فهي مختفية وراء روح عاطفية أكثر بروزاً . وكان هذا مطابقاً لطبع بطل الرواية ، ولطابع العصر ، وهو التمرد الديموقراطي الخفر ، الذي لازال عفوياً آنذاك ، لأوساط سكان المدن في الثلاثينات والأربعينات على ظروف الواقع الروسي اللاإنسانية .

وقد اعتمد ( غوغول ) ، في قصته عن الموظف الفقير ، الوصف المتتابع لحياة البطل ،

---

( ١ ) أي غوغول .

( ٢ ) بيلينسكي . « المؤلفات الكاملة » ج ٩ موسكو ١٩٥٥ ص ٥٥١ .

مع التصوير الدقيق لعاداته اليومية وظروفه المعيشية . ويشكل الحادث المتميز من حياة الموظف نواة موضوع القصة . واهتمام الكاتب موجه هنا إلى وضع بطل الرواية ، الميؤوس منه ، وهو بطل أدبي يحمل بين طياته تعاطف الكاتب معه وشفقته عليه . إن ( باشماتشكين ) بالذات أو ( بوبريشين ) هو التعاسة ذاتها ، والشقاء نفسه ، هو الكائن المنسي المهمل ، الذي يبدو أشد الناس بؤساً وشقاء .

أما رواية دوستويفسكي فقد تناولت موضوع فقر الإنسان ومذلته المعنوية بصورة أخرى . ويقوم موضوع الرواية الرئيسي على الكثير من التركيز والشمول : فهو لا يقتصر على الشخصية الرئيسية ، بل يشمل العديد من الشخصيات الثانوية أيضاً . ويتضح الموضوع الرئيسي بأسلوب متميز ، أسلوب تضمين القصة قصة أخرى : فيتحدث ( ديفوشكين ) عن آلام آل ( غورشكوف ) ، وتصف ( فارينكا ) في مجلتها ، عائلة ( بوكروفسكي ) . ومن خلال انطباعات أبطال الرواية تبرز أمامنا حياة المدينة ككل . إن هذا كله ، لايوسع دائرة الفقراء فحسب ، بل ويخلق أيضاً ، جواً اجتماعياً عاماً مرهقاً ، يؤدي إلى تطورات في وعي البطل .

إن تصوير آلام الطبقات الانتقالية من سكان المدينة ، والتعاطف الإنساني مع « الكائنات المنسية » ( هكذا حدد الناقد بيلينسكي موقف « الفقراء » ) كانا يشكلان باستمرار ، روح دوستويفسكي الإبداعية . غير أن تحولات وتبدلات جوهرية طرأت في العقد الستين . وأخذ يكتسب حزنه على الإنسان وتعاطفه معه في كثير من الأحيان ، طابع اليأس التراجيدي من استحالة « تجنب الشر » ( الجزء الثاني عشر من مؤلفات دوستويفسكي . ص ٢١٠ ) وبالإضافة إلى ذلك ، أخذ الكاتب يولي نقد الدعائم المعنوية لحياة النبلاء والبورجوازية اهتماماً متزايداً .

وتستقطب جل الإهتمام في هذا المجال بصورة خاصة ، روايتا « الفقراء » و « الأبله » فإذا ماظهرت بالكاد حياة ( آل ييكوف ) النبلاء ، وصور « إقطاعي السهوب » كشخصية رمزية في الرواية الأولى فقد رسم لنا دوستويفسكي في روايته الثانية « الأبله » لوحة واسعة لحياة الفئات المختلفة من مجتمع النبلاء ( آل إيفولغين ، وإيبانتشين ، وبيلوكونسكايا ، ورادومسكي — وهذه الأسر بالذات هي فئات اجتماعية مختلفة من معسكر الأسياد ) . إن العالم الروسي البطرسبورغي الواقعي بتبايناته الإجتماعية كلها — هو الحافز الفعال لاستقصاءات الأمير (ميشكين ) وتأملاته الأخلاقية ، والسبب الحقيقي لموته وهلاكه . وبالاضافة إلى

ذلك ، يهتم الكاتب اهتماماً كبيراً في هذه الرواية كما هو الأمر في رواياته السابقة ، بتصوير آلام « المهانين » ، و « أكثر الناس بؤساً » . وهذا هو مصير الطبيب وسوريكوف من « اعترافات » إيبوليت ، بل هو مصير ناستاسيافيليبوفنا بالدرجة الأولى .

وفي روايات دوستويفسكي التي ظهرت في العقدين السادس والسابع ، وخصوصاً في « الجريمة والعقاب » ، و « الأبله » ، تطورت مبادئ بنيوية كثيرة كان دوستويفسكي قد رسمها في « الفقراء » ، مثل : تصوير آلام الإنسان الفقير من جوانب متعددة ( قصة ضمن قصة أخرى ) ، وتأملات البطل الرئيسي المدبة حول مصير الناس القريبين منه ، تلك التأملات التي تقوده إلى الانفجار العاطفي والتمزق الروحي . غير أن هذا كله ، يبرز في مقاييس ونسب أخرى ، في أعمال دوستويفسكي اللاحقة ، حيث سيطمح البطل لا إلى تقرير المسائل الإجتماعية المحددة فحسب ، بل وسيفكر أيضاً بالقضايا الجوهرية للوجود الإنساني ، وبالأسس الأخلاقية المبدئية ، الهامة للحياة . حيث يحل محل التأملات الساذجة الضعيفة للموظف شبه الأمي ، أفكار البطل — المنظر ، الفلسفية الواسعة . إلا أن موضوع آلام الناس الفقراء ينفذ إلى جميع أعمال الكاتب العظيم ، ليغدو مصدراً لتأملات أبطاله الرئيسيين ، الفلسفية وتنقيباتهم الأخلاقية . إن موقف البطل من آلام الفئات المعذبة المهانة في المجتمع هو محوره الأخلاقي ، ومحور إنسانيته .



ومع بقائه شخصية أدبية كاملة على امتداد أعماله الإبداعية كلها ، يطور دوستويفسكي في الوقت نفسه ، في روايات الستينات والسبعينات ، مبادئ بنيوية جوهرية أخرى ، تطابق التحولات الجذرية والتبدلات الجارية سواء في حياة روسيا الاجتماعية ، أو في الموقف الفكري للكاتب نفسه .

لقد عانى دوستويفسكي بصورة حادة فريدة ، من تلك الأزمة العامة في ثورية الديموقراطية البورجوازية في أوروبا بعد سنة ١٨٤٨ ، تلك الأزمة التي ولدت مأساة هيرتسن الروحية .

وقد استوعب دوستويفسكي ، ضيق الأفق التاريخي الاجتماعي للثورية البورجوازية ولأفكار الاشتراكية الطوباوية ، المنعكس من خلال انطباعات المحكومين بالأشغال الشاقة — استوعبه وتقبله كدليل على « ضلال العقل » ، وكضياع تراجيدي للفكر الإنساني عامة . وانطلاقاً من هذه المواقع والانطباعات أيضاً ، قوم الكاتب الأفكار المادية والالحادية للمستنيرين الأوروبيين الغربيين والروس .

لقد أصبح مركز أهتمام دوستويفسكي تلك « الفوضى في المفاهيم » التي حملها معه

الحل الجزئي ، النصفي لقضية الإصلاح الفلاحي ، الذي حققه بصورة همجية ، تحويل روسيا الاقطاعية إلى روسيا الرأسمالية .

يقول دوستويفسكي في «يوميات كاتب» : « إن العالم القديم ، والنظام القديم – وهو نظام سيء جداً ، لكنه نظام على أية حال – قد ولى بغير رجعة . لكن الغريب في الأمر ، أن الجوانب الأخلاقية العفنة ، والقائمة من النظام البائد ، كالأنانية ، والمجون ، والوقاحة ، والعبودية ، والتفكك ، والمأجورية ، قد استمرت ، ولم تنقرض بانقراض نظام الرق . والأدهى من ذلك ، أنها تتوطد ، وتتعزز ، وتتكاثر » ( الجزء الحادي عشر ص ، ٣٩ ) :

إن موقف الكاتب ، النقدي من مختلف « الجوانب الأخلاقية القائمة » في حياة النبلاء والبورجوازية قد أملاه عليه تعاطفه العميق مع آلام الجماهير البائسة في ظل الإصلاح الفلاحي . يقول دوستويفسكي : « إن قضية الشعب في الوقت الحاضر هي قضية الحياة . . وبحسب تقريرها على هذا الشكل أو ذاك ، يتوقف مصير التقدم في روسيا » ( الجزء الثالث عشر ص ٢٣٥ ) .

غير أن الشعب ، الذي يفهمه دوستويفسكي بمفهومه الخاص ، ليس إلا شرطاً أولياً ضرورياً للتقدم التاريخي ، الذي يكمن جوهره في اقتراب « مثقفينا » من « التربة » (١) الشعبية . فالشعب بالنسبة لدوستويفسكي ، هو قبل أي شيء آخر ، جماهير متألمة ، ومهانة إجتماعياً ، هو حافظ للمثل العليا الأخلاقية القديمة ، وسَرّقب لعودة « الجوالين الروس » إلى كنفه .

إن مثل هذا الفهم للحياة الشعبية ، الذي طوره دوستويفسكي في مجلة « الوقت » ( مقالات : « المعارف النظرية والثقافة » ، « مجموعة مقالات حول الأدب الروسي » ، « معسكران من المنظرين » وغيرها ) ، وفي كلمته التي ألقاها عن بوشكين ، قد حدد أيضاً بعض خصائص الكشف عن الإنسان في رواياته ،في فترة الستينات والسبعينات ، بالمقارنة مع أعمال الفترات السابقة .

## ٢

بدأت تتكون المبادىء الرئيسية لمنهج دوستويفسكي، الروائي الجديد في روايته « مذلون ومهانون » . فهي أول عمل أدبي من أعمال دوستويفسكي ، متعدد

---

( ١ ) إلى البدايات الشعبية ، حسب مفهوم دوستويفسكي « للعودة إلى التربة » – المترجم –

المسائل والجوانب ، ويقف على عتبة رواياته الفلسفية – الاجتماعية المنهجية . ويمكننا إلى حد ما ، اعتبار روايته « مذلون ومهانون » رواية « تجريبية » ، وفاتحة لتكويناته الإبداعية المقبلة . فقد جمع فيها دوستويفسكي مواقف ومواضيع كثيرة ، وجرب مبادىء التعبير الجديدة ، التي استخدمها بنجاح فيما بعد .

إن الموضوع الحاد ، المقترن بعناصر الرواية الجنائية البوليسية ، وتكثيف أجواء الإبهام والغموض والألغاز ( الحوادث المفاجئة ، الاشاعات ، التوقعات ) ، والأخبار القصيرة ، السريعة عن الأحداث الاجتماعية الحيوية الهامة ، والحوار الأخلاقي – الفلسفي بين الأبطال ، مع بلاغة الصياغة المتميزة – كل هذا يربط رواية « مذلون ومهانون » برواياته اللاحقة بوشائج القربى .

لقد أجرى دوستويفسكي في هذه الرواية ، إعادة تقويم لمواضيعه وآرائه الأدبية ، ولاسيما موضوع الحالم وإيمانه بالعصر الذهبي . ويتعزز موضوع إعادة النظر في القيم والمبادىء ، خصوصاً وأن الكاتب في روايته « مذلون ومهانون » يتحدث ، ضمن نطاق استعادته لذكرياته الماضية ، عن مزاجه وميوله أثناء كتابته لرواية « الفقراء » كشيء بعيد ومنقرض بلا عودة . إن التصوير الواسع لوضع الطبقات الدنيا من سكان المدينة ، البائس يربط بين هاتين الروايتين ، ويكشف ، في الوقت ذاته ، عن الاختلافات المبدئية بينهما .



فالتصادم الإجتماعي في رواية « مذلون ومهانون » تخضع لتصادم أكثر أهمية وجوهرية بالنسبة للكاتب ، هو التصادم الأخلاقي .

واكتساب الأبطال لمبادىء جديدة في السلوك الحياتي ، مرتبطة بفكرة « كل شيء يتطهر بالمعاناة » ( « يجب أن نتوصل ، بشكل ما ، إلى سعادتنا المقبلة عن طريق المعاناة ، وأن نشتريها بآلام جديدة ما » الجزء الثالث ص ٩١ ) ، يزاحم بالفعل ، المواضيع المباشرة للعصيان الاجتماعي ويدفعها إلى المركز الثاني .

كما لا يقل أهمية عن ذلك ، التبدلات في تصوير ظروف حياة الأبطال .

في رواية « الفقراء » ، الوسط الخارجي ، والواقع الإجتماعي اليومي ، المحيط بـ ( ماكار ديفوشكين ) يبرز خاملاً ، وجامداً على خلفية الحياة ، القليلة التبدل ، والعادات والتقاليد القديمة المتكونة في وعي البطل : حيث يحاول البطل – وهو شخصية مهانة

إجتماعياً – معارضة الوسط الخارجي ، والخروج عن قواعده المألوفة ، ويصاب بهزيمة ساحقة .

أما علاقات الفرد بالوسط فقد ظهرت في رواية « مذلون ومهانون » بصورة أخرى تماماً . فهنا تمثل الحياة أمامنا واثبة ، منطلقة في طريق معبد . إنها الفوضى ، إنها « الجحيم الجهنمي » ، التي تحدث فيها باستمرار ، تبدلات خفية غامضة لا يستطيع الإنسان إدراكها . وهذا كله يغير بصورة جوهرية ، جو الرواية ومبادئها البنيوية .

فيفلس ( إيخمينيف ) ، ويندفع الأمير ( فالكوفسكي ) جرياً وراء الملايين ، ويشعر جميع الأبطال بحالة من القلق وعدم الثقة . إن انطباع الأزمة العامة الفكرية والأخلاقية ، وانهيار الدعائم المألوفة للحياة يشكلان نبض الرواية . وتعزز قصة ( نيللي ) الصغيرة ، الغامضة لوحة الفوضى العامة والالتباس .

وفي تصويره لماضي الأبطال ، يستخدم دوستويفسكي المخطط الروائي الذي اتبعه بوشكين . فخصومة النبيل ( إيخمينيف ) مع الأمير ( فالكوفسكي ) ، والدعوى القضائية الجارية ، والإفلاس النهائي لآل ( إيخمينيف ) ، وحب الحب غير المتوقع ، الذي يقوم بين ابن طرف النزاع وابنة الطرف الآخر – كل هذا يذكرنا بتقلبات رواية بوشكين « دوبروفسكي » .

غير أن هذه الموضوعات المعروفة استخدمها دوستويفسكي بصورة عامة ، من أجل وصف ماضي أبطاله ليست إلا . ولا يشكل النزاع الاجتماعي ، واصطدام ( إيخمينيف ) بالأمير ( فالكوفسكي ) إلا عرضاً لموضوع الرواية الأساسي ، وهو الأهم بالنسبة لدوستويفسكي .

ويجري تقرير الدعوى القضائية بين ( إيخمينيف )و( فالكوفسكي ) على هامش الرواية في الواقع ، أما أساس الموضوع ، واهتمام المؤلف فتكونهما العلاقات الأخلاقية المتبادلة ، والقائمة بين أفراد أسرة ( إيخمينيف ) : المحاولات المتبادلة لاجراء مصالحة بين الأب وابنته ، تلك المصالحة التي تعرقلها وتمنعها كبرياؤهما .

إن الموضوع الأساسي في الرواية هو موضوع أخلاقي : التغلب على الكبرياء ، تقبل الأبطال لفكرة الأخوة والتعاطف المتبادل . وثمة مجموعة من المشاهد ، تصور بصورة ثابتة ، مشاعر الأب والابنة ، التي توصف ( على لسان الأبطال والمؤلف ) بأنها مشاعر

« الكبرياء ». وتحمل قصة نيللي عن مصير أمها – تلك القصة التي تسبق المصالحة النهائية لآل ( إيخمينيف ) – شحنة أخلاقية ، فكرية ، تقويمية واضحة .

من الممكن التغلب على « الكبرياء » التي تعرقل سعادة الإنسان بالتسامح الإنجيلي . وتعبر عن هذه الفكرة ، كلمات ( نيللي إيخمينيفا ) التالية : « إن عيد الفصح ، حيث انبعث المسيح ، سيأتي بعد غد . والجميع يتبادلون القبلات والتهاني ، كما يتصالح الجميع . . . باستثنائك أنت ... أنت وحدك ... يالك من قاس ! إذهب بعيداً ، وأغرب عن عيني » ( الجزء ٣ ص ٣٠٣ ) .

وعلاوة على ذلك ، فإن روح عدم المهادنة التي تبديها ( نيللي ) ، وعدم رغبتها بالصفح عن العجوز ( إيخمينيف ) ، اللذين يمليهما الموقف الواقعي ومنطق الحياة ، لا الأخلاق المجردة المبهمة ، يدخلان في تناقض مع مبادىء الكاتب المنهجية ، ليعكسا تشابك موقفه الاجتماعي وتناقضه .

إن أخلاق الأنانية egosentrisme والفردية المتجسدة بوضوح وجلاء ، في سلوك ( فالكوفسكي ) وفلسفته تعارض فكرة الشفقة والتعاطف في هذه الرواية . ان ( إيفان بتروفيتش ) و ( فالكوفسكي ) هما خصمان فكريان أخلاقيان ، وتشكل مناجاة ( فولكوفسكي ) الفلسفية ذروة موضوع الرواية .



وهكذا ، يحمل النزاع الرئيسي في رواية « مذلون ومهانون » صورة النزاع الأخلاقي الملموس . وهذا النزاع لا يقوم على تصادم المصالح الإجتماعية – الغالبة في الدرجة الأولى – فحسب ، بل وعلى تعارض المبادىء الأخلاقية وحتى الفلسفية المختلفة . وبالاضافة إلى ذلك ، وباستخدامه لمبادىء وصف الأخلاق والعادات والطبائع ، يبين دوستويفسكي المصادر الاجتماعية لحوافز الأبطال الأخلاقية . وفي مواضيع ثانوية عرضية ، يطور دوستويفسكي المواضيع الاجتماعية ، مصوراً حياة الطبقات الدنيا من سكان مدينة بطرسبورغ : وتعتبر شخصيات القوادة ( بوبنوفا ) ، والنذل ( أرخيبوف ) ، و( ميتروشكا ) ، وابن التاجر ( سيزبريوخوف ) شخصيات رائعة متميزة في هذا المجال . وهم يشبهون في كل شيء السادة اللاعبين في صالات الاستقبال الأرستوقراطية ، زملاء الأمير فالكوفسكي وأصدقاءه . وينشأ موضوع اجتماعي جوهري ضمن موضوع الرواية الرئيسي : وهو محاولة فاشلة من جانب الأمير ( فالكوفسكي ) لإغراء ( ناتاشا ) وجعلها محظية الكونت ن « العارف المهذب بكل ماهو رائع جميل » . وحتى أخلاق فالكوفسكي

ذاته ، الأنانية المتطرفة ، تجد إلى حد ما ، تفسيرها الاجتماعي في كلمات ( أليوشا ) وابنه : « . . . وأي أمراء نحن ؟ من حيث النسب فقط . أما من حيث الجوهر ، فبماذا نشبه الأمراء؟ليست لدينا ثروة كبيرة،والثروة هي الأساس . ووروتشيلد الآن،يعتبر أمير الأمراء ، هذا أولا . وثانياً ، لم يسمع أحد بنا منذ زمن طويل في مجتمع النبلاء » ( ج ٣ ص ١٠٠ – ١٠١ ) .

وهكذا ، فقد أشير في « مذلون ومهانون » إلى كثير من مواضيع روايات دوستويفسكي « الإشكالية » المقبلة . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن مبادىء تركيب الموضوع ، التي استخدمها دوستويفسكي للمرة الأولى في « مذلون ومهانون » تحمل في طياتها جنين الشكل الروائي الجديد . غير أن « مذلون ومهانون » ليست مجرد « تجربة » ، وأول محاولة غير محددة بصورة كافية ، لتقرير القضايا بصورة فنية ؛ تلك القضايا التي طرحها أمام دوستويفسكي سواء العصر نفسه ، عصر التحطيم العنيف ، أو فهمه الخاص لآفاق تطور الحياة الاجتماعية الروسية .

لقد دوى في رواية « مذلون ومهانون » نقد لاذع لفلسفة النزعة الفردية ، تلك التي اجتذبت فيما بعد اهتماماً كبيراً من جانب دوستويفسكي . إلا أن هذه الفلسفة لم تغد بعد مركزاً محورياً لموضوع الرواية ، وكذلك الأمر بالنسبة لأخلاق التسامح المسيحي المناقضة لها . « آه ! لنكن نحن مذلين ، ولنكن نحن مهانين ، لكننا معاً من جديد ، وليحتفل الآن ، المتغطرسون المتكبرون ، الذين يذلوننا ويهينوننا ! » ( ج ٣ – ص ٣٦٥ ) – إن هذه العبارة التي تختتم القسم الرابع من الرواية تتضمن مغزى الرواية الرئيسي وهو : إن « المذلين » و « الفقراء » الذين تجمعهم فكرة العصيان الذليل الوديع ، يمكنهم الوقوف في وجه « المتغطرسين المتكبرين » المبتهجين . إن رواية دوستويفسكي هذه يمكننا اعتبارها رواية أخلاقية – اجتماعية . غير أنها لم ترق بعد إلى مستوى المسائل الفلسفية – الاجتماعية ، التي امتاز بها دوستويفسكي ، والتي كونت البنية الخاصة المميزة لرواياته . إن المبادىء الأخلاقية التي توحد فيما بين أبطال الرواية وتمنحهم إمكانية المحافظة على أنفسهم في العالم الرهيب المحيط بهم هي : التغلب على الكبرياء الشخصية ، والحفاظ على الكرامة الإنسانية .

أما الطرق المقبلة لتطور مبادىء دوستويفسكي الروائية فهي : السمو بالنزاع الأخلاقي ، الذي يظهر في مجال العلاقات الشخصية بين الأبطال إلى صدام فلسفي يكشف عن تصارع أفكار الأبطال ، باعتبارها أفكاراً أساسية جوهرية بالنسبة للإنسانية ككل ،

والنضال المستمر النشيط ضد النزعة الفردية البورجوازية ، ومحاولات التوحيد بين الأخلاق المسيحية والدفاع عن الطبقات الدنيا الديمقراطية الواسعة،ومثل الإنسانيةالحقة.

(٢)

بدأت تتكون الرواية الإشكالية عند دوستويفسكي منذ منتصف العقد السادس . فهزيمة القوى الديمقراطية ، وصعود الرجعية جلبا معهما تحطيم آمال دوستويفسكي حول تطوير الحياة الاجتماعية الروسية عن طريق الثقافة و« التحولات الأخلاقية » . وكان دوستويفسكي مستعداً لتحميل المعسكر الثوري كامل المسؤولية عن عاقبة الأحداث هذه . وهذا الخطأ دفع بالكاتب إلى الدخول في مجادلة حادة مع أفكار الديمقراطيين الروس ، الاشتراكية والمادية ( في « ذكريات من بيت الموق » بصورة خاصة ) ، ومع أفكار الاشتراكيين الطوباويين الغربيين ( في « ملاحظات شتوية عن انطباعات صيفية » ) ، وإلى ازدياد حدة نقده للثقافة البورجوازية الغربية ، التي اعتبرها نتيجة مباشرة للتعاليم الاشتراكية الغربية . ولقد اكتسب تسلط الأهواء والأهوال الوحشية في المجتمع البورجوازي ، في عيني دوستويفسكي ، قيمة البرهان المباشر على عجز احلام الطوباويين الاشتراكيين الغربيين عن التحول إلى حقيقة واقعة .



ومع شكه بإمكانية تحقيق « الاخوة » على أساس إشتراكي ، فقد وجه دوستويفسكي ، مع ذلك ، أنظاره إلى الفكرة ذاتها ، إلى فكرة « الأخوة » ، ولكن على أساس آخر ، على أساس مسيحي ، وعلى التسامح المسيحي ، ومحبة القريب ، ونكران الذات .

واكتسبت استقصاءات دوستويفسكي هذه عمقاً فريداً ، وقوة كبيرة بفضل ذلك الوضع الهام ، وهو أن الكاتب قد طرح مسألة آفاق تطور روسيا بصورة كاملة ، في موقف التحطيم العنيف« للدعائم » القديمة . وهكذا اكتسبت مسائل العصر « القديمة ، الدهرية » ، واهتمام الكاتب ، بالتنقيبات والطرق التالية للبشرية (١) » موضوعية تاريخية ، وملامح مرئية لعصرها ، وأصبحتا قضايا حيوية لجماهير واسعة من الشعب البائس ، ومن خلاله ، لكل كائن حي ، لا للإنسانية المجردة .

( ١ ) ساليتكوف – شدرين « المؤلفات الكاملة في عشرين جزءاً » ج ٩ ص ٤١٢ موسكو ١٩٧٠ .

لقد اصبحت فكرة الطابع الفلسفي – الاجتماعي لروايات دوستويفسكي الكلاسيكية فكرة مألوفة في النقد الأدبي . غير أن الباحثين كثيراً مايكتفون بالتصور القائل بأن روايته اكتسبت هذا الطابع بفضل وجود المسألة الفلسفية فيها ، ووجود « الفكرة » المرتبطة بالاستقصاءات والتأملات الروحية للبطل الرئيسي ، وأن « فكرة » البطل بالذات تحمل طابعاً تكوينياً وشكلياً في الرواية الفلسفية – الاجتماعية .

يقول الناقد ب . إنفيليفاردت بأن الفكرة هي « بطلة » رواية دوستويفسكي (١) . ويقول الباحث المعاصر ف . يفنين شارحاً الدور البنيوي « للفكرة » في الرواية الفلسفية الاجتماعية بأن « الفكرة » وحدها تفرد راسكولينكوف وتجعله شخصية متميزة ( حول حق « المختارين بارتكاب الجريمة وسفك الدماء » ) » (٢) .

إلا أن مسألة بنية روايات دوستويفسكي الكلاسيكية أكثر تشعباً وتعقيداً من ذلك . فهي لا تقتصر على توفر « الفكرة » ، والمسألة الفلسفية – الاجتماعية ، والأبطال ذوي الجانبين الفلسفي ، والاجتماعي .

لقد بدأ يبرز البطل – الفيلسوف في رواية « مذلون ومهانون » حيث تميز فكرة الإباحية الأخلاقية الأمير فالكوفسكي بجلاء وسطوع . غير أن « فكرة » فالكوفسكي في المنهج الروائي « مذلون ومهانون » تحمل طابعاً موضعياً ، وبروزها في حواره الداخلي الذاتي يخدم على الأغلب ، كوسيلة لتقويم المؤلف لهذه الشخصية من الناحية الفكرية والعاطفية ، ولا يحدد بنية الرواية ككل .

إن « صوت » البطل ، الفلسفي وحده غير كاف لخلق منهج روائي جديد من حيث المبدأ . ولا بد من أجل ذلك ، من تصادم مواقف فلسفية مختلفة ، ومن وجود نزاع فلسفي – اجتماعي في أساس الرواية ، وصراع النظرات المختلفة عن العالم ، وتطوير هذا الصراع بصورة ثابتة مستمرة ، في العلاقات المتبادلة بين الشخصيات .

---

( ١ ) ب . م . إنفيليفاردت : « رواية دوستويفسكي الأيديولوجية » ضمن كتاب : « ف . دوستويفسكي : مقالات ودراسات » موسكو ، لينينغراد ١٩٢٤ ص ٩٠ .

( ٢ ) ف . يفنين : « وواقعية دوستويفسكي » ضمن مجموعة « قضايا النموذجية في الواقعية الروسية » موسكو . ١٩٦٩ . ص . ٤٢٤ .

وعلى هذه الصورة بالذات ، تقوم رواية « الجريمة والعقاب » ، رواية دوستويفسكي الفلسفية – الاجتماعية الأولى .

إن افتضاح جريمة راسكولينكوف ، والتفاعل المعقد ، المتشعب لبواعثه الفلسفية والاجتماعية يتحققان في الرواية في ارتباط وتشابك وثيقين بتصوير تلك القوى التي تعارض نزعة راسكولنيكوف الفردية ، والتي عليها أن تحدد طريق البطل إلى الانبعاث الروحي . إن تصادم المبادىء الأخلاقية المختلفة : الفردانية الفوضوية ، والتعاطف المسيحي ، والروح الإنسانية الأبدية ، يميز التضارب الأخلاقي – المعنوي في الرواية ويحدد مفهومها الأدبي .

لقد برز في تصادم « نظرية » راسكولينكوف و « ممارسته » بـ « الشفقة اللامتناهية » والتعاطف غير المحدود من جانب ( صونيا مارميلادوفا ) أفضل تعبير وأكمله عن القضية الفلسفية – الأخلاقية للرواية . والصراع الفلسفي ، الذي يشكل أساس الرواية ، يحسم في خاتمتها عندما يتخل راسكولنيكوف عن نظريته بصورة نهائية . أما شخصيات الرواية الأخرى فتشغل بأحكامها وتصرفاتها هذا الموقف الفلسفي – الأخلاقي أو ذاك من « نظرية » راسكولينكوف . فتحظى نظريته بالتأييد والدعم من جانب آراء ومشاعر ( لوجين ) و ( سفيد ريغايلوف ) – هذين النموذجين الواضحين ، البارزين للوقاحة والمجون الاجتماعي : المكتسب النفعي والوقح الماجن .



أما الموقف الفلسفي – الجمالي المعارض للأخلاق الفردية فقد عبرت عنه الرواية بصورة أكثر تشابكاً وتعقيداً . حيث تخلو « الجريمة والعقاب » من « الثنائي المتفلسف » من الأبطال مثل ( ميشكين ) و ( إيبوليت ) في « الأبله » ، و ( زوسيما ) و ( إيفان ) في « الأخوة كارامازوف » .وتجد النظرة الفلسفية إلى العالم،المعارضة لنظرة ( راسكولينكوف)، التعبير عنها في السلوك الحياتي اليومي لعدد من الشخصيات في الرواية مثل : مارميلادوفا ، صونيا ، ليزافيتا ، ميكولكا ، بوفيريا . غير أن هذه الشخصيات لا تعبر بصورة مباشرة عن أفكار الكاتب،ولاتمثل خارج الموضوع ، دوراً واعظاً ( رغم أنه يمكن ملاحظة مثل هذه الإتجاهات إلى حد ما ، في تأويل شخصية بوورفيريا ) .

وتكمن الخاصة البنيوية المميزة لرواية «الجريمة والعقاب» في أن حل النزاع الفلسفي ، الذي يمكن أن يعبر عن مفهوم الحياة عند الكاتب ، كان من الواجب أن لا ينبع من تصادم الشخصيات والطباع المختلفة والتناقض الموضوعي لمواقفها الاجتماعية فحسب ، بل وأن

يعثر عليه ويجده البطل بنفسه، بصورة عضوية . ومثل هذه الوحدة الفنية العضوية لم تكن لتتوفر بعد في رواية « مذلون ومهانون » حيث لاتتناسب فلسفة الرضوخ والاستكانة بصورة كافية ، شخصيات آل ( إيخمينيف ) المفعمة بالكرامة الإنسانية العميقة ، كما لم تظهر المصادر الحقيقية لأخلاق الأمير ( فالكوفسكي )، الفردية، ونتيجة لذلك ، جاء شبيهاً بشرير ميلودرامي .

إن إدراك الكاتب ، المرهف للتناقضات الاجتماعية في زمن الإصلاح ، وطموحه إلى الإمساك بالجوهر ذاته ، جوهر الأحداث العادية و « الغريبة » في « الواقع اليومي » قد صاغا المبادئ الأدبية – الفنية لقصة دوستويفسكي ، الفلسفية – الاجتماعية .

كتب دوستويفسكي في تشرين الأول ١٨٧٦ في « يوميات كاتب » قائلا : « أنظر إلى واقع آخر من الحياة الواقعية ، وليكن أقل سطوعاً ، وإذا ماتوفرت لديك القوة وحدة البصر فستجد فيه عمقاً لن تجده لدى شكسبير . ولكن من صاحب العين البصيرة ، ومن لديه مثل هذه القوة ! – وهذا جوهر القضية » ( الجزء ١١ ص ٤٢٣ ) .

إن إدراك العمق « حتى في الوقائع غير البارزة » ، والكشف عن جوهره الأخلاقي والفلسفي . . . . . هو ما ترتبط به خصائص تطورات الموضوع عند دوستويفسكي .

إن « المحور الفلسفي » للرواية – حسب تعبير الناقد ل . غروسمان (١) – لايتكون من فكرة البطل الرئيسي وحدها ، بل ويتكون من مجموعة الأفكار المحددة للصدام الرئيسي في العمل الأدبي .

يقوم الموضوع في الرواية الفلسفية – الاجتماعية على تصادم المصالح الاجتماعية ( وهذا يبدو واضحاً وجلياً في « الجريمة والعقاب » و « الأبله » ) . كما يقوم على تصارع المبادئ الأخلاقية المختلفة ، المرتبطة بالجوهر الاجتماعي لشخصيات الرواية . ويتحول النزاع الأخلاقي إلى نزاع فلسفي اجتماعي ، ثم إلى مواجهة مكشوفة حادة بين « النظريات » ، وبين الآراء المرتكزة إلى الحياة والواقع ( في « الجريمة والعقاب » هناك « فكرة » ، راسكولنيكوف من جهة، والدعوة إلى الأخذ بـ « المقاساة » والآلام، التي عبرت عنها كلمات ( صونيا )و( بر فيريا )؛من جهة أخرى . وفي « الأبله » – التعارض بين موقفي ( ميشكين )

---

( ١ ) ل . ب . غروسمان « شاعرية دوستويفسكي » موسكو ١٩٢٥ ص ١٨ .

و ( إيبوليت ) . وفي « الأخوة كارامازوف » – يبدو هذا التعارض في « كل شيء مسموح » بالنسبة ل ( إيفان ) وفي المذهب الأخلاقي المسيحي للخطيئة العامة ، والصفح الشامل عند ( زوسيما ) .

لقد أكد دوستويفسكي هذا المبدأ البنيوي الرئيسي لرواياته في البنية التركيبية ل « الأخوة كارامازوف » عندما دعا الباب الرئيسي من الرواية ، وهو الباب الخامس ، ب « مع وضد » ( Pro étcontra ) . إن « مع وضد » هو المبدأ الرئيسي في بنية جميع روايات دو ستويفسكي الكلاسيكية. كما يخضع إختيار طباع الشخصيات وتوزيعها للنقيضة Antithése الفلسفية – الأخلاقية : إما – وإما . إما « حق » الإنسان الفرداني ، وإما الشفقة المسيحية والتسامح والإيمان .

إن الجو الشعري كله ، في روايات دوستويفسكي ، محاك من المشاعر والبواعث المتناقضة ، ويتخلله نفي لجميع الأسس الأخلاقية للعالم القديم القائم على الملكية الخاصة ، ونظرة الكاتب ، الإنسانية المتعاطفة ، المتجسدة في اندفاع لم يسبق له مثيل في الأدب العالمي . هذا من ناحية ؛ كما يتخلله من ناحية أخرى ، شك دائم وقوي في سيادة قوى الإنسان واستقلالها ، ودعوة لامتثال الفرد للمثل الأعلى ، الذي يبرز كمبدأ أخلاقي ، يقضي ب « إلجام » الفرد المتعنت . لقد عبرت روايات دو ستويفسكي عن عصيان الكاتب وتمرده على الظروف اللاإنسانية للحياة المحيطة ، وعن إيمانه المندفع بإمكانية السعادة والعدالة الاجتماعية كما عبرت عن ضعف الإنسان المأساوي أمام العالم الرهيب المعادي .

إن رواية دوستويفسكي الفلسفية – الاجتماعية تذكرنا ، من حيث بنيتها الفنية بمعبد من معابد العصور الوسطى ، مبني على الطراز القوطي ، يؤثر فينا بطموحه الدائم والمتشبث إلى المثل الأعلى . وقد وصف الكاتب السويسري الشهير ستيفان تسفايغ ميزة روايات دوستويفسكي ، المأساوية بقوله : « إن الإنسان الجبار يقف فيها عارياً ضعيفاً ، لاحول له ولا قوة تحت سماء المصير ، التراجيدية »(١) .

إعتقد دوستويفسكي أن مهمة الأديب أو الفنان تكمن في التقاط « بصيص » المثل الأعلى والإحساس به في « الواقع اليومي » . وبهذا الصدد بالذات ، يطرح دوستويفسكي مفهوم « القصيدة » كأساس فكري تكويني لرواياته ، إن « القصيدة » هي « الماس » ، أما العنصر

---

( ١ ) ستيفان تسفايغ . « المؤلفات الكاملة » ج ٧ ص ١٥٤ موسكو ١٩٢٩ .

الثاني » فهو أقل عمقاً وغموضاً » ، « إنه معالجة هذا الماس المكتشف وترصيعه » ( الرسائل ج ٢ – ص ١٩ ) . وفي رسالته ذاتها ، التي أرسلها إلى ( آ . مايكوف ) ، يعرض على صديقه إحدى هذه « القصائد » ، وهي « بعث التاريخ الروسي وتصويره بحب ، وبفكر من عندنا ، ومن وجهة نظر روسية ، منذ البداية » . ثم يوضح دوستويفسكي « النقاط والمراحل » التي تناولها من التاريخ الروسي ، فيقول بأنها تلك النقاط والمراحل التي « يتركز فيها التاريخ الروسي كله والتي تعبر عنه في أماكن وأزمنة محددة » ( الرسائل – ج ٢ ص ١٩١ ) .

إن « القصيدة » ( Poéme ) ، حسب مفهوم دو ستويفسكي – ليست « فكرة » مجردة أو تصور أيديولوجي بل رسم أو مخطط إجمالي Esquisse أولي للإبداع الأدبي المقبل ، ومقصد فكري . – أدبي محدد . « القصيدة » هي الجنين الفكري للرواية المقبلة ، ونتيجة إدراك ظواهر الحياة الملموسة ، والواقع الحالي ، اليومي من وجهة نظر المثل الأعلى للمؤلف . وفي رسالته إلى خ . د . آلتشيفسكايا ، التي عاتبته لأنه ، في « يوميات كاتب » يوزع مواهبه على أمور تافهة ، عبر دوستويفسكي عن تلك الصلة العكسية التي تربط « القصيدة » بـ « توافه الأمور » ، الملحوظة في الحياة ، فقال : « لقد توصلت إلى قناعة ثابتة ، بأن على الكاتب الأدبي أن يعرف ، فضلاً عن القصيدة ، الواقع الذي يصور بدقائقه التافهة الجزئية الصغيرة ( تاريخية ويومية ) » ( الرسائل – ج ٣ – ص ٢٠٦ )



ولهذا كانت « قصائد » روايات دوستويفسكي بدرجة أقل أو أكثر ، مسهبة دائماً ومفصلة ، ومحددة من حيث اللون الأدبي . وبصرف النظر عن وحدة المنهج الفكري الجمالي في جميع رواياته الفلسفية ، فإن « قصائد » هذه الروايات مختلفة ، وهي مرتبطة بالطباع الاجتماعية المختلفة للأبطال الرئيسيين ، ومتوقفة على القضايا المختلفة للحياة الاجتماعية الروسية .

إن « أمثولة الإلحاد » لا تشبه « قصيدة » « الانسان الرائع المثالي الإيجابي » وهذه الأخيرة لا تشبه « التقرير السيكولوجي عن الجريمة المرتكبة » .

وتشمل « القصيدة » في طياتها أيضاً ، دلالة فنية معينة ترتبط بالمسألة الأساسية لشخصية البطل الرئيسي المعالجة وميزاتها . ويشير دوستويفسكي في هذا المجال ، إلى الملاحظة التالية : « إن الكل عندي يبرز على شكل بطل » .

إن رواية دوستويفسكي عن جريمة ( راسكولنيكوف ) قد صممها على شكل « تقرير

سيكولوجي » مرتبط بواقع أن المهم ، بالنسبة لدوستويفسكي ، في هذا العمل الأدبي ، هو دراسة العالم الداخلي للبطل.وفي نهاية العقد السادس فكر الكاتب العظيم بكتابة أمثولة عن الإلحاد، ومن ثم يعرض وجود الكافر الكبير . وهذه الاختلافات الفنية النوعية لم تكن لتوجد ،لو كانت « القصيدة » بالنسبة لدوستويفسكي ، مجرد تصور أيديولوجي مبهم تخضع له شخصيات الأبطال وطباعهم . وليست تفاصيل « القصيدة » وتأليفها وجزئياتها و « قطع غيارها » أقل قيمة أو أهمية في ممارسة دوستويفسكي الأدبية الإبداعية . ففي هذه المواقف اليومية الحياتية ، وفي الأحداث الحقيقية الجارية في « الواقع اليومي » بالذات ، أحس الكاتب بـ « المعنى الأسمى » لهذا الواقع .

تقوم المسألة الفلسفية وتتطور في رواية دوستويفسكي ، دائماً ، على قاعدة اجتماعية . و «الماس» ليس « مؤطراً » فحسب ، بل مرتبط بـ « إطاره » أيضاً، يرتكز عليه ويتعزز به .

ويكشف دوستويفسكي الحياة اليومية الاجتماعية ويصورها بدقة متناهية : حيث عليها أن تكون انطباعاً مماثلا لانطباع « الوثيقة » ، و « الصورة الداكرية » .

فالتصوير الفوتوغرافي ذو قيمة كبيرة ، بالنسبة للمشاهد الفن ، بـ « حقيقته المباشرة ، التي تخفي بمهارة كبيرة « الأسرار التركيبية – البنيوية لـ « المصور »– الأديب. في مقدمته لـ « قضية لاسينير » ، المنشورة في عدد من اعداد مجلته « الوقت – فريميا » ، أكد دوستويفسكي بأن « القضية قد ديرت بجرأة وتجرد ، ونقلت بدقة الصورة الداكرية والرسم التشريحي الفيزيولوجي » . غير أن « التصوير الداكري » للقضية يقدم للكاتب إمكانية التوصل إلى نتيجة هامة عن طبع المجرم وشخصيته : « إنه نموذج الزهو والغرور في أقصى درجاته »(١) – وهي نتيجة مطابقة لموقف محرر مجلة « الوقت » ، المرتبطة بجماعة « العودة إلى التربة »(٢) . وقد انعكست مبادئ التصوير الفني هذه ، بدرجة معينة ، في بنية روايات دوستويفسكي الفلسفية .– الاجتماعية .

---

( ١ ) « قضية لاسينير . من قضايا القضاء في فرنسا » مجلة « فريميا – الوقت » ( القسم الثاني ) العدد ٢ ص ١

( ٢ ) « العودة إلى التربة Potchvennitchestvo » تيار أدبي – اجتماعي روسي ، نشأ في الستينات من القرن التاسع عشر ، ويرتبط بنشاط الكتاب المتجمعين حول مجلتي الأخوين دوستويفسكي « الوقت » ( ١٨٦١ – ١٨٦٣ ) و « العصر epokha » ( ١٨٦٤ – ١٨٦٥ ) . وقد نشأ اصطلاح « العودة إلى التربة » على أساس كتابات دوستويفسكي الاجتماعية حول عودة المثقفين إلى « التربة » أي إلى البدايات والأصول الوطنية والشعبية – المترجم –

في رواية « مذلون ومهانون » ركز دوستويفسكي اهتمامه على تصوير غرابة الحياة اليومية(١) والرواية هذه طافحة بمشاهد المغامرات والأحداث المؤثرة ، حيث تبرز شخصية شرطية بصورة شيطانية أكثر مما هي واقعية . وتتعزز الغرابة والغموض التي تحتويهما حياة بطرسبورغ بكلمات الكاتب – الراوي .

تقوم رواية « الجريمة والعقاب » وروايات دوستويفسكي التالية على أسلوب مغاير تماماً : فالواقعية المرسومة بصورة طبيعية ، تلطف غرابة حياة الأبطال ، الداخلية وتخففها . وبدون ضغط من الكاتب ، يتجلى الجوهر التراجيدي ، للوحات المأخوذة من الحياة الروسية في عهد الإصلاح ، في مجراه الطبيعي . وتكسب الدلائل الخارجية « للتصوير الداكري » و « الرسم التشريحي الفيريولوجي » الرواية قوة إقناع فنية خاصة .

وقد صدق الباحث الانكليزي ( ريتشارد كيول ) في ملاحظته القائلة بأن « دوستويفسكي قد استطاع أن ينقل إلينا مدى الحياة ، الواسع بفوضى الواقع ، المباشرة الكاملة ... ينقل دوستويفسكي الشعور بهذا السيل العاصف من الحياة – وهذا يعتبر أعظم منحة قدمها دوستويفسكي كأديب »(٢) . إن الإحساس « بسيل الحياة ، العاصف » في روايات دوستويفسكي يتكون وفق تصور معين من جانب المؤلف ، هو البحث عن « القانون العادي » ضمن « فوضى الحياة اليومية ، العاصفة المشتتة » . يقول دوستويفسكي في « يوميات كاتب » سنة ١٨٧٧ : « وإذا سيطرت هذه الفوضى – التي كانت موجودة سابقاً ، لكنها ازدادت حالياً – على الحياة الاجتماعية ، وأصبح من المستحيل العثور على قانون عادي لها ، وخيط دليل إليها حتى بالنسبة لكاتب من مقياس شكسبير ، فمن هو الكاتب الذي سيلقي الضوء ، ولو على جزء من هذه الفوضى ، ودون أن يجد هذا الخيط الدال على الأقل ؟ إن حياتنا بلا شك ، ضحلة ومنحدرة ، ولكن ثمة ، وبالضرورة حياة تبنى من جديد على مبادىء جديدة . فمن سيحدد ولو قليلا ، ويعبر عن قوانين هذا الانحلال وهذا الخلق الجديد ؟ » ( الجزء الثاني عشر ص ٣٦ ) .

ومع كل أصالتها ، تبقى بنية روايات دوستويفسكي تطويراً لإنجازات الأدب



---

( ١ ) عرض دوستويفسكي المبادىء الرئيسية لهذه الرؤية الفنية في مقالته الانتقادية : « أحلام بطرسبورغية مشعورة ومنثورة » .

R.Curl : » Charakters Dostoevsky .London 1950, p. 17.(٢)

الواقعي الروسي والأوروبي الغربي . وقد أشارت كتب النقد الأدبي أكثر من مرة ، إلى تأثر دوستويفسكي ببلزاك ( في روايتيه « الأب غوريو » و « الأحلام الضائعة » ) .

لقد أظهر بوشكين مصير الإنسان الفردي ، ذي التفكير النابليوني ، وخصوصاً في قصته « البنت البستوني » بصورة مقنعة . وكان بطل بوشكين ( غيرمان ) موضع اهتمام دائم من جانب دوستويفسكي . وعنه بالذات ، يتحدث بطل دوستويفسكي ( في « المراهق » ) أركادي دو لغوروكي ، وهو المولع بفكرة روتشيلد ، حيث يقول : « هذا إنسان جبار ، غير عادي ، إنه نموذج بطرسبورغي صرف ، نموذج من بطرسبورغ » ( الجزء الثامن ص ١٥١ ) .

إن اهتمام دوستويفسكي ، الكبير بقصة « البنت البستوني » مشروع ومفهوم : فهي قريبة من مؤلف « الجريمة والعقاب » لا من حيث فكرتها فحسب ، بل ومن حيث مبادىء التصوير الفني فيها . وفي هذه القصة المتميزة ، التي توجه نقداً حاداً لسلطة المال التي تفقد الإنسان روحه ، يخضع موضوع النجاح والحصول على الثروة لموضوع آخر أكثر عمقاً ، هو موضوع حرية الإنسان الحقيقية والمزيفة ، والبحث عن التأكيد الذاتي الأخلاقي للفرد ، وهلاكه الروحي بتأثير فكرة لا إنسانية . وهذا كله قريب من المواضيع والمبادىء الرئيسية لرواية دوستويفسكي الفلسفية الاجتماعية .

إن المحور الرئيسي في قصة بوشكين ليس التصوير الروائي التقليدي لعالم البطل ، الداخلي في مسار تطوره ، بل هو تصوير « الشهوة » المهلكة ، القاتلة ، المتنقلة إلى فكرة ثابتة مسيطرة . إن الخاتمة غير المتوقعة لموضوع المغامرة ، والهلاك الروحي للبطل يكسبان القصة طابعاً تراجيدياً متوتراً . وهذا كله يتطور بصورة ثابتة مطردة ، في رواية دوستويفسكي الفلسفية – الاجتماعية . وإلى جانب ذلك ، فقد انعكست في تكوينات دوستويفسكي الإبداعية تقاليد الرواية الأوروبية الغربية بنسبة معينة ، ولا سيما تقاليد الرواية البلزاكية .

إن أساس موضوعات « الكوميديا الإنسانية » عند بلزاك هو ركض البطل وراء الكسب ، والسلطة ، والثروة ، والصعود والهبوط على الطريق الحياتي ، وما يرتبط بهذا كله من أوهام وخيبة أمل ! والصراع المستميت في سبيل المصالح المادية . كما يمزج بلزاك المغامرات والدسائس ، في رواياته بـ « التصوير الطبيعي » ، وبتعليقاته الواسعة المفسرة : وترجع رواية بلزاك ، في كثير من جوانبها إلى تقاليد الرواية الأوروبية الغربية في عصر التنوير من القرن التاسع عشر .

تربط « روح المغامرة » و « التصوير الطبيعي » رواية دوستويفسكي بمبادىء تأليف الموضوع الروائي ، البلزاكية . وبالاضافة إلى ذلك ، فقد تطور في مؤلفات الكاتب الروسي العظيم ، موضوع آخر ، هو موضوع إذلال الإنسان الطيب ، الرائع أخلاقياً ، ذلك الموضوع الذي أدخله بلزاك بصورة جريئة ، في روايتيه « الأب غوريو » و « إيجين غرانديه » ، إلى الأدب الأوروبي الغربي ، ومن ثم فيكتور هيغو في روايته « البؤساء » . غير أن دوستويفسكي استطاع أن يتغلب على النزعة الميلو درامية والعاطفية ، التي ظهرت في روايات بلزاك ( والتي تعود إلى تقاليد « الدراما البورجوازية الصغيرة » عند ديدرو في « رب الأسرة » وغيرها ) ، وعلى النزعة الأخلاقية المسيحية المباشرة التي ميزت « بؤساء » هيغو .

ومع مشاركته هيغو في الفكرة الاشتراكية ، حول « تجديد » الإنسان في الإنسان وبعثه ، رغم أنه فهمها كتخصيص عام « للأدب المسيحي في القرن التاسع عشر » فقد أظهر دوستويفسكي بعمق ، تراجيدية حياة الطبقات الاجتماعية الدنيا ، أي البؤساء والمنبوذين من سكان المدينة الروسية .

وقد حددت مصاير هؤلاء بالذات ، البحث الروحي لدى أبطاله الرئيسيين . إن المشاعر والانفعالات المختلطة ، المتأزمة كما يبدو ، لأشخاص دوستويفسكي وتخبطاتهم الروحية والأخلاقية بين « لجتين » ، بين مثل سودوم (١) ومريم العذراء . . . هذه كلها تكتسب مغزى عميقاً عندما توضع في صلة وارتباط مباشرين بلوحات الآلام الشعبية الصارخة .

إن الشعور بالمسؤولية الشخصية عن الشقاء الدنيوي ( الذي هو ليس من صفات « الطبيعة الفطرية ) — هو مصدر « الضمير المريض » لأبطال دوستويفسكي ، التراجيديين . وها هو دمتري كارامازوف يشكو ، وقد فكر بالانتحار ، فيتذكر عبارات هاملت الشكسبيري عن « إيورك البائس » : « إنني حزين ، إنني كئيب » . إن ( دمتري ) حزين ، كئيب « لأن العالم بلا نظام ، بلا نظام سام » . وبـ « النظام السامي » للإنسانية يفكر دوستويفسكي وأبطاله : مثل ( راسكولنيكوف ) بصورة حاقدة وهستيرية ، و ( دمتري كارامازوف )

---

( ١ ) مدينة قديمة في فلسطين ، ورد ذكرها في التوراة امتاز أهلها بالفجور والمجون الشديد . وقد عاقبهم الله على ذلك بأن دمر مدينتهم بالهزات الأرضية وبأمطار من نار — المترجم —

بابتسامة ساخرة حزينة ، و ( إيفان ) بتشامخ فلسفي ، مقترن بالاندفاع الكارامازوفي الجامح ذاته . ويبنى دوستويفسكي رواياته الفلسفية – الاجتماعية بشكل تخلق معه انطباعاً (منتشراً في أوساط واسعة من باحثي دو ستويفسكي) بأن الكاتب لا يظهر أبطاله في تطورهم الداخلي . غير أن هذا الإنطباع خادع ومضلل . فالتساؤلات والأبحاث الروحية التي يخوضها الفرد نتيجة للمؤثرات المتناقضة بصورة مباشرة ، وتسامي الفرد ، الأخلاقي وانحطاطه ، ومآزقه التراجيدية ، والوصول إلى المخرج الوحيد المقبول . . . هذا الطابع بالذات هو طابع تصويره لشخصياته الرئيسية في رواياته ، وهو لا يعبر عن تطورها فحسب ، بل ويعبر أيضاً ، في أغلب الأحوال ، عن الإنقلاب الحاسم في حياة هذه الشخصيات ومصيرها كله .

إن التصوير العادي ، المألوف ، في رواية القرن التاسع عشر ، لتطور طبع الشخصية ، وتبدلات جوهرها الروحي بتأثير الوسط الخارجي والظروف الحياتية يتركز عند دوستويفسكي في عقدة مأساوية مدمرة لمصير البطل . وبطل دوستويفسكي ، بتمسكه بـ « فكرته » الثابتة عن العالم ، وباصطدامه بآراء متناقضة عن الحياة ، يتمزق بالشكوك الداخلية ، ويعود دائماً إلى نقطة انطلاقه ، إلى « نقطة وضعه » الأولى ، ما دام النزاع لم يتفجر إلى سقوط مدمر ، يكتشف أفق « القصيدة الجديدة » ، ومعها الحياة الجديدة إذا ما بقيت مستمرة .



وهكذا ، فان تطور طبع البطل وشخصيته في رواية دو ستويفسكي يتقرر إما بهلاكه ، وإما بانتقاله الحاد إلى موقف الآراء والعقيدة المعاكسة ( تخلي راسكولنيكوف عن فكرته الفردانية ، وتوصله إلى « الحياة الجديدة » في رواية « الجريمة والعقاب » ، وصول دمتري إلى مغزى الحياة الأسمى في الطموح إلى « المعاناة » « في سبيل الطفل » ، وجنون إيفان في رواية « الأخوة كارامازوف الخ » . . . )

ولكن ما هو سبب التطور الروحي للبطل ؟ إن تردده الداخلي الدائم بين الآراء المتعارضة ، بين « القوتين » يشكل انطباع التطور التلقائي ، العفوي ضمن دائرة ، مصدرها الفرد نفسه . ومثل هذه الآراء كثيراً ماتتردد في الدراسات الأمريكية والأوروبية الغربية عن دو ستويفسكي . فقد أكد الباحث الأمريكي ( ي . فاسيولك ) ، عند تحليله لبنية رواية « الجريمة والعقاب » ، بأن كل ما يتجلى في راسكولنيكوف مقتصر على ما هو موجود في طبعه وشخصيته ، ولم ينضج بعد للظهور . وقد قال بهذا الصدد : « إن تغير مبادئه

لم يكن ممكناً لو لم تكن النظرات المتناقضة موجودة في راسكولنيكوف ، وإن كانت كامنة وغير ظاهرة » (١) . إن هذا التأكيد لا يخلو من الحقيقة ، غير أنه لا يمس مسألة أكثر تعقيداً ، هي مسألة تغير طبع البطل نتيجة الكارثة المتفجرة . وبالفعل ، تنعكس في بنية روايات دو ستويفسكي علاقات وتفاعلات متشابكة بين الفرد والبيئة المحيطة ، وتظهر في مواضيعه لحظات حاسمة في التطور الروحي لبطله . إن دو ستويفسكي يتجنب اللجوء إلى « ماضي » البطل، الذي تتكشف فيه مسيرة تكون قناعاته ؛ فهو يأخذ البطل في نقطة تحول روحية حادة ، تحدد مصيره كله . وعلى هذه الصورة بالذات ، يظهر لنا راسكولنيكوف ، والأمير ميشكين ، وستافروغين ، وإيفان كارامازوف ، كما صورهم دو ستويفسكي .

ومع ذلك ، يظهر الكاتب في الموضوع ، سواء بواسطة استعادة الماضي أو بواسطة تقلبات الأحداث القادمة ، كيف تتكون « الفكرة » العامة عند البطل ، وبتأثير أية ظروف حياتية ، والأسباب التي تستدعي تقلبات البطل وكارثته . في « الجريمة والعقاب » ، ينفتح أمامنا ماضي راسكولنيكوف في « حلمه » الرمزي ، الذي يرسم انطباعات طفولته ، وفي مشهد حديث غاوض يدور بين طالب وضابط ، يسترق إليه السمع راسكولنيكوف في الحانة ، وفي رسالة إلى أمه ، وأفكاره حول الأسرة ، وفي ذكرياته عن حبه الأول « كان نوعاً من جنون الربيع » وأخيراً في أثناء التحقيق القضائي ( في الخاتمة ) .

وفي الوقت نفسه ، فإن تقلبات الموضوع ذاتها في الرواية ، التي ترسم الذل الاجتماعي والأخلاقي المتناهي للإنسان – قصة آل مارميلادوف ، قصة دونيا ، فتاة الشارع تثير في نفس راسكولنيكوف مشاعر متناقضة : فالحياة نفسها لاتدفعه إلى طريق العصيان الفردي فحسب ، بل وتعرض عليه أيضاً نماذج من التفاني ، ونكران الذات ، والنبل الروحي .

وبالنتيجة ، تنبعث شروط موضوعية إلى درجة كافية في حياة البطل ، تحدد تناقض بواعثه الروحية وطابع فكرته الثابتة ، المسيطرة . ويمكننا القول ، بأن التناقضات الموضوعية للحياة ذاتها تتجسد في الأبطال الرئيسيين لروايات دوستويفسكي ، المولعين بفكرة تأكيد الذات . إن « فكرة » البطل هي حصيلة تفكيره وتأملاته في جوهر هذه

E. Wasiolec : on the Structure of « Cvime and punishment (١) PMLA, 1959, Vol, LXXIV, No I, p. 132 .

التناقضات وتنقيباته عن مخرج من الموقف الحياتي المؤلم الذي لايطاق. والعالم الداخلي للبطل، مع كل غرابة أطواره وانحرافاته المرضية، هو حصيلة التناقضات الموضوعية، ووليدها العضوي وفي اندماج العالم الداخلي للأبطال واندماج تصرفاتهم ودوافعهم الروحية بظروف الحياة، المحيطة يكمن سر تلك الحرية،حرية «أصوات» الأبطال، عندما ينشأ الموضوع الفلسفي ويتطور، وكأنه آت من الأعماق البنيوية للرواية مباشرة، دون أي تدخل من جانب الكاتب.

وعلاوة على ذلك، ومع ما يبدو من موضوعية قصوى خارجية في رواياته «متعددة الأصوات»، يبرز دوستويفسكي دائماً «كقائد» (حسب تعبير لونا تشارسكي) («كورس شخصياته وأبطاله. ان تصور الكاتب عن الحياة ونظرته الخاصة الى العالم لا تعبر عنهما التفسيرات المباشرة للراوي، بل يعبر عنهما كل من التقويم الفكري — العاطفي،المتعدد الجوانب، لسلوك الأبطال (تراجيدي وعاطفي، هجائي أو هزلي)، والمبالغة الروائية والسيكولوجية («كالأحلام» الرمزية للأبطال، و«تمزقاتهم» السيكولوجية الأليمة)، والاتجاه الخاص للاستبطان introspection السيكولوجي، الذي يصف الحالة النفسية للشخصية، وخصائص منظر المدينة، ووصف المظاهر الداخلية، وتشبع رواياته بالمواضيع الفلسفية. ومن النادر جداً أن يكون السرد في روايات دوستويفسكي محايداً، فهو انفعالي مثير، وكأنه مكهرب من الداخل حيث تكتسب فيه أكثر الظواهر عادية ويومية مغزى مؤثراً عميقاً. فترمز أوراق الأشجار، الربيعية اللزجة، الايفان كارامازوف، إلى جوهر الحياة كلها، بجمالها الآسر المخدر. كما أن الشمس الهادئة اللامبالية، التي تشرق حتى بعد ارتكاب راسكولنيكوف لجريمته، وبعد انتحار (إيبوليت) وبعد الموت «الهادئ»، تلك الشمس التي يتوجه أبطال دوستويفسكي المتمردون بندائهم إلى عظمتها الباردة — هي موضوع عميق متعدد المعاني.

يتضح موقف المؤلف على أوضح صورة في خاتمة رواياته الفلسفية — الاجتماعية («الجريمة والعقاب»، و«الأخوة كارامازوف») أو في نهايات رواياته الأخرى («الأبله»، «الشياطين»، «المراهق»).

لقد ورد في كتب النقد الأدبي أكثر من مرة، رأي مفاده أن الخاتمة في روايات دوستويفسكي هي شيء «مصطنع ومضاف بمهارة»(١) إلى جسد مؤلفاته، الحي. فالباحث

---

(١) د. س. ميريجكوفسكي «المؤلفات الكاملة» ج ١١ ص ١٧٢ موسكو ١٩١٤.

الروسي ف . شكلوفسكي ينظر في كتابه عن دوستويفسكي نظرة انتقادية ممتدة إلى الخاتمة والنهايات عند دوستويفسكي عموماً(١) ، دون أن يحلل خاتمة رواية « الجريمة والعقاب » .

إن من الصعب أن نوافق على مثل هذه الأحكام . لأن فكرة الكاتب ، والإشكالية الفلسفية – الاجتماعية في روايات دوستويفسكي لا يمكن فهمهما بصورة كاملة ، إلا بالارتباط بالخاتمة(٢) فالخاتمة ( في الروايات التي تصور « البحث » الأخلاقي للبطل ) – هي جزء عضوي لا يتجزأ من البنية الروائية كلها ، وفيها تكتمل مسألة الرواية الفلسفية ، وبنتيجة ذلك ، تنشأ منظومة فنية مغلقة نسبياً .

لقد ظهرت في بنية روايات دوستويفسكي ، بخاتماتها أوبنهاياتها ، الخصائص العامة للأسلوب الروائي في الأدب الروسي لذلك العصر .

إن الروايات الروسية الواقعية في الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر ، كان لها عادة نهايات « مفتوحة » : حيث يمكن لأحداث الموضوع أن تستمر في حلقة من « الوقائع » الجديدة في حياة البطل . وهذا مانجده في قصة بوشكين الشعرية ( يفغيين أونيغين ) وفي قصة ليرمانتوف « بطل من هذا الزمان » . وقد طور دوستويفسكي في رواياته التي كتبها في الأربعينات « الفقراء » ، أو « الليالي البيضاء » ، مبادئ روائية أخرى ( اتصفت بها قصص بوشكين ) بانياً الموضوع حول حادث واحد من حياة البطل ، غير أنه التزم بالنهاية « المفتوحة » من الناحية الشكلية .

وفي الستينات والسبعينات ، أخذت الرواية الروسية تكتسب أشكالاً أضيق ، وأكثر انغلاقاً . فقد اتصفت روايات غانتشروف « أبلوموف » ، وتورغينيف « في اليوم السابق » ،

---

( ١ ) « إن وجود مايدعى بالخاتمة في الرواية يظهر أن الكاتب كثيراً مايلجأ إلى إتمام عمله إلى النهاية وذلك بالذات ، لأن عمله غير منته ، وغير منجز ومكتمل » ( ف . شلكوفسكي : « مع وضد ملاحظات حول دوستويفسكي » موسكو ١٩٥٦ ص ١٧٦ ) .

( ٢ ) أفضل مثال على ذلك د . ميرجكوفسكي ذاته ، فمع استخفافه بأفكار خاتمة رواية « الجريمة والعقاب » ، أكد بأن « الاستنتاج الأخلاقي الأخير الذي يتوصل إليه دوستويفسكي نفسه من المأساة كلها » يكمن في كلمات راسكولنيكوف : « إن ضميري مطمئن » ( أنظر د . ميرجكوفسكي . المؤلفات الكاملة . ج ١١ ص ١٧٤ ) .

و « الآباء والأبناء » ، ومن ثم رواية سالتيكوف — شدرين الانتقادية « السادة غولوفيوف » — امتازت هذه الروايات باستنفاد الفعل في الموضوع من جميع جوانبه ، وبالقصد المكشوف في خاتمة الموضوع . حيث يسمع بصورة أوضح ، صوت المؤلف ، المقوم ، في الخاتمات ، وتوضع النقاط الأخيرة على الحروف .

ولكن ، لوحظ في السنوات نفسها ، طراز جديد من الرواية ، تكشف فيه الخاتمة أفق الحياة الجديدة للأبطال ومستقبلها ، ( مثل رواية تشرنيشفسكي « ما العمل » ، وتولستوي الحرب والسلام » ) . وإلى هذا الطراز بالذات ، تنتسب رواية دوستويفسكي ، التي تشير إلى حياة الأبطال ، الجديدة بعد الكارثة .

وبالإضافة إلى ذلك ، فالخاتمة في رواية دوستويفسكي لها دور بنيوي لا يستهان به بالنسبة لأحداث الموضوع كله ، لتيجة لتشرب الرواية بشكل فريد بالإشكالية الفلسفية ( وهذا يميز بصورة خاصة ، رواية « الجريمة والعقاب » ) . فنتيجة لانهيار قناعات البطل ، السابقة تبرز بصورة أكمل ، دينامية تطور عالمه الداخلي ، وجوهر أبحاثه الروحية — الأخلاقية ، كما أن الخاتمة هامة إلى أبعد الحدود ، من أجل فهم التصور الفكري العام في روايات دوستويفسكي ، وإدانة الكاتب الشديدة للنزعة الفردانية البورجوازية والثقة التي لاتتزعزع بانتصار المبادئ الإنسانية العامة .



٥

سنتوقف الآن بشيء من التفصيل على بنية « الجريمة والعقاب » ، أول رواية فلسفية — اجتماعية من روايات دوستويفسكي .

لقد أشار النقد الأدبي أكثر من مرة ، إلى تفرد وتميز الأحكام والحلول التأليفية في « الجريمة والعقاب » بالمقارنة مع الرواية البوليسية — الجنائية التقليدية ( كرواية بولفير ليتون(١) « يوجين إيرام » وورواية إيجين سو(٢) « أسرار باريس » ، وورواية كريستوفسكي

(١) بولفير ليتون Bulwer Litton (١٨٠٣—١٨٧٣) روائي ورجل دولة انكليزي ، ولد في لندن . وهو مؤلف « آخر أيام بومباي » — المترجم —

(٢) إيجين سو Eugeresue كاتب فرنسي ( ١٨٠٤ — ١٨٥٧ ) ولد ولد في باريس من أهم رواياته « أسرار باريس » .

« أحياء بطرسبورغ الفقيرة » وغيرها ) حيث يقوم الموضوع على حل السر الجنائي ،وحيث يشكل الحدث ، وليس ، الإنسان ، بطل الرواية الرئيسي(١) .

وليس من باب الصدفة ، أن يلاحظ هذا الباحث ، العارف بدوستويفسكي خير معرفة ، وهو ( ل . غروسمان ) ، في شاعرية « الجريمة والعقاب » آثار أدب المغامرات والجنايات الفرنسي ( روايات إيجين سو ، وف . سولي ، وبول دوكوكا . ) .

وبالفعل ، فدوستويفسكي ، بخلقه موضوع « مغامرات » ممتع ، ومواقف درامية مؤثرة ، لايخرق في روايته بعض تقاليد الرواية البوليسية . وهذا ، على سبيل المثال ، مشهد القتل : قدوم إيليزافيتا بصورة مفاجئة ، وظهور الراهنين ، وقرع الجرس بصورة رهيبة فوق رأس راسكولنيكوف – وإنه مشهد يثير إعجاباً مستمراً لدى الدارسين .

ودوستويفسكي ، كسابقيه من ممثلي « الرواية الجنائية » ، يقود القارئ إلى جو من الأسرار والغموض ، والشعور المتوتر بالكارثة ، والحدث القدري غير المتوقع . وهاهو ذا راسكولنيكوف يتحدث – دون أن يدري هو نفسه – إلى سفيدريجايلوف بصدد ماقاله الأخير عن الأشباح : « لماذا كنت أقدر أنه لابد أن يكون قد حدث لك شيء من هذا القبيل ! » ( الجزء الخامس ص ٢٩٧ ) . إن أبطال دوستويفسكي « يحصل » معهم دائماً ، شيء ما . الكاتب مهتم بالتحقيق والتحري عما يحصل معهم .

وقد أكد أحد النقاد المعاصرين ، متجادلا بصورة خفية ، مع غروسمان ، حول تأثير الرواية البوليسية – الجنائية الفرنسية في الاربعينات ، على دوستويفسكي – أكد بأن ما جلب اهتمام الكاتب الروسي « هو الجانب السيكولوجي الأخلاقي من موضوع الجريمة ، وليس جانب المغامرات فيها »(٢) .

إن هذا القول صحيح إلى درجة معينة ، ولكن من المستبعد أن تكون ثمة ضرورة تدعو إلى مثل هذه المعارضة الحادة بين « جانبي » الموضوع .

ومن المشكوك فيه أن نجد في رواية « جنائية » أخرى مثل هذه المبارزة السيكولوجية

---

( ١ ) أنظر ل . غروسمان « شاعرية دوستويفسكي » موسكو ١٩٢٥ ص ٢٠ – ٤٣ .

( ٢ ) غ . فريدلندر « واقعية دوستويفسكي » ص ١٣٥ موسكو – ليننغراد ١٩٦٤

الحادة بين قاضي التحقيق والمجرم ، كما هي في رواية دوستويفسكي . وليس من باب الصدفة أن « الجريمة والعقاب » ما زالت موضع اهتمام كبير من جانب الحقوقيين ورجال القضاء في جميع أنحاء العالم . كما أن مبادىء التحليل النفسي ذاتها لدى دوستويفسكي ، التي تشبه إلى حد ما ، حل المعضلة الجنائية ، ذات دلالة بعيدة وأهمية كبيرة . فمن الملاحظة الخارجية ، التجريبية البحتة لسلوك بطله ، يتجه الكاتب إلى تحليل وإظهار البواعث والحوافز الاجتماعية التي دفعته إلى الجريمة ، ومن ثم يبحث في الأسباب الأيديولوجية والفلسفية التي تكشف عن الطبيعة المحددة للإثم والجريمة .

وبالنتيجة ، تنتشر أمامنا حياة الإنسان بتشابكها وتعقيداتها ، وبجميع مظاهرها اليومية العادية المألوفة ، كما تبدو للعيان،وظواهرها الرئيسية الجوهرية ، من اجتماعية وتاريخية وايديولوجية وفلسفية . ولكن ، ومع كشفه عن جوهر الحياة الإنسانية ، واكتشافه « الإنسان في الإنسان » بصورة عميقة ، يحافظ دو ستويفسكي على الاعتدال والاندفاع في بنية رواياته ، متجنباً البعد الزمني والمكاني الواسع الذي نجده في أدب تولستوي، الملحمي . كما أنه بعيد عن تأخير الحدث في العالم العقيق السيكولوجي المضخم ، الذي يميز أدب التحليليين – التحديثيين في القرن العشرين ( مثل بروست ، وجويس ) .



إن دو ستويفسكي له مبادئه الخاصة في التأليف والكتابة ، التي اقتبس بعضها وبصورة جزئية ، من الكتاب الرومانسيين ، وحتى من كتاب المقالات الهجائية في القرن التاسع عشر . ولننظر الآن بامعان ،إلى بنية روايته « الجريمة والعقاب » .

فالجزء الأول من الرواية – هو وصف لحالة راسكولنيكوف الروحية قبل ارتكاب الجريمة . وبصورة عامة ، هو عرض مؤثر متوتر للفعل القادم . حيث يشرع راسكولنيكوف باجراء « تجربة » على « مشروعه » الذي خطط له مسبقاً .

يؤكد الكاتب أكثر من مرة ، بأن « هذا » المشروع قد عزم عليه منذ شهر . يقول ( راسكولنيكوف ) مفكراً : « لقد تعلمت ، في الشهر الأخير ، الثرثرة ، قابعاً في ركني أفكر . . . أفكر في كل شيء ولا أفكر في شيء ، ولكن ، فيم أذهب الآن إلى هناك ؟ وهل أنا قادر على أن أفعل « ذلك الأمر » ( الجزء الخامس من المؤلفات ص ٦ ) .

ويشرح المؤلف حالة بطله قائلا : « والآن بعد انقضاء شهر على ذلك الأوان ، فقد أخذ يرى الأمور رؤية مختلفة . . . . . وهو الآن ذاهب لاجراء « تمرين » على

ذلك الفعل . . . . » ( الجزء الخامس ص ٨ ) ، وذلك دون أن يكشف ماهو هذا « الفعل » ، وهذا « التمرين » ، واضعاً بذلك القارىء في أكثر التوقعات لهفة وتوتراً .

ولكن بالتدريج ، ونتيجة لأفكار راسكولنيكوف التشنجية هذه،وتلميحات الكاتب وإشاراته ، وخصوصاً ، نتيجة لوصف سلوك راسكولنيكوف في غرفة المرابية العجوز ، حيث يتأمل راسكولينكوف بانتباه ، كلما تفاصيلها وجوانبها ، وكأنه يحاول حفظها، يدرك القارىء موضوع الحديث . وتمضي هذه التلميحات ، نصف المبهمة ، التي تعذب القارىء، تمضي وتستمر متنامية متزايدة ، خلال الفصول الخمسة من الجزء الأول ، ولا يفسرها الكاتب إلا في الفصل السادس . حيث يروي دوستويفسكي ( وهنا أيضاً بصورة غير كاملة ) ماحدث منذ شهر ونصف : زيارة راسكولنيكوف الأولى للمرابية ، تلك الزيارة التي ولدت في رأسه « الفكرة الغريبة » ، وحديث الطالب إلى الضابط ، ذلك الحديث الذي سمعه راسكولنيكوف في « حانة رخيصة » ، والذي عزز فكرة قتل العجوز في وعيه .

وهذا التفسير من جانب المؤلف لا يعيد للأحداث تتابعها فحسب ، بل ويكمل أيضاً تلك الحلقة من الانطباعات الثقيلة المرهقة ، التي تكونت لدى القارىء ، ويطرح أمامه مسائل وقضايا تخرج عن نطاق رواية المغامرات ، الجنائية التقليدية . إن تشابك دوافع جريمة راسكولنيكوف يتغلغل إلى أعماق الرواية ، ولا يخسر هذا التشابك والغموض إلا في الجزء السادس من الرواية حيث يفسر راسكولنيكوف لصوفيا ، كيف يدرك هو نفسه هذا الأمر ، وهو ذاته يرتبك ويتشوش تاركاً نفسه والقارىء معاً دون تفسير نهائي . وهكذا يستخدم دوستويفسكي موضوع المغامرات الجنائي في بناء روايته النفسية — الاجتماعية العميقة الفذة .

وخلافاً للرواية البوليسية التقليدية ، التي يكتشف فيها المحققون أسرار الجريمة واحداً إثر آخر ، تختفي في رواية دوستويفسكي متعة «المغامرة» أمام الكارثة المزاحفة والمتفجرة ، التي تداهم الإنسان . ولهذا ، فالبطل نفسه بتصرفاته وسلوكه ، يخلق منعطفات في موضوع الرواية ، تولد مشاهد انفعالية متوترة مثيرة ، مشبعة بالتوقع الداخلي والترقب العميق . ومن هذه المشاهد : مشهد غيبوبة راسكولنيكوف في قسم الشرطة ، ومشهد لقائه مع زاميتوف في حانة « قصر الكريستال » ، وزيارة شقة المرابية المغتالة ، ولقائه مع البائع « رجل السرداب »،و« الشبح » ، ومشهد الاستجواب الثاني لرا سكولنيكوف

الذي يجري في ترقب متوتر لـ « المفاجأة » ، ونهايته غير المتوقعة من كلا الجانبين ، وهي اعتراف ميكولكا . إن هذه المشاهد والمقاطع جميعها ، مثيرة بصورة فريدة ، من حيث حدة انفعالات البطل ، ومليئة بالمأساوية الداخلية ، التي تثير اهتمام القارىء ، الكبير بمصير راسكولنيكوف . وبهذا الشكل الفريد ، حول دوستويفسكي أساليب القصة البوليسية الجنائية إلى موضوع لروايته الفلسفية – الاجتماعية .

إن جميع أحكام دوستويفسكي التركيبية التأليفية في الرواية ، خاضع لمهمة دراسة العالم الداخلي لشخصية البطل الرئيسي . ويجري سرد الأحداث إما في ضوء إدراك البطل لها أو باسم المؤلف ، ولكن بحضور البطل . ولا يغيب راسكولنيكوف عن القارىء إلا في بعض المشاهد القليلة المتفرقة . وعلى وجه التحديد ، في الفصلين الأول والثاني من الجزء الثالث ، حيث يرسم دوستويفسكي شخصية رازوميخين . ثم في بداية الفصل الثالث من الجزء الرابع ، حيث يقدم المؤلف تفسيره لسلوك ( لوجين ) ، والفصل الأول من الجزء السادس حيث نجد لوجين وليبيز ياتنيكوف قبل الذهاب إلى مأدبة الجنازة ، وبداية الفصل الثاني من الجزء السادس ، الذي يرد فيه « تفسير ضروري » من جانب المؤلف حول الأسباب التي دفعت بـ كاترينا إيفانوفنا إلى إقامة هذه « المأدبة الجنائزية السخيفة » ، وأخيراً نهاية الفصل الخامس والفصل السادس بكامله من الجزء السادس وفيهما يرد حديث دونيا الحاسم مع سفيدر يجايلوف وليلته الأخيرة .

وهكذا ، فباستثناء المشهد الأخير ، يغيب راسكولنيكوف عن الرواية في تلك الفصول ، التي يضطر المؤلف فيها إلى تقديم تفسيره لأحداث هامة وقعت أو على وشك الوقوع .

. ومع هذه البنية « المكثفة » المتركزة للموضوع ، فإن عدد أشخاص الرواية ليس كبيراً ، وهم جميعاً يرتبطون بالبطل الرئيسي ارتباطاً مباشراً . بيد أن الرواية تقدم لنا تصويراً واسعاً ، متعدد الجوانب للواقع ، بفضل إدخال العديد من « المشاهد الدقيقة » و « المادية » من حياة المدينة ، ومناقشة أشخاص الرواية لآخر الأنباء ، والإشاعات وما شابه ذلك ، وهذا مايخلق إشباعاً فريداً لنسيج الرواية الفني ، بالأحداث والوقائع . والبطل الرئيسي يقع عليه العبء الأكبر في موضوع الرواية ، كما هو الأمر في روح الرواية الفنية وجوهرها ، حيث يبرز البطل الرئيسي ، كحلقة وصل رئيسية ، وكمحور ارتكاز يربط بين جميع المشاهد و« الأصوات » المتعددة .

هذه هي البنية الداخلية التركيبية لـ « سير الحياة ، العاصف » في رواية دوستويفسكي .

ليست لدى دوستويفسكي أوصاف محايدة مستقلة ، ولا خلفية خارجية جامدة ، رغم أن دوستويفسكي قد صور الأخيرة بدقة وثائقية أرشيفية . فالعالم الخارجي المادي في مؤلفات دوستويفسكي ، يقع في حالة من الوحدة الدينامية المتحركة مع عالم أبطاله الداخلي .

ويتم التوصل إلى طبيعية السرد وترابطه العضوي بفضل بروز المدينة في رواية دوستويفسكي ، كوسط نشيط ، يؤثر على تشكل حركات الإنسان وتحولاته النفسية .

وقد لوحظت مبادىء التصوير الأدبي هذه عند دوستويفسكي منذ العقد الرابع ، وظهرت بصورة واضحة في رواية « الليالي البيضاء » .



إن بطل هذه « القصيدة البطرسبورغية » النثرية ، وبسبب كونه وحيداً ، قد حمل في ذاته ، عالماً كاملا من التخيلات والأوهام المشرقة والبهيجة . والعالم الداخلي لهذا الإنسان الحالم هو عالم منسجم هارموني ، غير أنه مأخوذ باشراقة المثل الأعلى .

والمدينة ليست غريبة عنه ، فهي تشكل جزءاً لا يتجزأ من العالم الداخلي المتناسق للبطل .

إن راسكولنيكوف هو أيضاً حالم ، وحيد، منعزل ، من المدينة ، لكنه حالم من نموذج آخر . فهو إنسان العقد السادس ، وقد مر عبر آلام الشكوك واليأس ، وفقد ثقته في المثل الأعلى المشرق ، وعانى علقم الذل الاجتماعي . لقد رأى راسكولنيكوف في الظواهر الرهيبة للحياة اليومية « مغزى أسمى » يؤكد مقاصده الهذيانية . إنه ليس وحيداً بصورة عادية ، بل وحيد بصورة مأساوية . ومع ذلك ، فهو لا يستطيع العيش بدون ناس ، في ذلك الانفصال الرهيب عنهم الذي يلاحقه مثل ظله بعد ارتكابه الجريمة . غير أن عزلته الداخلية هي انعكاس لفوضى العالم الخارجي وعدم انسجامه . لذا كان عالم راسكولنيكوف الروحي يجد أصداءه ، ويجد إيقاعه وانسجامه في حياة أزقة بطرسبورغ ، وفي الأجواء الداخلية البائسة للحانات والزوايا ، حيث يعيش أبطال الرواية .

وهاكم وصف غرفة آل مارميلادوف ، الذي يميز الرواية :

« في أعلى السلم كان باب صغير مدخن مفتوحاً . وكانت هناك بقية شمعة تضيء

أفقر غرفة في المسكن ، طولها عشر أقدام . إن المرء يرى الغرفة كلها من فسحة السلم . إن فوضى قصوى تسودها ، وإن أشياء لا حصر لأنواعها ملقاة على أرضها ، ولا سيما أسمال أطفال . وفي ركن من الغرفة هو آخرها تقريباً ، قد شد « شرشف » مثقب لعل وراءه سريراً . ولم يكن في الغرفة إلا كرسيان ، وأريكة خاسفة منجدة بقماش مشمع بال رث ، أمامها مائدة مطبخ عتيقة من خشب الصنوبر ليست مدهونة ، وليس لها غطاء . وفي آخر المائدة كانت بقية شمعة توشك أن تذوب كلها ، قدغرست في شمعدان من حديد . » ( الجزء الخامس من المؤلفات ص ٢٨ ) .

قد يبدو الوصف محايداً موضوعياً . أما الواقع ، فإن هذا كله ، وعلى هذه الطريقة بالذات ، يراه راسكولنيكوف ، الممعن نظره بانتباه .

ولعل الملاحظة التالية ، متميزة وهامة أيضاً : « إن جميع هذه المظاهر تشير إلى أن مارميلادوف لا يحتل في هذا المسكن ركناً من أركانه ، بل غرفة مستقلة هي في الواقع ممر أو دهليز » ( الجزء الخامس ص ٢٨ ) . ثمة في هذا الوصف تفصيل جزئي ، يترك انطباعاً باليأس والقنوط والبؤس الرهيب : « الشرشف » المثقب ، الذي شد في الركن الأخير من الغرفة . لقد سعى دوستويفسكي عن وعي وتصميم ، إلى الوصول إلى هذا الانطباع بمثل هذا الوصف ، وهذا مايثبته اهتمامه الكبير به وتعديله إياه .

في بادىء الأمر ، نقرأ الوصف التالي لغرفة آل مارميلادوف في مخطوط دوستويفسكي : « في أعلى السلم كان باب صغير أسود مفتوحاً . وكانت هناك بقية شمعة تضيء أفقر غرفة في المسكن . إن فوضى قصوى تسودها ، وإن أشياء لا حصر لأنواعها ملقاة على أرضها ، ولا سيما أسمال أطفال . إن المرء يرى الغرفة كلها من فسحة السلم . وفي ركن من الغرفة هو آخرها تقريباً ، قد شدت ستائر لعل وراءها سريراً . ولم يكن في الغرفة إلا كرسيان ، وأريكة خاسفة منجدة بقماش مشمع بال رث ، أمامها مائدة مطبخ عتيقة من خشب الصنوبر ليست مدهونة ، وليس لها غطاء . وفي آخر المائدة كانت بقية شمعة توشك أن تذوب كلها ، قد غرست في شمعدان من حديد . » (١) .

أما في النص النهائي ، فقد وضع الكاتب « باباً مدخناً » عوضاً عن « باب أسود » ،

---

( ١ ) مفكرة الكاتب الثانية حول « الجريمة والعقاب » ضمن كتاب : دوستويفسكي « الجريمة والعقاب » دار العلم موسكو . ١٩٧٠ ص ٥٢٠

و « شرشفاً مثقباً » بدلا من « الستائر » . وهذا التصحيح ، كما نرى، يعزز انطباع البؤس الرهيب ، الذي لا يمكن إصلاحه ، والذي استنتج راسكولنيكوف مفهومه العام من حديث مارميلادوف .

كما أن ثياب أطفال آل مارميلادف قد وصفها دوستويفسكي بالقدر نفسه من التفاصيل والجزئيات الدقيقة :

نقرأ في مسودة مخطوط الكاتب مايلي : « أما البنت الكبرى ، وهي طفلة في نحو التاسعة من العمر ، طويلة نحيلة كعود ثقاب . وكانت البنت واقفة في الركن تضم إليها أخاها الصغير ، وتحيط عنقه بذراعها الطويلة النحيلة . يبدو أنها كانت تحاول أن تسري عنه ، فهي تكلمه بصوت خافت جداً ، رجاء أن لا يستأنف بكاءه ، ولكنها كانت في الوقت نفسه تتابع أمها وقد امتلأت رعباً ، تتابعها بعينيها الواسعتين القاتمتين ، اللتين تبدوان واسعتين مزيداً من السعة في هذا الوجه الهزيل المرتاع ، واللتين تحويان الكثير ، بحيث يأخذ الرعب من الإنسان كل مأخذ عندما يقرأ في عيني فتاة في التاسعة من العمر ، هذا كله . » (١) .

أما في النص النهائي ، فقد حذف دوستويفسكي القسم الأخير من الجملة ، وربما لأنه جلي للعيان أنه صادر عن المؤلف . وعوضاً عن الجملة العامة « كان الأطفال جميعهم يرتدون أسمالا بالية » ، وصف دوستويفسكي بالتفصيل ثوب البنت الكبرى :

« أما البنت الكبرى » وهي طفلة في نحو التاسعة من العمر ، طويلة نحيلة كعود ثقاب ، فكان كل مايكسوها قميصاً رديئاً قد تمزق وتخرق في كل ناحية ، هو رداء عتيق من جوخ السيدات قد ألقي على كتفيها العاريتين ، ولعله كان يناسب حجم جسمها منذ سنتين ، أما الآن فهو لا يكاد يصل من قامتها إلى الركبتين . وكانت البنت واقفة في الركن تضم إليها أخاها الصغير ، وتحيط عنقه بذراعيها الطويلة النحيلة . يبدو أنها كانت تحاول أن تسري عنه ، فهي تكلمه بصوت خافت جداً ، رجاة أن لا يستأنف بكاءه . . . » ( الجزء الخامس من المؤلفات ص ١٨ ) .

إن دقة الوصف ، الخارجية ، القريبة من دقة التصوير الفوتوغرافي ، تعدد ذلك

( ١ ) مخطوطات دوستويفسكي ، المحفوظة في مكتبة لينين في موسكو ، قسم الوثائق .

الانفجار ، انفجار السخط ، الذي يغلي في روح راسكولنيكوف . وهذا « الرداء العتيق من جوخ السيدات » الذي ألقي على كتفي الطفلة – هو القطرة الأخيرة التي يتحطم الكون كله تحت ثقلها . . .

وينتهي المشهد بحوار ذاتي فلسفي يرد على لسان البطل : باستغراقه في تفكير مقلق مزعج ، هل « الإنسان سافل » أم غير سافل . ( وثمة بنية مشابهة ، إلى حد ما ، استخدمها الكاتب في الأخوة كاراماز وف » : حيث تثير « وقائع وأحداث » من التاريخ الروسي « عصيان » إيفان وتمرده على « عالم الآلهة » ) .

إن موضوع استحالة تقويم الجبن الإنساني بمدلول واحد يبدأ بالظهور منذ حديث مارميلا دوف عن صونيا . واعترافه أملته إلى حد كبير ، الحاجة إلى « المعاناة » و « تعذيب النفس » بسبب ذنبه ، وهو ليس مسؤولا عنه بصورة مطلقة ، بل لمجرد أنه لم يتحمل ، وهو مخنوق بالظروف القاهرة – « احتك » وعام في التيار . وعندما يسأل مارميلا دوف راسكولنيكوف قائلا : « هل تستطيع ، بل يجب أن أقول ، هل تجرأ أن تؤكد حين تتأملني في هذه اللحظة ، أنني لست خنزيراً ؟ » و « لم يجب الشاب بكلمة » ( الجزء الخامس ص ١٨ ) .



وإلى جانب موضوع السقوط الإنساني و « السفالة » ، يبدأ في التردد في قصة مارميلا دوف ، موضوع آخر ، أشد قوة ، هو موضوع تفاني الإنسان ونكرانه لذاته ، والشفقة ( التي اتضح بأنه حتى مارميلا دوف قادر على الشعور بها ) ، ومأثرة صونيا الأخلاقية ، التي تقدم للقارىء في التصورات الانجيلية لمارميلا دوف ، المذل إلى أقصى الحدود : « نظرت إلي لا كما يكون النظر في هذه الحياة الدنيا ، بل في الحياة الأخرى ، في السماء ، حيث لا يوقظ الأشقياء في القلوب إلا عاطفة الشفقة ، حيث يبكي الناس على هؤلاء الأشقياء دون أن يوجهوا إليهم كلمة تقريع ! وحين لا يقرعك أحد ، فإنك تشعر بألم أشد وعذاب أقوى . . » ( الجزء الخامس ص ٢٦ ) .

ولا شك بأن قصة آل مارميلا دوف تثير في روح راسكولنيكوف ، الذي انتهى للتو من إجراء تجربته الأخيرة ، عاصفة من العواطف والمشاعر . كما أن اتكال الموظف السكير ، المسالم على العدالة العليا ، السماوية ، عدالة « من يدرك كل الناس وكل ما في الدنيا » يتطلب جواباً . غير أن دوستويفسكي لا يدخل « الصوت الموازن » بصورة مباشرة . حيث يأتي أولا ، تطور موضوع مار ميلا دوف ، ووصف أسرة مارميلا دوف

وغرفتها . وهذا يعني ، من حيث الجوهر ، تغلغل البطل ونفوذه ، بصورة أعمق ، إلى موقف اليأس التراجيدي المأساوي ، الموجود أمامه . إن الوصف الهادىء ، الثابت « الطبيعي » ، الخالي من أي تعبير مكثف ، يهيء انفجار العواطف المقبل : حيث يظهر في البداية بصورة بسيطة ومباشرة : انفجار مشاعر كاترينا إيفانوفنا المريضة والمعذبة إلى أقصى حد ، ومن ثم ، وكخاتمة للموضوع ؛ تعميم راسكولنيكوف ، الفلسفي المجمل ، المعارض بصورة مباشرة ، لـ « فكرة » قصة مارميلادوف .

يبدأ حوار البطل ، الذاتي الداخلي بموضوع ساخر متميز ( « على صونيا الآن ، أن تعتني بنفسها ، وأن تهتم بنظافتها . والنظافة ، تلك النظافة ، تكلف نفقات كثيرة ، هل تفهم ؟ هناك دهون يجب أن تشتريها ، وأحمر الشفاه . . . » ) . وخلف هذه النظافة يختفي الاستياء العصبي من السفالة البشرية ، وينتقل هذا الاستياء تدريجياً ، إلى عصيان وتمرد على ضعف الإنسانية كلها واستكانتها وخضوعها .

« يقول راسكولنيكوف محدثاً نفسه : « آه . . . نعم ياصونيا ! . . . يالك من منجم اكتشفوه ! ويالها من فوائد يجنونها منه ! . . . ذلك أنهم يجنون من هذا المنجم فوائد ! لقد اعتادوا أن يستفيدوا منه وأن ينتفعوا به ! بكوا في أول الأمر ثم ألفوا وتعودوا . إن الإنسان يعتاد كل شيء . ياله من حقير »



ثم فكر . فإذا هو يصيح قائلا رغم إرادته على حين فجأة : « ماذا لو كنت على ضلال ! ماذا لو لم يكن الإنسان في حقيقة الأمر حقيراً . . . أعني الإنسان عامة ، أعني النوع الإنساني . . . سيكون معنى ذلك أن الباقي « كله » ليس إلا أوهاماً ، ليس إلا مخاوف خيالية باطلة ، وأنه ليس هناك أي حد ينبغي الوقوف عنده . نعم ، ذلك ما يجب ! » ( الجزء الخامس من مؤلفات دوستويفسكي ص ٣١ ) .

وهكذا ، فإن الخط الاجتماعي ، ، العادي ، اليومي ، « المادي » للتصوير الفني ينتقل تدريجياً إلى منهج للتأملات الفلسفية حول غاية الإنسان ورسالته . « لا توجد أية حدود أو حواجز » — هذه بادرة لفكرة راسكولنيكوف حول الحق في « تجاوز بعض الحدود » ، ومن ثم بادرة للنظرية الكارامازوفية ( نسبة إلى كارامازوف ) « كل شيء مسموع » .

وبهذا الصدد ، لا بد من تحديد الخاصة البنيوية الرئيسية لرواية دوستويفسكي ،

الفلسفية – الاجتماعية ، التي يقصرونها عادة ، على وجود « فكرة » البطل الرئيسي ، الفكرة التي تشكل أساس البنية والتركيب في العمل الأدبي .

إن هذا تحديد صحيح ، لكنه ناقص ، لبنية رواية دوستويفسكي ، من حيث كونها رواية فلسفية – اجتماعية . ولا يقل أهمية عن ذلك ، أن نفهم شيئاً آخر ، هو ارتباط « فكرة » البطل بالظروف والأحوال الاجتماعية – اليومية ، الموضوعية التي يعيشها البطل ، وتشكل جزءاً من حياته .

ويطمح دوستويفسكي ، بعدم تصويره لعمليته تكون « الفكرة » أو « النظرية » عند البطل ، إلى إظهار عملية انحلالها وسقوطها ، ودحضها من جانب الحياة نفسها ( موضوع الحديث هنا « الأفكار » الفردية المغرقة عند راسكولنيكوف ، وايبوليت ، وإيفان كارامازوف ) – وتفضح « فكرة » البطل للاختبار العملي في الحياة ( وهذا ينطبق على حاملي أفكار المشاركة في الألم والرأفة المسيحية – مثل صونيا ، وميشكين ، وأليوشا كارامازوف ) .

إن المعارضة في روايات دوستويفسكي ، لا تأتي من « أصوات » الأبطال ، الفلسفية ، بل من شخصيات الأبطال ، بكامل وجودهم وسلوكهم الاجتماعي . ولهذا تجري ، في العالم الداخلي للبطل ، المعبر عن هذه « الفكرة » أو تلك ، الإطاحة بالنظرية و« بالفكرة – العاطفة » وبـ « طبيعة » دوافع الإنسان الحية اليومية ( وهذا لا يقتصر على ما يجري في وعي المنظر راسكولنيكوف ، فصير النزعة الفردانية فحسب ، بل ويشمل مايجري أيضاً في وعي « الإنسان الإيجابي الرائع » و الأمير ميشكين ، وعي أليوشا كارامازوف ، وإن كان بصورة أضعف وأقل تحديداً ) . إن تناقض متطلبات « الفكرة » و « النظرية » من جهة ومتطلبات الحياة اليومية من جهة أخرى – هو مبدأ من المبادىء الرئيسية في بنية دوستويفسكي الروائية ( تناقض متطلبات « النظرية » الفردية من جهة ومقتضيات «القوانين الأرضية»، والموقف الإنساني الرائع من الانسان في أعماق راسكولنيكوف من جهة أخرى ، أو تناقض الحب كعاطفة ، والحب كواجب ، وهو التناقض الذي يشكل خطأ الأمير ميشكين المأساوي وفي كلا الحالتين ، تنتهي الرواية « بانفجار » التناقض التراجيدي المأساوي : انهيار « نظرية » راسكولنيكوف ، وهلاك ميشكين ، الروحي ) .

وكما يتراكم جوهر الشخصية في خواطرها الإيديولوجية « السامية » ، كذلك

يتركز موضوع الرواية في كل واحد حول تصادم « الأصوات » والمواضيع الفلسفية المتنوعة . وفي هذا بالذات ، تكمن الأهمية البنيوية – التأليفية لما يلاحظ في رواية « الجريمة والعقاب » من تشابك الاتجاه الفلسفي بالخط الاجتماعي ، وبروز « الصوت » الفلسفي من مادة التصوير الأدبي ، اليومية « المادية » . أن المشاهد والمقاطع التي تحمل وزنا فلسفياً – في صيغة الحوار الذاتي الداخلي عند البطل ، والنقاش التلميحي أو الحلم الرمزي – تعتبر قمماً وذرى من نوع خاص ، لأحداث الموضوع ، تساعد على توضيح الحالة النفسية – الروحية للبطل الرئيسي .

عندما يدعو النقاد رواية « الجريمة والعقاب » رواية فلسفية – اجتماعية فإنهم يقصدون بذلك غالباً ، إشكالية هذه الرواية . إن الإشكالية ( عرض المشاكل ) هي سمة هامة من سمات رواية دوستويفسكي الفلسفية – الاجتماعية لكنها ليست سمتها الوحيدة . فمما لا يقل أهمية عن ذلك ، أن ندرك كيفية تلاقي اتجاهي الرواية ، وكيف أن الاتجاه الأول يجيء الثاني ليشكلا معاً وحدة داخلية لاتنفصل . ومن الأهمية بمكان أن نفهم دوستويفسكي ، من حيث كونه فناناً حاول أن يرى خلف الظواهر اليومية للحياة الواقعية ، مغزى هذه الظواهر « الأساسي » و « الأسمى » .



لقد دخل دوستويفسكي الأدب العالمي ككاتب ذي مزاج تراجيدي خاص . وتميزت مؤلفات دوستويفسكي الباكرة ، وخصوصاً « المثل » و « الفقراء » بالصبغة واللون التراجيديين ، الملشمين بالفكاهة والدعابة . أما أعمال دوستويفسكي الضخمة في الستينات والسبعينات فكثيراً مايدعونها « روايات – مآسي » . غير أن تفسير طابعها التراجيدي يجب أن لا نبحث عنه في الشكل الخارجي لأعمال الكاتب ، ولا في هذه أو تلك من أساليب ومبادىء السرد الدرامية ، بل في خصائص المضمون الاجتماعي والتاريخي لهذه الروايات . لقد ظهرت خصائص عقيدة الكاتب وفهمه لجوهر الحياة الروسية في خصائص مواضيع النزاع التي عالجها دوستويفسكي ، وفي شخصيات أبطاله الرئيسيين وأشخاصه ، الذين لا يشبهون أبطال وأشخاص الكتاب الروس الآخرين . إن التناقضات التراجيدية الموضوعية ، التي ولدتها ظروف الواقع الروسي السياسية والاجتماعية في القرن الماضي ، هي مصدر آلام أبطال دوستويفسكي ، الأخلاقية ومعاناتهم الروحية . وهذا يدحض الفكرة النظرية ، التي يرددها الكثير من النقاد ، والزاعمة بأن دوستويفسكي يصور مأساة الروح الإنسانية ، والوعي عامة .

# إشهد يا طبيب

حكاية

للدكتور عبد السلام العجيلي



مضافة الأسرة كانت غاصة بالحضور في تلك الأمسية ، وهي آخر أمسيات المأتم التي جرى التقليد بأن تختم بقراءة المولد وانشاد المدائح النبوية . في الساحة الصيفية المكشوفة كان الجلوس يزحم بعضهم بعضاً بالاكتاف . وفي الصدر كان المشايخ ، ومن بينهم الشقيقان السيد محمود والسيد محمد ، يجلسون يواجههم المريدون . وأمام السيدين كانت حزمة من الأسلحة : أسياخ حديدية طويلة مدببة ، وخناجر ، وربما كان هناك سيف أو سيفان .

---

(*) يصدر للدكتور « عبد السلام العجيلي » كتاب جديد سجل فيه تجاربه الواقعية كطبيب تسجيلا دقيقاً أشبه مايكون بالتسجيل الوثائقي ، تحت عنوان « عيادة في الريف » . وقد خص المعرفة بهذه الحكاية التي تشكل أحد فصول الكتاب. ومن الجدير بالذكران آخر أعمال عبد السلام العجيلي روايته « أزاهير تشرين المدماة » التي صدرت في الشهر الماضي عن وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق . « المعرفة »

حين لمح بعض الحاضرين حزمة الأسلحة يحملها أحد مريدي السيد محمد رجوه أن لا يحدث في هذه الليلة مايخيف الناس ، غير أن السيد قال : لابد أن يتم ذلك . . . في هذا المكان ذبح أبونا في الماضي رجلاً . وعلينا أن نقدم برهاننا لمن لايصدقون . وهكذا أدرك الجميع أن « الضرب » سيجرى في هذه الليلة .

وقد جرى ذلك حقاً في آخر السهرة . كنت أجلس في زاويتي المعتادة ، الزاوية الشرقية الجنوبية من الساحة المربعة،أرى المشايخ في مواجهتي وهم يقرعون ويرفعون عقائرهم بالأناشيد الدينية التي كانت أنغامها وكلماتها توغل في الحماسة شيئاً وراء شيء . أما المريدون فما كنت أرى إلا ظهورهم ، أو أرى رؤوسهم المتقاربة في تزاحمها ؛ وهم يتمايلون أثناء ترديدهم لازمة الأناشيد.وكلما ازدادت حماسة تلك الأناشيد احتد تمايل المريدين ، وارتفعت بين أصوات المنشدين صيحات بلفظ الجلالة : « الله ! » . يطلقها من يستبد بهم الحماس ويأخذهم الحال . وقد تملك بدنهم الاختلاج واستولى على أطرافهم الارتجاج وفجأة علت همهمة الناس حولي وتطاولت الأعناق أمامي وورائي ، إذ قام أحد الجالسين أمام السيدين محمود ومحمد فتناول حزمة الأسلحة وأخذ يوزعها على المريدين حوله .

أصبح مؤكداً أن « الضرب » سيبدأ . و « الضرب » هو طعن المريد نفسه بالشيش.سيخ الحديد المدبب الرأس المضلع النصل ، أو بالخنجر أو بالسيف . حين تأخذه الحال . توترت أعصاب الحاضرين ، وداخلت نفوسهم الرهبة ، بل أن بعضاً منهم ترك المضافة جزعاً . وبينما كانت أيدي السيد محمد ورفيقه على الدف تلاحق القرع على

دفيهما وحماسة المنشدين تبلغ أشدها ارتفعت من حناجر كثيرة شهقات الدهشة وسمعت الأصوات تتعالى حولي قائلة : ضربوا أنفسهم . . انغرس الشيش في بطنه . . . انظروا إليه . . . خرج من خاصرته . . . انظروا إلى الآخر . . .

لم أكن أرى مايجري بدقة ، لأني وان كنت مددت عنقي لأحسن التطلع لم أغير جلستي أو أقوم منها واقفاً على قدمي ، كما أن الجمع المحتشد أمامي كان يحول بيني وبين الرؤية الواضحة . على أني كنت أرى حركة أيدي المريدين وهي تدفع بالأسلحة إلى بطونهم ، كما كان الناس من حولي يرون مايحدث بتفصيل ودقة . وفجأة انفرج الجمع الكثيف أمامي مخلياً الطريق للمريدين الذين ضربوا أنفسهم كي يجولوا بين الحضور والأشياش مغروسة في أجسادهم . كانوا ثلاثة رجال توزعوا في جنبات الساحة ، وتقدم واحد منهم متجهاً في ناحيتي ، حتى إذا أصبح أمامي صاح بي السيد محمد من مكانه البعيد :

— انظر ياطبيب . . . اشهد ياطبيب !

كان عليّ أن أشهد . فحلقة هذا المساء لم تعقد إلا ليبرهن السيد محمد للمكذبين أن « الضرب » صحيح ، وأن لله رجالاً إذا قالوا فعلوا . كان الرجل الذي تقدّم إلي متوسط العمر ، هزيل البنية ، شاحب الوجه . وكان يحمل ثوبه بيديه رافعاً إياه إلى أعلى الصدر ، وقد تعرى صدره وبطنه حتى مشد السروال . في أعلى البطن إلى اليمين ، تحت الأضلاع ، أعني في الناحية الكبدية قريباً مما يسميه الأطباء النقطة المرارية ، كان الشيش الذي يبلغ قطر مقطعه نحواً من

سنتمتر واحد مغروساً بصورة أفقية تقريباً ، عمودياً على سطح البطن . كان مغروساً في البطن ونافذاً من الظهر . من أمام كان نصل الشيش بطول مايقارب المتر ، أما من وراء فقد كان بارزاً من الناحية الكلوية بطول أكثر من عشرة سنتمترات . لم أكتف بالرؤية بعيني ، بل أمسكت بالشيش من ناحيتيه بكفي ، أمام البطن ووراء الظهر .

أتم المريدون الثلاثة جولتهم وعادوا إلى شيخهم . ومن مجلسي رأيت الأسياخ الحديدية تنزع من أجساد أولئك الثلاثة ، ورأيت زملاءهم يمسحون وجوههم ويقرأون على رؤوسهم . وسمعت من يقول أن المريد الذي كان أمامي قد تقيأ دماً بعد مانزع السيخ من بطنه ، فهببت من مكاني غير ناس أني طبيب عليه واجب الاسعاف . إلا أن السيد محمد هتف من مكانه قائلاً : ليس هذا شيئاً . . . كان فلان مريضاً قبل أن يضرب نفسه .



وانتهى الحفل . وحين مر المريدون أمامي منصرفين استوقفت ذلك الرجل وطلبت منه أن يرفع ثوبه لأرى مكان الضربة . كان وجهه على شحوبه ، أما مكان الطعنة فقد رأيته تحت الأضلاع كخدش مدور ليس عليه من أثر الدم غير قليل . أما الجلد فكان ملتئماً . ارتسمت على شفتي الرجل ابتسامة خفيفة كأنه كان يتحدى بها طبي وعقليتي العلمية ، وأرخى ثوبه منصرفاً .

قال لي جاري بعد أن انفضت الحلقة : مارأيك ؟ قلت : أنا شاهد على مارأيت . قال : وهل تصدق أن السيد توفيق ، والد السيدين محمود ومحمد ، قد ذبح منذ أربعين عاماً رجلاً في هذه المضافة حتى فصل رأسه عن جسده ثم غطى الجثة ورأسها بعباءة وظل يضرب

بالدف فوقها حتّى قام المذبوح سالماً ؟ قلت : ذلك شيء لم أره . . . مارأيت هو آلة حادة وقاطعة تدخل بطن رجل مخترّقة أحشاؤه ، ربما مست كبده أو كليته ، ثم لاينزف الرجل ولايتألم ، وإنما يسير ويتصرف تصرف السليم الذي لم تخدشه ابرة . هذا مارأيته ، وهذا ما أشهد عليه .

— ٢ —

مشهد الضرب الذي وصفته سابقاً كان أول مشهد حضرته ودققت فيه لاكمتفرج عادي . بل كشاهد متفحص . قبل ذلك سمعت عن « الضرب » حكايات لاتقبلها عقليّي العلمية التي أحملها كطبيب درس علوم التشريح والفيزيولوجيا والباتولوجيا وآمن بصدق ماتقول . من تلك الحكايات حكاية الرجل الذي ذبحه السيد توفيق ؛ والد السيدين محمود ومحمد ، في المكان نفسه ، أعني في مضافة الأسرة ، منذ أربعين عاماً ، وعاد بعدها إلى الحياة . ومنها حكاية الشيخ عبد الله الخليل التي لايزال يرويها لنا شهودها من المسنين والتي جرت في منازل أسرتنا أيضاً في البادية قبل أن أولد أنا . فقد أوقدت نار عظيمة ووضع فيها قضيب طويل وغليظ من الحديد ، مدبب الرأس ، حتّى إذا احمر القضيب من الحرارة حمله الشيخ عبد الله بيديه بعد أن نضا عنه ثيابه إلا السروال ، وغرسه في جوفه عند السرة ، فاخترّق بطنه وخرج من ظهره . يقول الرواة أنهم لايزالون إلى اليوم يشمون بأنوفهم رائحة الشواء المنطلقة من احترّاق لحم الشيخ بالقضيب المتقد . بعد ذلك قام الشيخ ، والقضيب منغرس في جسده ، ودار على الحاضرين حتّى وقف أمام سرحان آغا ، قائد الجندرمة الذي كان تكذيبه لحكايات

الضرب سبباً لعقد تلك الحلقة . وطلب منه أن يسحب القضيب بيده . امتثل سرحان آغا لطلب الشيخ عبد الله . وقد شحب وجهه وارتعشت أوصاله من الرهبة ، ولم يتمكن من اخراج القضيب إلا بعد أن احترقت أصابعه برغم لفه لها ببعض الثياب . دثّر الشيخ بعدها بعباءة ظل جسده يتفصد عرقاً تحتها لفترة قصيرة . ثم لم يلبث حتى خرج من تحتها وجلس بين الحضور سليماً معافى .

هذه الحكاية الأخيرة سمعتها من أكثر من راو ممن شهدوا وقائعها بأعينهم . بعضهم قال لي إنه كان بين الذين روّحوا بأطراف أثوابهم على النار كي تزداد اشتعالاً . وكلهم أكد لي أنه بعد أن غرس الشيخ ذلك القضيب الملتهب في بطنه تواثب أولاده الصغار صبايا وبنات إلى النار يخوضونها ويتقلبون على جمرها كأنهم يتقلبون على بساط من عشب الربيع . بعد كل رواية لهذه الحكاية وأمثالها كنت أسأل : هل أصدق هذا؟وما هو التحليل العلمي لهذا؟لم أكن أقطع بقول.كنت أجيب أني استصعب تصديق مايروونه . ولكني لاأجرؤ على القول أنه غير ممكن الحدوث . . . فأنا أعرف الناس بأن علمي الذي تعلمته لايمكن أن يحيط بكل شيء في هذه الحياة . كما أنه لم يصل إلى درجة يجد فيها تعليلاً لكل شيء في هذه الحياة .

ذلك كان جوابي حين كنت أسأل عن وقائع رواها غيري ولم أرها أنا . ولم يتغير هذا الجواب كثيراً حين رأيت السيخ الحديدي في بطن المريد ، وحين أمسكت بأصابعي على نهايته النافذة من ظهر ذلك المريد . لقد ظل عجزي عن التعليل كما كان ، وإن كانت

صعوبة التصديق ، بعد أن تحققت حسياً مما جرى ، قد خفت وحل محلها اليقين .

بعد أول حادثة شهدت فيها « الضرب » بعيني ، كثرت رؤيتي لأمثالها . كان الضاربون يقومون من جانبي ، حينما يشتد قرع الدفوف ويغلي الحماس في الصدور ، فيغرسون في خواصرهم الخناجر أو يبجون بطون أنفسهم بالسيوف . وكلما زارنا قريبنا السيد عايد ، وهو شيخ ذائع الصيت يقيم في قرية مجاورة لدير الزور ، كانت زيارته مناسبة يتبارى فيها الضاربون أمامه من أبنائه وأبناء عمومته المرافقين له ، أو من المشايخ الحاضرين ، وهو في مقدمة الضاربين . حتى ليظن الإنسان أن الحفل قد انقلب إلى مجزرة لن تنتهي إلا بموت واحد أو أكثر من هؤلاء المشايخ أو مريديهم .



على أن أحداً لم يمت أمامي حتى الآن مما جرى في أمسيات الضرب ، كما أني لم أجد أحداً قد تأذى بمقدار خدش من طعنات تلك الآلات القاطعة الجارحة ومن جولانها في الأحشاء . وفي احدى المرات رأيت رجلاً اسمه علي ميت — وهذا اسمه منذ نبش قبره وأخرج منه بعد أن دفن خطأ لأنهم ظنوه مات بينما كان في غيبوبة — رأيت علي ميت هذا يغرس في احدى عينيه سيخاً حديدياً ، فيدخل هذا السيخ في كرة العين حتى يثبت فيها قائماً ، ثم يقوم جائلاً بين الحاضرين والسيخ ثابت في داخل عينه ، في بياض تلك العين . علي ميت ضعيف البصر ، فاقد البصر في إحدى العينين والعين الأخرى مكسوة بسحابة بيضاء يرى فيها بصعوبة ، وقد أدخل السيخ في عينه شبه السليمة هذه ودار بها

دقائق كثيرة قبل أن ينزعه منها ويعود إلى مجلسه بين الحاضرين كأنه لم يفعل بنفسه شيئاً .

سيتساءل كثيرون أيمكن لهذا أن يكون صحيحاً ؟ هل يجوز لي ، أنا الطبيب ذو العقل الموضوعي والثقافة العلمية أن أروي حكايات كهذه؟لقد شك كثير من المتعلمين ممن يؤمون بلدتي، الرقة، بهذا الذي تحدثت به ولم يمنعهم من تكذيبه جازمين إلا قول الناس أني كنت شاهداً لوقائعه . وطلب بعضهم أن يحضروا وقائع « الضرب » فأحضرتهم إياه . وفي ذات مرة سال بعض الدم من جرح أحد الضاربين فسارع زميلي الطبيب الجراح الذي حضر الأمسية ليتحقق بنفسه مما يجري ، سارع زميلي لإسعاف الجريح فأبعده الرجل بيده وهو يقول : لاتفرح بمعالجتي . . . هذا ليس شيئاً .

وحقاً لم يكن ذلك شيئاً مهماً ، إذ توقف نزف الدم بسرعة . وقد وجدنا أنا وزميلي ذاك أن تعليل توقف النزف ، أو انعدام النزف ، مثل تعليل الجرأة على ضرب النفس وتحمل الألم ، أمر سهل . ولكن كيف نعلل اختراق الآلات القاطعة للأحشاء في مناطق خطرة ، مثل مناطق الكبد والكلية والأمعاء ، بدون أن تترك تمزقاً أوانثقاباً أو التهاباً ؟

في الواقع لقد عجزنا عن التعليل وأقررناعلىأنفسنا بذلك العجز ، ولم نستطع في كل مارأيناه أكثر من أن نكون عليه شهودا .

• • •

قصــة

# في الخط

جمال الغيطاني



عقد الاجتماع في القاعة الرئيسية ، وبعد التصفيق الحاد ، وحرص كل شخص على الوقوف في موضع بحيث يمكن أن يرى بوضوح لسيادته ، ثم تقدم أحد العاملين بادارة الميزانية وهتافه ثلاث مرات بحياة الخط ، وقف رئيس مجلس الادارة فشكر أبناء المؤسسة واثنى عليهم ، قال إن القضية ستنظر بعد اسبوع ، وإن ابداء الآراء سيتم في حرية تامة ، من الضروري أن تضرب المؤسسة مثلا في تمسكها بالخط ، بحيث تفرض احترامها على المستشارين ، واعضاء لجان تقنين المعاني ، وخبراء الحيثيات .

أطرق مقدار لحظة ، ثم قال إن خط المؤسسة واضح وصريح ومتين ، وإنه ملتزم بالخط في أدق تفاصيل حياته ، ولعل البعض رأى مكتبه بعد اعادة تنسيقه وفقاً للخط ، ولكنه يرى من واجبه تحذير العاملين من بعض الذين قد يتصلون بهم من خارج المؤسسة ويحاولون تشكيكهم .

وهنا حرص البعض على كتابة هذه الملاحظة مع أنه يمكن تذكرها بسهولة ، كما بذل آخرون جهداً للمبالغة في اظهار الامتعاض على وجوههم كلوي الشفاه أو مطها ، وإصدار أصوات الاحتجاج ، أو التراجع بالرأس احتجاجاً ، اهذا معقول . . هل يمكن لقوة في العالم أن تؤثر على أحدهم . .

بعد انتهاء الكلمة خرج رئيس مجلس الأدارة يتبعه ( س ) . إن نجم ( س ) يتألق

في مثل هذه الظروف لقدرته على متابعة التزام العاملين ، في الممر اقترح رئيس القسم الداخلي إرسال برقية إلى مجلس الادارة ، وهناك قال ( ي ) لنفسه ، ما الداعي الى ارسال برقية والطابق المخصص لمجلس الادارة على بعد درجات قليلة في نفس المبنى ، إن المسافة حتى مكتب التلغراف بعيدة جداً ، مع ذلك لو طلب منه التوقيع على البرقية لن يرفض ، ربما ظنوه خارجاً .

في نفس اللحظة التقى ( س ) بالسيدة ( ك ) وسألها ضاحكاً عن ذهابها إلى كوافير غير ملتزم ، ابدت انزعاجاً ، وقالت ان هذه الوشايات الوضيعة ضدها لن تهدأ . إن زوجها يحتل منصباً حساساً ، وهذا يتطلب منها حماساً غير عادي، وهنا تقدم ( ي ) بخطواته الهادئة ، ورفع اصبعه مستأذناً . . . ، تساءل عن عنوان الكوافير المناسب حتى يسمح لزوجته وابنته بالذهاب إليه ، قال ( س ) بدون النظر إلى ( ي ) إن العنوان سيعلق بلوحة الاعلانات غداً في المدخل الرئيسي ، انحنى ( ي ) وانسحب بعيداً .

في اليوم نفسه رصد عامل التحويلة عدة مكالمات اشتبه في عدم التزامها بالخط ، قام العامل بإبلاغ نصوصها إلى ( س ) ، كما قدم تقريراً عن العاملين الذين تحدثوا وذكروا الخط صراحة في مكالماتهم وأعلنوا التزامهم به ، كما قدم تقريراً عن مدى حماس كل منهم عند ذكر أي كلمات تتعلق بالخط ، قال أن التليفون مرشح جيد للاصوات ويكشف أي مهتز أو خائن ، كما اتصل متعهد البوفيه بالسيد ( س ) وأخبره بالتزامه فيما يقدم من مشروبات إلى العاملين ، قال أنه طلب من شركة الخزف المتحدة تصميم فناجين وطقاطيق يحمل كل منها مقتطفات مؤيدة ، وترددت أخبار وأقاويل عما سيتحقق للمخلصين بعد نظر القضية ، ستنظم الرحلات إلى الخارج ، ستوزع الدواجن المذبوحة اسبوعياً بالاسعار الرسمية ، كذلك الكبد والقوانص ، والأسماك من جميع الأنواع خاصة البلطي متوسط الحجم الذي يصلح للقلي والشوي معاً ، ستلحق دار حضانة بالمؤسسة ، وسيباع الليمون في المجمع الاستهلاكي ، وسيشيد جراج فسيح فوق قطعة الأرض الفضاء ، وستذاع اسماء الملتزمين في برنامج ما يطلبه المستمعون ، كما ستعطى لهم الأولوية للظهور في التليفزيون ، وسيتقاضون جزءاً من أجورهم بالعملة الصعبة ، وسيتم تخصيص باب جانبي لدخولهم إلى حديقة الحيوانات في الأعياد والمواسم ، كما سيباع إليهم الخيار والملوخية الخضراء عند أول ظهورهما بنفس السعر الذي يباعا به في نهاية الموسم .

في الثانية حدث ما عكر ( س ) . اخبره رئيس مجلس الادارة أن امراً مزعجاً حدث ، خرج ( ي ) عن الخط ، وقف على ناصية شارع فرعي قريب وخاطب أحد اعلانات السينما

قائلا إنه من المصلحة ارتفاع صوت مغاير عند نظر القضية، قال سيادته إن كل التقارير تؤكد اخلاص ( ي ) والتزامه منذ انشاء المؤسسة ، كما أنه كان يوقع شهرياً في كشف المرتبات مؤيداً ، يجب كشف حقيقة ماجرى ، هل تعرض ( ي ) لمؤثرات صادرة عن قلة منحرفة؟ طالب سيادته بالتزام الحذر، وبسرعة معالجة الموقف،وعلى الرغم من تكتم النبأ إلا أنه عرف بين العاملين . .

قالت السيدة ( ك ) لزميلتها إن زوجها من خلال عمله الحساس يمكنه معرفة ما يدور في المؤسسة ، اخبرها أن البعض يبطن مالا يظهر ، وإن اجتماعا جرى ليلة أمس في بيت رئيس مجلس الأدارة ضم رؤساء الأقسام ، والأمناء ، واقسموا على الوقوف يداً واحدة . .

أبدى ( ي ) دهشة ، كيف يمكن اعتباره خارجاً ؟ لقد خدم المؤسسة سنوات طويلة ، ولو طلب الآن احالته إلى المعاش لتقاضى مستحقاته كاملة ، ثم إنه يربي ولدا وبنتا ، من أجلهما لا يؤمن إلا بما تجمع عليه الأغلبية ، كما أنه الحقهما بمدرسة يتم فيها تشربهما للخط . بعد حوار قصير أبدى ( س ) الرضا ، قال إن ( ي ) ابن حقيقي للمؤسسة ، هنا وقف ( ي )وأعلن أنه على استعداد لتوقيع اقرار كتابي من أصل وصورتين يثبت إيمانه ، وعلى استعداد لاقتراض مبلغ من مرتبه لينشر في الصحف اعلانا أو تهنئة ، مد ( س ) يده مهنئاً ومصافحا ، سينقل كل كلمة ، سيعمل من جانبه على إزالة سوء الفهم . ولاشك أن هذا الموقف سيصبح محل اعتبار عند نظر العلاوات الاختيارية التي يمنحها سيادته بعيداً عن اللائحة ، أكد ( ي ) أنه لا يمكن أن يفكر أبداً في تعطيل المسيرة ، انصرف ( ي ) ، نظر إليه البعض ، كيف يخرج انسان مثلهم عن الخط ؟ كيف يعرض نفسه لاحتمال الفصل؟ لعدم صعوده إلى الخزانة أول كل شهر ، ألا يفكر في أولاده ؟ لماذا تزوج وربط إليه مصير إحدى بنات الناس ، كيف فكر في الزواج من ينوي الخروج عن الخط ؟ وإذا حدث وقبلته إحدى المختلات فكيف أنجبا ؟ هل ينجب من يخرج عن الخط ؟ عجيب والله ! .

في اليوم التالي ارتجف ( س ) حنقا وغيظاً بعد قيامه بالتمام اليومي للتأكد من التزام العاملين ، جاء ( س ) في ساعة مبكرة،بدا مترنحاً لا يقدر على الوقوف . تحدث إلى عمال النظافة الذين يغسلون سلالم المؤسسة بالصابون وينفضون الغبار عن المكاتب ، واللوحات المعلقة ، والمصابيح الكهربائية المتدلية من الغرف وقاعة الاجتماعات والمثبتة إلى أباجورات يدوية فوق المكاتب .

قال انهم سيفهمونه ، سيصغون إليه لأن زملاءه جبناء ، كل منهم يبطن غير مايعلن .

وهو أيضاً جبان ، « نعم . . أنا جبان . . بالأمس ارسلت برقية لا أعني ماقلته بها » ، إن كل مايجري يجمُ عليه ، مقزز ، منفر ، إنه يفكر في الهجرة ، لقد خطا في سبيل ذلك خطوة عملية ، اشترى استمارات استخراج جواز السفر في غفلة من الأعين ، دس يده في جيبه الأيمن ، أطرق ، فتش جيبه الأيسر ، مط شفتيه ، قال إنه سيبوح بالحقيقة ، لم يشتر الاستمارات، خاف، لكن ما يحزنه ، ما يجب أن يفهمه الجميع ، انه لم يفكر يوما في الخروج ، لم يفكر في مفارقة هذه البلاد الغالية عليه مثل الولد ، قضى عمره في الحي القديم ، يتغذى وينمو من هوائه ، وترابه ، وينتشي عند مفارق طرقاته ، ويأنس إلى مقاهيه ، وتتكئ ذكريات عمره على شرفات بيوته ، لكنه يضيق الآن ، لماذا يجبرونه ؟ لماذا يضغطون على عنقه ؟ لماذا يحددون كمية الهواء المتدفق إلى رئتيه والدم الذي يضخه قلبه ؟ لماذا لايقول رأيه منفرداً عند نظر القضية ؟ بدا حزيناً منكسراً ، مضى مترنحا إلى مكتبه، عقد يديه فوق اللوح الزجاجي، راح في نوم لم يوقظه منه الا زميله، تلفت حوله، بدا خجلا بينما المرئيات تهتز وتختلط ، دخل دورة المياه المخصصة للرجال ، غسل وجهه ، جففه بمنديله ، عاد مبتسماً ، تساءل . .

« ماأخبار الخط ؟ »



ضاق صدر ( س ) ، الأمر خطير ، ربما تضمن ملعوبا خفيا أعده الخارجون ، ربما عبثوا بعقل ( ي ) ، ربما غسلوا مخه في الليل ، ارجأ أمر ( ي ) ، حتى منتصف النهار بعد نصف ساعة تناثرت اشاعات عديدة بصيغ مختلفة ، قيل إن ( ي ) فاسق عجوز ، اغتصب في شبابة فتاة يتيمة ، وإنه مصاب بداء السرقة ، لايجلس مع أي انسان الا ويحاول سرقة اي شيء منه ، قلم حبر ، غطاء زجاجة ، أو مظروف خطاب ، انه ابن عائلة فقيرة ، أبوه عمل في تسليك مجاري العاصمة ، كما أنه عمل في صباه مبيضاً للنحاس قبل انتشار الالومنيوم وانقراض هذه المهنة ، إنه يضرب امراته ، كما شوهدت ابنته تتحدث إلى بائع بمكتبة تبيع المجلات الاجنبية . .

قال ( س ) :

إنك في موقف لاتحسد عليه . .

ارتعد ( ي ) ، بأسره ، قال إنه سيرد على من يدسون له ، إنه قادر على منازلتهم والتصدي لهم ، سيتخذ عدة اجراءات علنية أولية تثبت اخلاصه ، سيطبع بطاقات خاصة ، سيكتب تحت اسمه عبارة « مؤمن بالخط » ، كما سيضيفها إلى اللافتة الخشبية البيضاوية

المعلقة إلى باب بيته ، سيكتب على جدران المدينة « عاش الخط » ، سيحد من استهلاك المياه طبقا لآخر التوجيهات .

غير أن رئيس مجلس الأدارة لم يقتنع ، اتهم ( س ) بعجزه عن جمع المعلومات ، لقد حدث تطور لم يلحظه قسم متابعة العاملين،بدأ ( ي ) العاقل ، المتزن ، التردد على محال شرب الكيف ، في الأسبوع الأخير بدأ يشرب في البيت قبيل شروق الشمس ، قبل تغير طعم ريقه، وعندما يبدأ مغيب وعيه، يخرج البطاقة التي صرفت له أخيراً والدالة على النزاهه، يضعها أمامه ويبدأ لفظ كلمات السباب ، وليلة أول أمس وقف أمام التمثال التاريخي بالميدان الرئيسي ، وقال بصوت عال أنه لم يذق الخمر أبداً ، لكنه اضطر بسبب هذا الخط اللعين ، ثم خفض صوته وقال باكيا في محاولة مكشوفة لاستدرار العطف . تساءل .. هل يدري الناس كم مرة ردد عبارات التأييد ؟ كم مرة حفظ فيها مقالات الصحف المؤيدة درءاً لأي شبهات ، كم توقيعاً خطه على برقيات مرسلة ؟ كم مرة تعلق في الفراغ ليدق مسامير في لافتة تحمل عبارات من الخط ؟ كم مرة حرص على ابراز تعبيرات وجهه الموالية في احاديثه إلى العاملين من زملائه ليثبت وليشيع عنه أنه أكثر اخلاصاً ؟ سكت ثم زعق بإنه لن يقبل التعامل مع المتاجر التي حددها الخط ، ولن يرتدي الأزياء المطابقة للخط .



قال سيادته ، لابد من أحكام الرقابة على ( ي ) والا حدثت فضيحة يوم نظر القضية . .

اقترح ( س ) ارهاق ( ي ) بمزيد من الاعمال الإضافية حتى لا يجد الوقت الكافي للشرب ، لكن سيادته استبعد ذلك ، ربما لجأ إلى الشرب في المؤسسة ، كما لا يمكنه الغاء تغيير النظم خاصة وأن المؤسسة تفخر بالغاء نظام التوقيع لاثبات الحضور والانصراف . اقترح ايفاد ( ي ) إلى إحدى المحافظات النائية في مهمة ، اعترض سيادته ، ربما فقد وعيه ، عندئذ يصطاده إحد مندوبي الوكالات الأجنبية الأخبارية الذين يترددون على تلك المحافظات لزيارة الآثار .

اقترح ( س ) تلفيق تهمة ، كدس قطعة مخدرات في مكتبه .

قال سيادته إن تلك الأساليب البالية استخدمت في السبعينات .

أطرق ، ثم راح ، وجاء ، قال انه من المهم احكام الرقابة عليه خاصة يوم نظر القضية ، وارهابه في الأيام السابقة على ذلك . إنه حل صعب لكنه الممكن الآن ، وبعد نظر القضية ستتخذ الاجراءات المناسبة . .

في الصباح التالي تنبأت السيدة ( ك ) ، بأن خطوات حاسمة ستتم تجاه من يشتبه في عدم اخلاصهم التام ، علم زوجها بذلك من خلال موقعه الحساس .

عند الانصراف نزل ( ي ) السلم متزناً ، متمهلا ، وعند الدرجات التي تصل الطابق الثاني بالطابق الثالث ، قال لنفسه ، ألا توجد حياة غير الحياة ؟ اهذا هو الشكل الوحيد المتاح ؟ . توقف عند الباب ليفسح الطريق أمام السيدة ( ك ) ، أومأت إليه قد يده مصافحاً ، استفسر عن صحة الأولاد ، قالت بسرعة ، أنهم بخير ، أسرعت غير أنه مشى محاذيالها وقال إن العقاب يجب أن يحل . . ، تساءلت ( ك ) بدهشة ، ضد من ؟ قال ، ضد المخالفين طبعاً .. ، أخفت دهشة لأنها سمعت بوقوفه في أحد الميادين ضاحكاً وباكياً ثم صائحاً بلعن الخط ، استمر ( ي ) في سيره حتى التقى برئيس قسم الاستماع فوق رصيف المترو ، قال أنه سيسعى من خلال أصدقائه الفنانين الذين يعرفهم من المقهى إلى تأليف اغنية ، وطبع كتيب يضم لوحات مؤيدة . في المترو التقى برئيس شئون العاملين ، طلب منه ايضاحاً ، لو أرسل برقية يستنكر فيها أي تشكيك ، هل ستضم إلى ملف خدمته الرسمي ؟ ثم أبدى ضحكة حاول تثبيتها إلى وجهه أطول مدة ممكنة ليرى محدثه اقتناعه، في المساء نزل مرتديا ملابسه الكاملة ، اتصل تليفونياً بمنزل ( س ) ، اقترح عليه جمع مبلغ صغير من كل فرد لاقامة حفل شاي يعبر عن وحدة العاملين وعدم خروج أحدهم من الحظيرة التي تضم الكل ، شكره ( س ) على هذه الروح ، طلب منه الحضور غداً في وقت مبكر لتكليفه بمهام خاصة تسبق الاجتماع المقرر عقده.أثناء وقوف ( ي ) حرص على الحديث بصوت مرتفع ليسمعه الواقفون حوله في انتظار انتهائه من المكالمة ليتحدثوا في التليفون ، ربما اصغى إليه أحدهم عامداً لينقل عنه ، وعند الناصية داهمه حزن ، وتساءل بأسى،أين البهجة ؟ ألا يمكن له أن يمشي ، يمشي ، وتتغير المرئيات باستمرار ، لا تقع العين على شيء واحد مرتين ؟ يضحك متى جاءته الرغبة في الضحك ، ويقول ما يخطر له من كلمات ، بدون أن يقصد ارضاء محدثه ، أو الحرص على توصيل معنى،ألا يمكن أن يتوقف عندما يرغب ، ويجلس عندما يشعر بالرغبة في الجلوس . طافت عيناه بالواجهات المضاءة بوهن ، وزحام المارة فوق الرصيف ، حركة السيقان الآلية التي تدفع بالأجسام إلى الأمام . ألا يمكن استبدال الحركة إلى الوراء بدون أن يجيء الدوار ، فوق المدينة خيمت العتمة ، لماذا تبدو السماء سوداء في الليل ؟ توقف ، نظر حوله ، ثم خلفه ، أين توارت البهجة ؟

في الصباح التالي جرى الاعداد للاجتماع بعناية ، تم تجميع عدد من المقاعد يوازي العاملين ، جرى التصفيق وفقا للأصول المرعية ، قام سيادته ، في البداية تقدم على مرأى

من العاملين كلهم ، قام باخماد بعض الاشاعات التي ترددت، أخفى ( س ) قلقاً، لم يظهر ( ي ) حتى الآن ، أبلغ الحرس بضرورة احتجازه إذ اظهر في حالة سيئة .

أكد سيادته سلامة الخط ، يسره التكاتف الواضح ، قال إن اجراءات حازمة ستتخذ حتى لا يتخلف أحد العاملين عن الحضور ، تم تقسيم المدينة إلى دوائر ومربعات ، ستمر السيارات على العاملين . عمال التحويلة سيوقظون من لديهم تليفونات مع أول ضوء ، من لا يمتلكون تليفونات سيذهب إليهم التوبتجية ، أعلن أن عدداً من العاملين الأصليين المعارين إلى البلاد المجاورة أرسلوا برقيات يعلنون تأييدهم ، كما أن بعضهم سيصل الليلة لحضور نظر القضية ، وهكذا يقف الجميع يداً واحدة ، لايشذ منهم أحد .

في هذه اللحظة تقدم أحد السعاة من ( س ) ، مال هامساً ، عض ( س ) شفته السفلى ، اهذا ماحدث إذن ؟

خرج ( ي ) صباح اليوم من باب بيته منحنياً ، يكاد رأسه أن يلامس الأرض ، نزل من فوق الرصيف إلى الطريق ، حوله صباح رمادي مشبع بدخان سيارات ، وضباب مجهول المصدر وضجيج ، أطل سائق تقل لف رأسه بغطاء من الصوف ، سب بصوت عال ، اضطر إلى التوقف فجأة ، بدا ( ي ) غير مصغ ، استمر في رسم خط ابيض واضح فوق الأرض مستعملا قطعة ضخمة من الطباشير وبداخل حلقه غصة وعلى مشارف عينيه دموع ، القت سيدة من نافذة سيارتها منديلا ورقيا تمخطت فيه ، صاحت غاضبة ، أصوات احتجاج ، اضطرب المرور . تهقه شبان يتعلقون بسلم أوتوبيس، اتسعت عيون من الدهشة ، استقام (ي) واقفاً ، على مهل رفع ساقه اليمنى . بحذر انزلها حتى لامس طرف قدمه الخط الأبيض . رفع اليسرى، ارتجفت قليلا قبل أن تلامس الأرض ، بدا وكأنه يمشي فوق حبل معلق، توقف لحظة ليحفظ توازنه وحتى لايحيد ، شفتاه منفرجتان وعيناه معلقتان إلى الفراغ الرمادي . . . »

القاهرة

* *

صدر حديثا

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

## الحرب والسلم

( الكتاب الاول )

تاليف
ليون تولستوي

ترجمه المرحوم
د. سامي الدروبي

---

صدر حديثا

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

## الثقافة والالتزام

الهوة بين الاجيال

تاليف
مرغريت ميد

ترجمة
خير الدين عبد الصمد



---

صدر حديثا

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

## الطاقة والبحران

تاليف
لوي بونزو

ترجمة
احسان سركيس

# آفـــاق المعـــرفـة


## وقـــائع

عبد القادر الجزائري متصوفاً — فريد جحا

## رسالة باريس

تظاهرات فنية كبرى :
الاسلام والبوذية — فايز مقدسي

## مناقشات

النحو واللغة — محمد الكسار

الانتظار السلبي وقوة الأمل — محمود منقذ الهاشمي

الأمانة العلمية في مجلة « العربي » — د . حسان الحاج ابراهيم

## مواقف

محو الأمية وتعليم الكبار في الوطن العربي — سميح عيسى

## قراءة نقدية في العدد الماضي

العرب المعاصرون والتاريخ العربي — د . شكري فيصل

وقائع

# عبدالقادر الجزائري متصوفاً

فريد جحا

## تمهيد

دخل الأمير عبد القادر الجزائري(*) التاريخ السياسي الحديث من أوسع أبوابه ، وطارت شهرته في المشرق والمغرب العربيين ، وفيما تبقى من الأمبراطورية العثمانية ، ثم في فرانسا وأوربا ، ولقي في أواخر حياته كل مظاهر التكريم والاعزاز ، من أكثر أباطرة الأرض وملوكها .

نال الأمير عبد القادر ذلك كله نتيجة أمرين :

أولهما جهاده دفاعاً عن وطنه ضد المستعمرين الفرنسيين طوال أكثر من خمسة عشر عاماً .

وثانيهما : الوقفة الشجاعة التي وقفها حماية لنصارى دمشق في تلك الأيام المنكرة من عام ١٨٦٠ ، والتي كانت نتيجتها انقاذ حوالي خمسة عشر ألفاً منهم .

ويدخل الأمير عبد القادر – بندوة الكوليج دوفرانس عن كتاب المواقف – التاريخ الثقافي والحضاري والأنساني ، فهاهو ذا الأمير المعروف بأنه القائد والمناضل والمجاهد في القطر الجزائري ،

(*) أقيمت في ( الكوليج دو فرانس ) بباريس ندوة عن ( عبد القادر الجزائري متصوفاً ) اسهم فيها الاستاذ ( فريد جحا ) بهذا البحث الذي خص به المعرفة . ويذكر أن الندوة أقيمت خلال شهر ( أيار ) الماضي .

والنبيل الكبير القلب في دمشق . . . هاهوذا الأمير يدرس شاعراً ومؤلفاً ومفكراً ومتصوفاً ، في ندوة كبرى تقام في صرح من صروح الثقافة العالمية ، وفي عاصمة النور العظيمة باريس .

إن هذه الندوة تعبير عن المثل الفرنسية التي تحترم الفكر والمفكرين ، واسهام في تكريم انسان عظيم أساءت إليه السياسة الاستعمارية الفرنسية في القرن الماضي ، واستمرار للتقدير الذي لقيه من نابليون الثالث ، ومن أتى بعده من حكام فرنسيين . واقامتها في ( الكوليج دوفرانس ) تمش مع عراقة هذا المعهد العظيم ، وإكمال للمسيرة التي بدأها سكرتيره المستشرق الكبير ( لويس سيديو L. A. sédillot ) صاحب المؤلف العظيم ( تاريخ العرب العام Histoire Gènerale des Arabes )الذي كان أول كتاب فرنسي ، يعرف بتاريخ العرب ، ويدرس حضارتهم بكثير من الاعجاب والمحبة(١) .

وفيها اسهام في دفع التعاون العربي الفرنسي في ميدان الثقافة ، ذلك التعاون الذي بدأ منذ حوالي عشرين عاماً ، معززاً بالنظرة الواسعة التي نظرها المرحوم الخالد الذكر الرئيس دوغول مستشرفاً آفاق المستقبل ، تلك الآفاق التي سيكون فيها

لقاء الأمتين الفرنسية والعربية أفضل الثمار في مجالات الاقتصاد والثقافة وخدمة الانسان.

والندوة أولا وأخيراً عمل ثقافي عظيم يقام في هذه المدينة العظيمة ، خدمة للفكر الانساني ، واسهاماً في دراسات حضارية ، يلتقي في ظلالها علماء الشرق والغرب مبرهنين على صدق دعوة المتصوفة العرب إلى المحبة التي يعيش في ظلها بنو الانسان متفاهمين سعداء .

## مقدمة

### حياته :

وحياة الأمير عبد القادر منذ ولد في قرية القيطنة من أعمال وهران في عام (١٢٢٢ هـ - ١٨٠٧ م ) ، إلى أن توفي بقرية دمر قرب دمشق ( في سنة ١٣٠٠ هـ - ١٨٨٣ م) حياة مديدة ، حافلة بالأحداث ، ونحن نملك -لحسن الحظ - تأريخاً مفصلا لها في كتب عديدة(٢) ، نخص منها بالذكر ، السيرة الضخمة التي كتبها ابنه محمد في حوالي ألف صفحة بعنوان ( تحفة الزائر ، في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر )(٣) وقد أفدنا منها لبحثنا فائدة كبرى . لذلك لن نعيد هنا تفاصيل تلك السيرة ، بل نكتفي بسردها بإيجاز ، مبرزين خطوطها العامة ، وما يعيننا على دراسة نزعة التصوف عند صاحبها .

يمكن توزيع حياة الأمير عبد القادر على أربع مراحل :

١ – مرحلة الطفولة والشباب ( بين عامي ١٢٢٢ – ١٢٤٨ ﻫ – ١٨١٧ – ١٨٣٢ م ) . وأبرز أحداثها : دراسته في قريته ثم في وهران ، وسفره مع والده إلى المشرق لأداء فريضة الحج في عام ١٢٤١ ﻫ / ١٨٢٥ م ، ثم إلى دمشق وبغداد حيث زارا حضرة القطب الرباني عبد القادر الجيلاني ، وأخذ كل منهما الأجازة بالطريقة القادرية(٤) ثم العودة إلى دمشق فالقيام بالحج مرة ثانية ، والعودة إلى الوطن ( في سنة ١٢٤٣ ﻫ / ١٨٢٧ م ) . وتختم هذه المرحلة بالبيعتين اللتين تمتا في عام ( ١٢٤٨ ﻫ / ١٨٤٢ / ١٨٣٣ م ) له بالامارة والنصرة في الجهاد ضد الفرنسيين الذين كانوا قد نزلوا في الجزائر بدءاً من عام ( ١٢٤٦ ﻫ / ١٨٣٠ م )(٥) .

٢ – مرحلة الجهاد ( بين عامي ١٢٤٨ – ١٢٦٤ ﻫ/ ١٨٣٢ – ١٨٤٧ م). وهي مرحلة النضال ضد الفرنسيين لم يدخر خلالها وسعا في الدفاع عن حقه وحق شعبه في الحياة الحرة الكريمة ، وبذل من المال والأرواح مالا طاقة لدولة راسخة الأساس ببذله(٦) ، ذابا عن الدين والبلاد ، باذلا وسعه ، مقتحماً المهالك ، مستسهلا الصعب ، قاضياً حق الجهاد بالمهندوالسنان(٧) وكان الى جانب ذلك يبذل جهده في ترسيخ بنيان دولته : فضرب السكة ، وأنشأ معامل الأسلحة والأدوات الحربية وملابس الجند(٨) . وتنتهي هذه المرحلة بالتسليم لقضاء الله تعالى والرضى به ، بعد أن فقد المعاضد والمساعد (٩) ، وكاد له بعض قومه ، وقر قراره مع من بقي من جيشه وخاصته على التسليم إلى الفرنسيين(١٠) ، على أنه هو وعائلته يذهبان إلى عكا أو الاسكندرية ، وألا يتعرضوا لمن يريد السفر معه ، من الضباط والعساكر ، وأن الذي يبقى منهم في الوطن ، يكون آمناً على نفسه وماله ..(١١) وهي شروط قبل بها وأقرها الجنرال لاموريسير رئيس الجيوش الفرنساوية(١٠) .

٣ – مرحلة الأسر في فرانسا ( بين عامي ١٢٦٤ – ١٢٦٩ ﻫ / ١٨٤٧ – ١٨٥٣ م ) . إلا أن الحكومة الفرنسية لم تقر تلك الشروط ، واعتبرته أسير حرب ، وأنزلته قسراً إلى طولون حيث سجن ستة أشهر في برج ثم في قلعة فيها(١٢) ثم نقل بعد ذلك إلى سراية بوءثم إلى مدينة امبواز(١٣) حيث بقي فيها حتى أطلق سراحه بعد أن وصل الأمير لويس نابليون إلى الحكم وبويع امبراطوراً ، وخير في البقاء في فرنسا أو السفر ، فاختار السفر إلى الآستانة ( وذلك في ربيع الأول من عام ١٢٦٩ ﻫ / ١٨٥٣ م ) .

٤ – مرحلة الاقامة في تركيا ثم في

دمشق ( بين سنتي ١٢٦٩ – ١٣٠٠ ﻫ / ١٨٥٣ – ١٨٨٣ م ) . وبعد أن أقام فترة في عاصمة الدولة العثمانية ، انتقل إلى مدينة بروسة حيث قضى فيها أربع سنوات زار خلالها ( باريس ) ، ثم انتقل منها إلى دمشق حيث سكنها حتى نهاية حياته ، مدة ستة وعشرين عاماً ، توجه خلالها إلى بيت المقدس ، ثم قام بالحج في عام ١٢٧٩ ﻫ وبقي في الديار الحجازية حتى المحرم من عام ١٢٨٢ . وزار باريس ، ثم حضر في مصر حفل افتتاح قناة السويس سنة ١٢٨٦ ﻫ / ١٨٦٩ م حيث لقي التكريم المخصص للملوك .

ولقد قضى السنوات الأخيرة في العبادة والكتابة والتأليف حتى وافته منيته ( في الساعة السابعة من ليلة يوم السبت التاسع عشر من رجب سنة ١٣٠٠ ﻫ – الرابع والعشرين من أيار سنة ١٨٨٣ م )(١٤) فدفن في اليوم التالي عند الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي ، داخل القبة ه دفن ، والاحشاء محترقة والمكارم تبدي شجوها لفقده ، وفنون العلم تلطم خدودها ، وأفانين المعارف تشق برودها .

والسالكون ، سطت عليهم حيرة
وغوى لهم نهج ، وضل سبيل
والعارفون ، تنكرت أحوالهم
فحجاب عين قلوبهم مسدول

ولاننس أن نسجل هنا وقفته الرائعة في وجه(١٥) الفتنة التي سرى سمها في دمشق بدءاً من الاثنين ( ٢١ ذي الحجة سنة ١٢٧٦ ﻫ – ١٠ تموز ١٨٦٠ ) ، فلقد قام السفهاء وتقاطروا إلى محلة النصارى ، ومدوا أيديهم إلى أهلها بالقتل وإلى أموالهم بالنهب ، وإلى ديارهم باضرام النار فيها .

ولقد كان موقف الأمير ممتازا ، لقد ركب إلى محلة النصارى ، فنصح ونهى ، فلم تسمع له نصيحة ، فأخذ ينقذ من النصارى من يصل إليه ، وظل على تلك الحال حتى انتهت الفتنة ، ولقد اجتمع لديه في بيوته وفي القلعة نحو الخمسة عشر ألف نفس(١٦)... ذلك الموقف أكبره السلطان العثماني ، وامبراطور فرانسا وقيصر الروسيا وملوك بروسيا وايطاليا واليونان ، وأرسلوا له رسائل الشكر مع أرفع الأوسمة (١٧) ، كما أن الكثيرين من الشعراء قد نظموا القصائد مديحاً له ، وتقريظاً لأعماله النبيلة(١٨) .

## دراسته :

تدل آثار الأمير ومؤلفاته – وبخاصة كتابه المواقف – على أنه كان مطلعاً على الثقافة الاسلامية بوجهيها الديني والدنيوي اطلاعاً جيداً ، فهو يستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وهو يشرحها ، ويناقش مضمونانها ، كما أنه يورد كثيراً من ألفاظ الفلاسفة والمتكلمين وآراءهم

ويناقش ذلك . إننا سنتعرض لذلك بالتفصيل عندما ندرس كتابه المواقف ، لذلك نكتفي الآن بالاشارة إليه ، مستدلين منه على أن تعليمه كان جيداً ومستمراً .

ويروي من ترجموا له أنه تربى في حجر والده إلى أن بلغ سن التمييز ، وأنه حفظ القرآن في المدرسة التي اسسها والده في ( القيطنة ) ، وتلقى بها بعض العلوم ، وكان والده كأسلافه من العلماء الاعلام الذين يرجع إليهم في مشكلات الأحكام ، وأنه لما بلغ الرابعة عشرة من عمره ، رحل إلى مدينة وهران لاستكمال فنون العلوم(١٩) . كما يروي أيضاً أنه أخذ الفقه عن والده ، وغيره من العلماء ، وأنه رحل إلى وهران وأخذ عن علمائها ، وأنه كان حافظاً لكثير من اللغة العربية ، والقدر الوافر من صحيح البخاري عن ظهر القلب ، مجازاً فيه عن والده ، وعن الأمام المحدث عبد الرحمن الكزبري بدمشق الشام ، كما أنه أخذ عن الأمام ضياء الدين خالد النقشبندي السهروردي ، وأنه برع في علوم الشريعة والحقيقة(٢٠) .

ويزيدنا الاستاذ حقي معرفة بثقافته « لقد درس الفقه والأصول وعلوم اللغة والحديث والمصطلح ، وحفظ قدراً كبيراً من صحيح البخاري عن ظهر قلب ، وكان يتقسم به ويقرئه لمريديه ، ويجيزهم بقراءته حتى آخر أيام حياته . ولقد برع في علوم الشريعة والحقيقة ، وألف فيهما وراسل علماء العالم الاسلامي سائلا ومستفسراً ومجادلا مجيباً(٢١) وناقش علماء فرانسا وسواها مناقشة تشير إلى دراسته العميقة للعهد القديم والأناجيل(٢٢) .

وتدل رسالته ( ذكرى العاقل وتنبيه الغافل ) ، وهي الرسالة التي كتبها وأرسلها إلى علماء باريس بعد أن كتبوا اسمه في دفتر العلماء ونظموه في سلك العظماء(٢٣) تدل تلك الرسالة وموضوعاتها ( الحث على النظر وذم التقليد ، وفضل العلم والعلماء ، وتعريف العقل الذي به إدراك العلوم ، والقوى الأربع التي إذا اعتدلت في الانسان كان كاملا ، وفضل إدراك العقل على إدراك الحواس ، وفضل مدركات العقل على مدركات الحواس ، وأنقسام العلم إلى محمود ومذموم . والعلم الشرعي ومعرفة النبي وما يتعلق بالنبوة . وفضل الكتابة ، وكتابات الأمم ، وبيان حروف الكتابة العربية ، واحتياج الناس إلى التصنيف وما يتعلق به ) ... يدل ذلك كله مثلا على سعة ثقافة الأمير ، وعلى حرصه على توسيعها ، والتأليف فيها حتى السنوات الأخيرة من حياته ، فالتذكرة هذه قد انتهى منها في ١٤ من رمضان سنة ١٢٧١ هـ/ ١٨٥٤ م ، وكتب كتابه المواقف بعد حجته الأخيرة أي في السنوات العشرين

الأخيرة من حياته ، ولما حج في سنة ١٢٨٠ ﻫ / ١٨٦٣ م ، لم يتورع ، على الرغم من أن عمره قد تجاوز الخامسة والخمسين ، عن أن يختار الشيخ محمد الفاسي المجاور في مكة المكرمة استاذاً له ، يأخذ عنه الطريق ويتلقى عنه شؤونها (٢٤) معتبرا نفسه تلميذاً .

## آثاره ومؤلفاته :

وله بالإضافة إلى ماكتب من أجوبة على استفسارات بعض السائلين ، المؤلفات التالية :

١ – ذكرى العاقل وتنبيه الغافل ، وهي الرسالة التي أرسلها إلى علماء باريس وتقع في / ١٣٢ / ص من القطع الصغير .

٢ – المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الاسلام من أهل الباطل والالحاد . وقد ألفها بأمبواز ، من موضوعها ( بيان حكم شرع الاسلام في الغدر والوفاء ) وقد رتبها على مقدمة في الكلام على العقل ، وعلى ثلاثة أبواب : اثبات الألوهية ، واثبات الرسالة ، وماورد في الشرع من وجوب الوفاءوالأمر به،وتركالغدر والنهيعنه(٢٥).

٣ – الصافنات الجياد في محاسن الخيل وصفاتها .

٤ – ديوان شعره الذي جمعه ولده محمد ، ثم حققه وأشرف على طباعته الدكتور ممدوح حقي بدمشق عام ١٩٦٠ ، مقسماً الديوان بحسب موضوعاته وفيها الفخر والغزل والمساجلات والمناسبات والتصوف .

٥ – كتاب المواقف الذي هو موضوع بحثنا وسنعرف به بعد قليل .

## الجزائري متصوفاً

ويبدو لنا الجزائري في جميع مراحل حياته متصوفاً . انه يدرس الدراسة الاسلامية ، ويزور قبر القطب الجيلاني في بغداد ، ويأخذ الاجازة بالطريقة القادرية عن نقيب الاشراف وشيخ السجادة القادرية فيها ، ويحج مع والده مرتين ، ووحده مرتين أيضاً . وهو إلى جانب هذا يكبر الصوفيين ، فيكون أول مايفعله بعد وصوله دمشق في سنة ( ١٢٧٢ ﻫ / ١٨٥٥ م ) نزوله عند ضريح العارف بالله – تعالى – الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي وزيارته ، والتبرك به ( ٢٦ ) ، وعندما يحج وحده للمرة الثالثة يختار الشيخ محمد الفاسي ، المجاور في مكة المكرمة ، استاذاً له ، يأخذ عنه الطريق ، ويتلقى شؤونها عنه ( ٢٧ ) . وتجده

في كل ماكتب معظماً لهم ، يفيض عليهم كل مظاهر التجلة والاحترام .

وكان إلى جانب ذلك كله يرتاض الرياضة الصوفية ، ويختلي ، فعل ذلك في دمشق مرات ، وفي مكة عندما حج ، فلقد روى ولده أنه « لازم الرياضة ، والخلوة ، والاجتهاد ، وعكف على مافي تلك الطريقة الميمونة من الوظائف والأوراد . . . . » (٢٧) .

وهو يلتزم في كل ماكتب جانب المتصوفة مناقشاً أهل السنة ، وأهل الكلام ، يفعل ذلك في الكثير من صفحات ( المواقف ) ، « فطريقة توحيده ماهي طريقة المتكلم ، ولا الحكيم المعلم ، ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة ، وسنة الرسل المرسلة وهي التي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين ، والصحابة والتابعين ، والسادات العارفين » (٢٨ ) .

وهو يتلقى الآيات القرآنية الكريمة تلقياً غيبياً روحانياً ( ٢٩ ) ، ويروي حديثاً عن الرسول يقول « ان القرآن ظهراً وبطناً ، وحداً ومطلقاً ( ٣٠ ) ، ويفسر الكثير من الآيات التفسير الظاهر ، وتفسير العارفين (٣١ ) .

وعندما يرقى معارج الأسرار إلى حظائر القدس ، ذات الأنوار ، وتقع له الكرامات والخوارق ، ويحرز ، بقوة سعده احوالا سنية ، وأنفاساً محمدية ، ويتم ذلك في غار حراء ، الذي انقطع فيه أياماً عديدة ، وتأتيه في نهايتها البشرى بالرتبة الكبرى ، ويقع له الفتح النوراني ، وتتفجر ينابيع الحكم على لسانه ، ويستظهر من القرآن العظيم آيات ، ومن الحديث النبوي أحاديث صحيحة . . . عند ذلك يشعر بالسعادة العظمى ، ويكتب إلى استاذه الفاسي من خلوته رسالة في قصيدة يصف له ماعانى ، ووصوله ، ويعبر عن سعادته القصوى :

أسعود ! جاء السعد ، والخير واليسر
وولت جيوش النحس ، ليس لها ذكر (٣٢)

وهو قبل هذا كله يؤلف كتاب المواقف الذي هو « نفثات روحية ، ولقاءات سبوحية ، بعلوم وهبية ، وأسرار غيبية ، من وراء طور العقول ، وظواهر النقول ، خارجة عن أنواع الاكتساب ، والنظر في كتاب ...» (٣٣) ذلك الكتاب الهام الذي تجاوزت صفحاته مائتين والفا من الصفحات ، والذي دخل ، من أجله ، هذا الأمير الجليل عالم التأليف الصوفي .

وما جهاده ضد الفرنسيين إلا جهاد المتصوفة ، واستمراراً لمرابطة المجاهدين في الربط التي أقيمت في الثغور ضد

الأعداء ، تلك الربط ، التي بنى الكثير منها في شمالي افريقيا ، وفي عهود مختلفة « حصوناً يقيم فيها المرابطون على طاعة الله يدفعون بدعائه وبسيفه الخطر عن البلاد » (٣٤) .

فالأمير عبدالقادر الجزائري متصوف إذا في سلوكه وحياته ودراسته وتآليفه وجهاده . وسلوكه هذا الطريق ليس غريباً فانتسابه إلى الرسول (٣٥) ( فهو عبدالقادر ابن محي الدين . . . بن الحسن السبط ، بن علي ، بن أبي طالب ... وأمه فاطمة الزهراء ، بنت سيد الوجود ، محمد رسول الله ) (٣٥) . وكون جده ووالده من المتصوفة ، وحرص والده على اصطحابه للحج وهو في سن الشباب ، وعلى زيارة ضريح الجيلاني في بغداد ، والحصول على الاجازة من نقيب الأشراف شيخ السجادة القادرية ... كل ذلك أهله – بجانب دراسته الدينية والصوفية – إلى اختيار التصوف طريقة للسلوك والحياة والتفكير ، ثم التأليف .

## تعريف سريع بكتاب ( المواقف )

١ – ويبقى كتاب ( المواقف ) أهم آثاره في حجمه ، وفي الموضوعات التي طرحها . ولا بد لنا قبل التعريف به من الاجابة على أسئلة أربعة :

لماذا ألف الكتاب ؟ ولماذا أعطى هذا العنوان ؟ متى ألف وأين ألف ؟

٢ – يبدأ الأمير الجزائري المواقف بهذه السطور : « هذه نفثات روحية ، والقاءات سبوحية ، بعلوم وهبية ، وأسرار غيبية ، من وراء طور العقول ، وظواهر النقول ، خارجة عن أنواع الاكتساب ، والنظر في كتاب ، قيدتها لاخواننا الذين يؤمنون بآياتنا إذا لم يصلوا إلى اقتطاف أثمارها ، تركوها في زوايا امكانها ، إلى أن يبلغوا أشدهم ، ويستخرجوا كنزهم...»(٣٦) .

فالكتاب إذاً نفثات روحية صوفية ، وأسرار غيبية ، ألمت بالمؤلف من وراء العقول لم تكتسب اكتساباً ، جمعها لاخوانه المتصوفين الذين يؤمنون مثله بها ، والذين لم يصلوا مثله إلى اقتطاف ثمارها ، ليتركوها في زاوية ، حتى يتقدموا في معارج الفهم ويبلغوا المرتبة التي تؤهلهم للحياة معها ، وهم حينئذ بالغون أشدهم في الطريق ، وحاصلون على كنزهم الروحي العظيم .

٣ – ونحن نعتقد أن المؤلف قد أعطى كتابه هذا العنوان ( المواقف ) وهو يتأسى غيره من أقطاب الصوفية الذين تركوا مؤلفات بهذا العنوان ، نذكر منهم خاصة النفري ( محمد بن عبد الجبار بن الحسن ) المتوفي في منتصف القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي – وصاحب كتاب ( المواقف ) ( ٣٧ ) ،

وابن قضيب البان الحلبي المتوفى عام ( ١٠٤٠ هـ ) صاحب كتاب ( المواقف الالهية ) (٣٨) ، والشيخ عبدالله البوسنوي المتوفى سنة ( ١٠٥٤ هـ ) وصاحب ( مواقف الفقراء ) (٣٩) .

الكتاب الأول في رأينا هو الذي أوحى للجزائري بعنوان كتابه ، فمؤلفه ( النفري ) أقدم الثلاثة وأشهرهم ، وكتابه من أهم الكتب في بابه ، مضموناً وشكلا ، يضاف إلىذلك أن محي الدين بن عربي المتصوف العظيم قد ذكر الكتاب وتحدث عنه خمس مرات في الفتوحات المكية (٤٠) ، فإذا ماعرفنا اكبار عبد القادر الجزائري لابن عربي ، وقراءته الدائمة لفتوحاته ، واستشهاده الكثير بما ورد فيها في مواقفه ، تأكد لدينا أن الجزائري حين سمى كتابه ( المواقف ) كان ينظر إلى مواقف ( النفري ) .

٤ — ولقد ألف الكتاب بعد عام ( ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥م ) ، أي بعد عودته من الحج في هذا العام ، فهو يذكر في المواقف عدة مرات خلوته في المدينة المنورة (٤١) ، ويذكر ابنه في سيرته أن أباه قد اختلى في مكة ، وفي المدينة ، وأن انقطاعه قرب المسجد النبوي مدة شهرين قد قوى معارفه ، وزكى عوارفه ، وانكشفت له الحقائق القرآنية ، والاحاديث النبوية ، مما يسر له تأليف المواقف (٤٢) .

فإذا ماعرفنا أن الجزائري قد قضى السنوات الأخيرة هذه من عمره ( بين عامي ١٢٨٢ و ١٣٠٠ وهو عام وفاته ) في دمشق ، وأنه لم يغادرها الا لسفرات محدودات الأزمان إلى الآستانة وباريس ومصر ، وإذا ماعرفنا أن المرحلة الأخيرة من حياته التي قضى أكثرها في بروسة ودمشق قد سميت بحق « المرحلة العلمية » (٤٣) حق لنا أن نتأكد من أن ( المواقف ) قد ألفت خلال المدة المذكورة ، أي في السنوات العشر الأخيرة من حياة مؤلفها .

٥ — و( المواقف ) للجزائري كتاب ضخم ، يقع في طبعته الموجودة بين يدينا في ثلاثة أجزاء من القطع المتوسط : يقع أولها في ٤٩٨ ص ، والثاني في ٤٦٤ ص ، والثالث في ٣٧٧ ، وقد انتهى من طباعته يوم الأحد ١٥ شعبان سنة ١٣٤٤ هـ (٤٤) الموافقة لسنة ١٩٢٥ م .

في الجزء الأول فاتحة الكتاب وهي في تسع عشرة صفحة ، ومائتان وسبعة وأربعون موقفاً . وفي الجزء الثاني سبعة وسبعون موقفاً ، وفي الثالث اثنان وسبعون موقفاً في نهايتها القصيدة التي

نظمها بمكة مادحاً الشيخ الفاسي والتي سبق أن أشرنا إليها .

فاتحة الكتاب صفحات أربع من النثر عرض فيها سبب تأليف الكتاب ، ثم مقامة له يصف فيها الطريق للوصول إلى الحقيقة الصوفية ، وهي طريق طويلة شاقة تحمل فيها « كل مكروه ، مستعذباً أنواع العذاب ، لا تطمئن به دار ، ولا يستقر به قرار ، إلى أن ظهرت له الأعلام التي ظهرت لمن قبله من الوافدين الأعلام ، ونادى المنادي ، وحدا الحادي :

أبشر بوصل فهذه العلامات
كم طالبين ، ودون الوصل قد ماتوا » (٤٥)

ويختم هذه المقامة بقصيدة صوفية طويلة تقع في حوالي مئتين وخمسين بيتاً متنوعة الأوزان والقوافي ، بعضها صحيح الوزن ، وبعضها مختل وزنه ، وفيها أخطاء لغوية وصرفية (٤٦) .

وتنتهي الفاتحة مع نهاية المقامة بقوله : « لما انفتح الباب ، وارتفع الحجاب ، واجتمعت الأحباب ، على الشراب ، اللذيذ المستطاب ، رتب الأفراح ، حيث ماديت الراح ، وبعد أن طار السكر والمحو ، ونزل الحضور والصحو ، رأينا شمساً طالعة ، مشرقة ساطعة ، والناس في ظلمة وليل ، وهرج وويل . فقلت : مابال الناس ؟ فقيل انهم في عمى وافلاس ، ومالكم ولهم ، انهم عالم ، وانتم عالم ، والله غالب على أمره ، الحاكم العزيز العالم » (٤٧) .

٦ – والمواقف متفاوت طول كل منها ، فبعضها عدة أسطر ( ٤٨ ) ، وبعضها في صفحة أو صفحات ، وأطولها الموقف الثامن والأربعون بعد المئتين الذي يتصدر الجزء الثاني ، وقد أخذ من الكتاب / ١٨٦ / ص ، لذلك قسمه المؤلف إلى حوالي تسعين قسماً ، سمى بعضها فصلا ، وبعضها تنبيهاً ، وبعضها اشارة ، وختمه بخاتمة في سبع صفحات ، مشيراً في نهاية الموقف على القارىء بأن يجعله – إذا شاء – رسالة مستقلة يسميها ( بغية الطالب ، على ترتيب التجلي بكليات المراتب ) (٤٨) .

٧ – ربع مواقف الكتاب ( ٤٩ ) تعليقات على أحاديث نبوية أو أحاديث قدسية وشروح لها ، ولأبيات في التصوف ( ٥٠ ) ، وأجوبة عن أسئلة ، وشروح لبعض فصوص الحكم لمحي الدين بن عربي ، وتوضيح لرسالة أحد المتصوفة ( ٥١ ) ، أما بقية المواقف

– وهي حوالي ثلاثة أرباعها – فشروح وتعليقات على آيات قرآنية .

وطريقة المؤلف في عرض مواقفه متشابهة :

يبدأ الموقف بذكر رقمه ، ثم يروي الآية أو الحديث أو السؤال أو القضية ، ثم يمضي في عرض وجهة نظر أهل الظاهر ، ثم وجهة نظر المتصوفة ، ووجهة نظره هو في ذلك .

٨ – وفي المواقف شعر كثير : شعر للمؤلف كالقصيدة الطويلة التي رواها في فاتحة الكتاب (٥٢) والقصيدة التي ختمه بها (٥٣) . وشعر لبعض المتصوفة لا يسمى قائله كهذين البيتين :

فلو أني ظهرت بلا حجاب
لتيمت الخلائق أجمعيـــين
ولكن في الحجاب لطيف معنى
به تحيا قلوب العاشقين (٥٤)

وشعر لابن الفارض (٥٥) وشعر كثير لمحيي الدين بن عربي ، ويشير إليه دائماً بالشيخ الأكبر (٥٦) وقد يسميه باسمه ، وقد يكتفي بهذه التسمية.

ولا تستغرب كثرة الشعر في المواقف، فالأمير نفسه شاعر له ديوان ، وأغلب المتصوفة شعراء كبار ، والشعر ديوان العرب وسجل شرفها ومفاخرها ، لذلك كان عبدالقادر كثيراًمايستشهدبهذا البيت :

إذا جهلت مكان الشعر من شرف
فأي مفخرة أبقيت للعرب ؟ (٥٦)

٩ – ويبقى أن نشرح مايراد بعنوان الكتاب ( المواقف ) . لم يقدم المؤلف لنا شرحاً لهذه الكلمة ولا لما أراده لها ، فكأنه اكتفى بما عرف عنها في مواقف ( النفري ) وهو أول من استعملها عنواناً لكتاب ، كما قدم شرحاً لها في الموقف الثامن وهو بعنوان ( موقف الوقفة )(٥٧)، كما أن محي الدين بن عربي قد قدم شروحاً لها في الفتوحات المكية (٥٨) .

فالمواقف لغة : ج موقف ، وهو اسم مكان من الفعل وقف يقف وقفة .

وقد خصص النفري الموقف الثامن ( للوقفة ) ، وقدم لها في ثماني صفحات شروحاً صوفية بالطبع ، وهي الشروح التي التمس منها ( آرثر جون آربري ) في مقدمته باللغة الانكليزية معاني كلمات وقفة وواقف ، ومعرفة وعارف ، وعلم وعالم ، ورؤية وغيبة ، وسوى وغير ، وحرف ، وكون ومعنى واسم وحروف ، (٥٩) ، فالوقفة (٦٠) ينبوع العلم وروح المعرفة وحضرة الله وباب رؤيته ونوره الذي لا يجاوره الظلم ، وهي نار الكون التي تنفي ماسواها كما ينفي العلم الجهل . والواقف علم كله ، حكم كله ، لا يروقه الحسن ،

ولا يروعه الروع ، وهو من أهل الله يعرف ولا يعرف ، ويموت جسمه ولا يموت قلبه .

ويذكر محي الدين بن عربي في الفتوحات المكية ( المواقف ) قائلا « فالانسان السالك إذا انتقل من مقام قد أحكمه وحصله، إلى مقام آخر ليحصله أيضاً يقف بين المقامين وقفة يخرج فيها عن حكم المقامين ، ويعرف فيها آداب المقام الذي انتقل إليه ، فإذا أبين له عنه دخل في حكم المقام الذي انتقل إليه . وقد بين ذلك النفري محمد بن عبد الجبار في كتابه المسمى بالمواقف » (٦٢) ويذكر في مكان آخر « أنه ما من منزل من المنازل ، ولا مقام من المقامات ولا حال من الحالات ، إلا وبينها برزخ يوقف العبد فيه يسمى ( الموقف ) ، وهو الذي تكلم عنه صاحب ( المواقف ) في كتابه ، الذي يقول فيه : أوقفني الحق في موقف كذا ، فذلك الاسم الذي يضيفه إليه هو المنزل الذي ينتقل إليه أو المقام أو الحال ... وفائدة هذه المواقف أن العبد إذا أراد الحق أن ينقله من شيء إلى شيء ، يوقفه بين ماينتقل عنه ، وماينتقل إليه ، فيعطيه آداب ماينتقل إليه ويعلمه كيف يتأدب بما يستحقه ذلك الأمر الذي يستقبله ، فان للحق آداباً ، لكل منزل ومقام وحال ، إن لم يلزم العبد فيها الآداب الالهية ، طرد وهو يجري فيها على مايريده الحق من الظهور بتجليه في ذلك الأمر » (٦٣) .

يفهم مما سبق أن ( الموقف ) مكان روحي يفصل بين منزلتين ، يقف فيه السالك طريق الصوفية لتعلم علم المنزلة التي يريد الارتقاء إليها ، وليتزود بالزاد اللازم لمن يريد الحياة فيها .

## خاتمة

قدمنا في هذا البحث عرضاً سريعاً لحياة عبدالقادر الجزائري ودراسته وآثاره ، وتحدثنا عن تصوفه : أسبابه ومظاهره ومؤلفاته ، ثم تحدثنا بشيء من التفصيل عن كتابه المواقف : متى ألفه وأين ؟ ولماذا أسماه ( بالمواقف ) ؟ ودرسنا الكتاب من ناحية الشكل .

بقي القسم الهام من هذا البحث ، وهو التعريف بمضمون الكتاب وعرضه ودراسته وتقييمه ، ومقارنته بكتب الصوفية الأخرى ، وبخاصة الكتب التي حملت العنوان نفسه . لم يتيسر لي هذا حتى الآن فقراءة كتاب في التصوف يقع في حوالي ١٥٠٠ ص ، تتطلب مدة لا تقل عن ستة أشهر ، ونحن على موعد مع الندوة بعد شهر ونصف . على أن ذلك لا يعفينا من العودة إلى الكتاب ، وقراءته قراءة عميقة ، ثم كتابة بحث مفصل في أفكاره وماتحمل من تقليد لمن سبق ، وجديد يعطيها ميزة، أو قيمة .

في انتظار ذلك نشعر بالسعادة تغمر قلبنا بعد أن عشنا مع عبدالقادر الجزائري أميراً مجاهداً ، ونبيلا شجاعاً ، ثم متصوفاً كبيراً ، ومؤلفاً في هذا القسم الهام جداً من التراث العربي والإسلامي .

## حواشي البحث ومراجعه

(١) طبع الكتاب بين عامي ١٨٥١ و ١٨٦٠ ، وطبع ثانية عام ١٨٧٧ . وهي الموجودة بين أيدينا ، والتي اعتمد عليها في الترجمة علي مبارك باشا عام ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٨ م، وعادل زعيتر في سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .

(٢) ترجم له في مقدمة كتابه ( ذكرى العاقل وتنبيه الغافل ) من ص / ١ / إلى ص / ٨ / وفي معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة جـ ٥ ص / ٣٠٤ / ، مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٧٧ – ١٩٥٨ – وفي الأعلام لخير الدين الزركلي جـ ٤ ص / ١٧٠ / – وفي روض البشر لجميل الشطي ص ١٥٣ – وفي مقدمة ديوانه بقلم الدكتور ممدوح حقي ( ص ٣ – ١٢ ) – وفي معجم المؤلفين ثبت كامل بكل ما كتب عنه في الصحف والمجلات حتى سنة صدور الكتاب ( ١٩٥٨ ) .

(٣) حققها وأشرف على طباعتها الدكتور ممدوح حقي . وقد اعتمدنا على الطبعة الثانية الصادرة عن دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر في بيروت عام ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م

(٤) مقدمة ذكرى العاقل ص ١ ، وتحفة الزائر ص ٩٣١ و ٩٣٢ .

(٥) النص الكامل للبيتين في تحفة الزائر ص / ١٥٧ / وما بعدها .

(٦) ممدوح حقي ، مقدمة ديوان الأمير ص / ٣ / .

(٧) من كلمة الأمير عبد القادر لخاصته قبيل استسلامه في شهر المحرم سنة ١٢٦٣ هـ / و ١٨٤٧ م – تحفة الزائر ص / ٤٩٨ / .

(٨) مقدمة ذكرى العاقل ص / ٢ / .

(٩) من كلمته في تحفة الزائر ص / ٤٩٨ ، ٤٩٩ / .

(١٠) تحفة الزائر ص / ٤٩٩ / .

(١١) المصدر السابق ص / ٥٠٠ / .

(١٢) المصدر السابق ص / ٥١٦ / .

(١٣) المصدر السابق ص / ٥٢٢ / .

(١٤) تحفة الزائر ص / ٨٥٧ / .

(١٥) من رثاء ولده ص / ٨٥٧ / .

(١٦) تحفة الزائر ص / ٦٣٣ و ٦٣٤ / .

(١٧) تفصيل ذلك في تحفة الزائر ص / ٦٣٦ / وما بعد .

(١٨) القصائد في تحفة الزائر من ص / ٦٤٥ حتى ص ٦٦٣ / .
(١٩) مقدمة ذكرى العاقل ص / ١ / .
(٢٠) تحفة الزائر ص / ٩٣٢ / .
(٢١) الأسئلة والأجوبة هذه موجودة في سيرته ، وبعضها مورد بنصه الحرفي . تنظر تحفة الزائر ص / ٣١٦ / . و ص / ٣٨٤ / ومابعد ، و ص / ٤١١ / ومابعد ، و ص / ٦٧٧ / ومابعد وفيه ذكر السؤال الذي وجهه لعلماء مصر ، وجواب الشيخ حسن العدوي عن سؤاله . . . وكذلك إجابته عن اسئلة العلماء الأعلام ص / ٨٢٣ / ومابعد ، واجابته حول الرؤيا والحلم ص / ٨٣٤ / ...
(٢٢) مقدمة الديوان ص / ٧ / ، وأجوبته عن أسئلة الجنرال ( دوماس ) في تحفة الزائر من ص / ٧٣٠ / إلى ص / ٧٦٥ / .
(٢٣) ذكرى العاقل ص / ٣ / .
(٢٤) تحفة الزائر ص / ٦٩٤ و ٦٩٥ / .
(٢٥) تحفة الزائر ص / ٢٤٤ / ومابعد ، وهناك تعريف بالرسالة ، ونقل الباب الثالث منها .
(٢٦) تحفة الزائر ص / ٩٩٧ / .
(٢٧) المصدر السابق ص / ٦٩٤ / .
(٢٨) المواقف جـ ١ ص ٤ .
(٢٩) المصدر السابق ص / ٢٠١ / .
(٣٠) المصدر السابق ص / ٢٢ / .
(٣١) ينظر مثلا تفسيره لقوله تعالى ( وإياك نستعين ) في الموقف الثاني جـ ١ ص ٢٥ ومابعدها .
(٣٢) الخبر والقصيدة في تحفة الزائر ص / ٦٩٥ / وما بعد .
(٣٣) المواقف جـ ١ ص / ٣ / . .
(٣٤) أحمد عطية الله ، القاموس الاسلامي مادة ( رباط ) جـ ٢ ص / ٤٨٧ / .
(٣٥) نسبة المفصل في تحفة الزائر ص / ٩٢٣ / .
(٣٦) المواقف جـ / ١ / ص / ٣ / .
(٣٧) طبع بالقاهرة عام ١٩٣٤ بمطبعة دار الكتب المصرية ، وأشرف على تصحيحه وتنقيحه وترجمته إلى اللغة الانكليزية أرثر يوحنا اربري . يقع النص العربي في / ١٤٢ /

ص ، والنص الأنكليزي في مائة صفحة ، مع مقدمة ممتازة باللغة الأنكليزية كتبها المستشرق اربري . وقد طبع النص الأنكليزي في لندن عام ١٩٣٥ .

(٣٨) ايضاح المكنون ج / ٢ / ص / ٦٠٠ / ، والتعريف به في الاعلام للزركلي ج / ٤ / ص / ١٦٩ / .

(٣٩) التعريف به في الأعلام للزركلي ج / ٤ / ص / ٢٣٦ / .

(٤٠) تحدث عن ذلك بالتفصيل المستشرق آربري في مقدمة ترجمته لمواقف النفري التي أشرنا إليها في ص / ٨ و ٩ و ١٠ / من المقدمة . وقد ذكر محي الدين بن العربي كتاب المواقف مرتين في الجزء الأول من الفتوحات ( في ص ٥٠٥ وص ٧٧١ ) وثلاث مرات في الجزء الثاني من الفتوحات ( ص ١٨٧ ، ٨٠٥ و ٨٢٧ ) طبعة القاهرة لعام ١٢٩٣ هـ .

(٤١) المواقف ج / ١ / ص / ٤٠ / مثلا ، حيث يقول : « إلى أن من الله علي بالمجاورة في طيبة المباركة » ، و ج / ١ / ص / ١٤٣ / حيث يقول « أني لما بلغت المدينة طيبة ، وقفت تجاه الوجه الشريف ... » .

(٤٢) تحفة الزائر ص / ٦٩٥ ، ٧٠٢ / .

(٤٣) التسمية أطلقها ابنه في ( تحفة الزائر ) ص / ٥٠٣ / ، بعد أن سمى المرحلة السابقة ( السيفية ) لأنها مرحلة الجهاد بالسيف .

(٤٤) المواقف ج / ٣ / ص / ٢٨ / .

(٤٥) المواقف ج / ١ / ص / ٧ / .

(٤٦) انتبه المشرف على طبع الكتاب إلى عدم انطباق كثير منها تمام الانطباق على اللغة العربية والقريض ، وعلل ذلك بصدورها من المؤلف على أسلوب الجذب في المقالات . المواقف ج / ١ / حاشية الصفحة (/ ٢٠ / .

(٤٧) المواقف ج / ١ / ص / ٢١ / .

(٤٨) الموقف رقم / ٢٢٧ / وهو في الجزء الأول ص ٤٥٠ / ويقع في سبعة أسطر .

(٤٨) الموقف ج / ٢ / ص / ١٨٦ / .

(٥٩) ثمانون موقفاً من / ٣٧٢ / موقف .

(٥٠) الموقف رقم / ٣٤٥ / ج / ٣ / ص / ٦٠ / .

(٥١) توضيح رسالة الغيب لصدر الدين القونوي في الموقف ٣٦٨ ج / ٣ / ص / ٣٢٩/ وما بعد .

(٥٢) ج / ١ / من ص / ٧ إلى ٢٠ / .

(٥٣) ج / ٣ / ص / ٣٧٢ و ٣٧٣ و ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٧٦ و ٣٧٧ / .

(٥٤) ج / ١ / ص / ٨٤ / .

(٥٥) ج / ١ / ص / ٩٥ / مثلا .

(٥٦) ج / ١ / ص / ٩٥ و ١٨٧ / و / ١٩٢ و ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٢٥ / ، وغيرها كثير في كل أجزاء الكتاب .

(٥٦) مقدمة ديوانه ص / ١٠ / .

(٥٧) النفري ، المواقف ص / ٩ — ١٦ / .

(٥٨) الفتوحات المكية لمحي الدين بن العربي طبعة القاهرة لسنة ١٢٩٣ / ج / ١ / ص / ٥٠٥ / و ج / ٢ / ص / ٨٠٥ / .

(٥٩) مقدمة الترجمة الانكليزية للمواقف بقلم آرثر يوحنا آربري Arthur John Arberry من ص / ١٤ / إلى ص / ٢٤ / .

(٦٠) ص / ١٤ و ١٥ / من القسم الانكليزي .

(٦١) ص / ١٥ و ١٦ / من القسم الانكليزي .

(٦٢) الفتوحات المكية ج / ١ / ص ٥٠٥ / .

(٦٣) المصدر السابق ج / ٢ / ص ٨٠٥ / .

* *

## رسالة باريس

# تظاهرات فنية حضارية كبرى[1]:
# الإسلام والبوذية

فايز مقدسي



**الاسلام :**

١ – لعل المعرض الضخم العالمي المقام حالياً في الفاليري الوطنية من « لو غراند باليه » في باريس تحت عنوان « الاسلام » ، والمعرض الثاني : « آلهة وشياطين من الهمالايا » المقام في قسم أخرمن المكان ذاته ، من أهم التظاهرات الفنية الثقافية ذات المحتوى الحضاري التاريخي والديني التي شهدتها باريس التي ودعت منذ وقت وجيز مومياء « رمسيس الثاني » باحتفال رسمي كما يودع رؤساء الدول عادة .

المعرض الأول – الاسلام – بثرائه الفني وغناه الجمالي ، ( حيث جلبت الآثار والقطع الفنية من كافة متاحف العالم ) ، يتيح للغرب أن يتعرف عن كثب وبتمعن من خلال خط تصاعدي تاريخي على نماذج تمثل الانتاج الفني للحضارة العربية وخصوصاً في فترتها الاسلامية بدءاً من القرن الثاني قبل المسيح وصعوداً إلى القرن الثامن عشر على وجه التقريب حيث يغلب الطابع التركي على الفن نتيجة الاحتلال العثماني.

الاقبال العجيب على زيارة المعرض يعبر عن تعطش الجمهور الغربي لمشاهدة آثار تعتبر شاهداً تاريخياً على الدور الذي لعبه العرب في تاريخ الارتقاء الإنساني .

قدم المعرض بنشرة تضمنت نبذة تاريخية عن العرب وعن نشوء الاسلام ، حيث استعرضت النبذة تاريخ ومراحل تطور الحضارة العربية بدءاً من الأزمنة القديمة لحضارة سبأ في اليمن التي كانت أول تمثيل ظاهري للذهنية السامية وانتهاءاً ببداية العصر الحديث مع التوسع في الحديث عن الفترة الراشدية والعهد الأموي والعهد العباسي والاشارة إلى تفاعل الحضارة والثقافة العربيتين مع بعض المعطيات الثقافية لشعوب اعتنقت الاسلام أو خضعت للسيادة العربية ، ثم تحليل موجز لبعض نماذج الفن العربي الاسلامي كالخط وتفرعه إلى كوفي ونسخي . . . وتحليل عام وشرح لمنطلقات الهندسة العربية كما تجلت في بناء الجامع الأموي بدمشق وبعض القصور والمنشآت الأخرى .

كما تشير النبذة السالفة الذكر إلى امتداد التأثير الثقافي العربي إلى الهند والصين وتأثر العرب بالمقابل بثقافات هذه البلدان بالإضافة إلى اشارات وجيزة عن العلاقة بين الثقافة العربية الاسلامية والثقافات القبطية المصرية والسورية القديمة والسريانية والبيزنطية والفارسية واليونانية .

أما ماتبقى من النشرة فقد خصص للتحدث عن الفن الاسلامي في بلدان اسلامية غير عربية كإيران وتركيا والهند خصوصاً في فترة الأباطرة المغول ، ولاعطاء فكرة عن الحياة الاجتماعية وعن مجالات اللهو والصيد والحرب والثقافة .

## ٢ — الاثار المعروضة :

تحتوي القاعات المخصصة للاسلام على مايقارب من ( ٧٠٠ ) أثر فني متوزعة على النحو التالي :

١ — منحوتات حجرية من عدن واليمن القرن الثاني قبل الميلاد .

٢ — منحوتات وموزايك وفسيفساء ايرانية ومصرية أهمها لوح حجري مزين بقطع من الرخام الملون يمثل طائر العنقاء الخرافي الكنعاني وجد في انطاكية ( سورية ) القرن الخامس الميلادي .

٣ — الواح حجرية من صور ( لبنان ) القرن السادس الميلادي ومن طيبة القديمة ( مصر ) لوحة تمثل شخصاً انسانياً تقترب جداً من فن التصوير الايقوني — القرن الثالث الميلادي .

٤ — أحد أهم الالواح الحجرية من حيث القيمة التاريخية هو لوح وجد في حوران ( سورية ) — القرن الرابع ميلادي وقد دون عليه خط يشير إلى إعلان « امرؤ القيس » ملكاً على جميع العرب . ولعل هذا الخط من أقدم الخطوط العربية التي وصلتنا حتى الآن .

٥ — من بين القطع الفنية العربية

الاسلامية هناك اشكال واحجام زجاجية وعاجية وكريستالية مزخرفة تتنوع مابين أباريق ومحابر وتصاوير وصحون وصواني تزين حوافيها نقوش وكتابات ويعود أكثرها إلى القرن الرابع عشر ميلادي من مصر وسورية والعراق وإيران . بالإضافة إلى لوح حجري من فلسطين يحمل كتابة بالخط العربي ويرجع إلى القرن السابع - الثامن الميلادي.

٦ - يلاحظ المرء تشابهاً غريباً بين نقوش وزخرفة النوافذ الخشبية السورية ومثيلاتها الاندلسية ( قرطبة ) . وبينما تعود النقوش السورية إلى القرن الثامن فإن النقوش الاندلسية تصعد إلى القرن الرابع عشر م . ويمكن ملاحظة التشابه ذاته في بقايا أعمدة كانت تشكل أجزاء من قصور وجوامع وكنائس ( الرصافة - سورية ) ق ٨ - ٩ م - وفي لوحات قماشية ونسيج ( غرناطة ) ق ١٤ م .

٧ - يحتوي المعرض على نسخ فريدة ونادرة لمخطوطات قديمة عربية لبعض الكتب الشهيرة ومنها قرآن اندلسي من القرن الرابع عشر م يعتبر آية جمالية ، ومصحف السلطان برلوق من مصر القرن ١٤ م . بالإضافة إلى صفحات متفرقة من بعض أقدم نسخ القرآن - القرن ١٠ - ١١ م .

٨ - الطابق الثاني خصص لعرض نماذج عن هندسة النوافذ والمصاريع والأبواب والمشربيات ، والتي تعود لبداية القرن التاسع عشر م . وهي هندسة زخرفية تقترب من زخرفة نوافذ الكنائس الملونة من حيث علاقة الزجاج الملون بالنور .

وقد ركبت النقوش والزخارف ، النحاسية المذهبة ذات الثقوب الصغيرة على قاعدة زجاجية متعددة الالوان مما يسمح الزجاج أن يعكس ألوانه المتعددة كلما وقع عليه الضوء فيرى المرء اشكالاً خلابة .

٩ - القاعة التي تلي قاعة النوافذ تحتوي على نماذج من الالبسة العربية ( المغرب وتونس ) وعلى تصاوير فارسية ق ١٦ - ١٧ م ، وعلى لوحات لبعض أباطرة إيران بالإضافة إلى احتوائها على أنماط من السجاد الإيراني والعربي باتت نادرة وتعد من التحف الجمالية من حيث زخرفتها ونقوشها ورسومها ودقة صنعها .

١٠ - بامكان المرء أن يرى ضمن واجهة زجاجية ضخمة أدوات جغرافية وحسابية وهندسية وبوصلات تعود للقرن التاسع والثالث عشر م . منها مسطرة نحاسية مزدوجة وكرة ارضية نحاسية مدورة تقوم على حامل ثبت على قاعدة مما يسمح للكرة بالدوران وقد رسمت عليها

جغرافيا العالم كما كانت معروفة في ذلك العصر . وهناك أيضاً اسطرلاب عربي قديم بالإضافة إلى احجام هندسية مختلفة من سورية والمغرب وايران .

١١ – ضم المعرض أيضاً باعتباره تمثيلا شاملا للفن الاسلامي بعض التصاوير والرسوم الهندية التي تعود للقرن السابع عشر والخوذات والدروع والبسة الفرسان والخناجر والسيوف والقؤوس والرماح والاعلام والبنادق الأثرية ، على نحو يكون فكرة جيدة عن المستوى الحربي العربي في القرون الوسطى وما بعدها . وقد رصعت بعض مقابض السيوف والخناجر واخمص البنادق باحجار كريمة مذهلة الجمال .

١٣ – قاعة خاصة لمخطوطات فريدة لكتب عربية جغرافية وفلكية ودراسات عن تحركات النجوم وكتب طبية بالإضافة إلى نسخة فريدة نادرة من كتاب « كليلة ودمنة » الشهير جاء من سورية ويرجع تاريخه للقرن الرابع عشر م .

١٤ – الطابق الثالث الأخير خصص لعرض الألبسة والجواهر وأدوات الزينة والسجاد . وقد زينت جدران القاعة بالواح الموزاييك مما خلع جواً شرقياً في ردهات القصر الكبير الذي احتوت قاعاته الفخمة على كنوز نفيسة من كنوز حضارتنا العربية .

– أثناء الزيارة يمكن للمرء أن يتابع عروضاً بصرية تقدمها الآن عرض سينمائية خاصة حيث نرى صوراً وأفلاماً وثائقية وشروحاً تاريخية عن أهم الآثار العربية الاسلامية بينما تدغدغ الأذن موسيقى عربية يقدمها الناي والعود وتبثها الأجهزة الكهربائية في جميع الصالات .

## البوذية :

٢ – الدخول إلى الصالات المخصصة لعرض الآثار البوذية ( التيبت والهمالايا ) ، هو دخول إلى مجال مقدس يكتنفه الغموض .. كل النصب البرونزية والذهبية والفضية التي تجسد « البوذا » أو آلهة أخرى مؤنثة ومذكرة ، تنظرك .. تحدق فيك دون أن تقول لك شيئاً . وعبثاً يبحث المرء عن لحظة انفعال تميز هذا الوجه من ذاك ، أو أن يحاول فهم معنى تلك الابتسامة الغامضة الخبيثة التي ترتسم على معالم وجه « اللاما » التيبيتي ، أهي انسانية أم مافوق انسانية ؟

هنا كل انفعال ينعدم لحساب الوعي الذهني وضبط الحواس الصارم ، وكل حركة تنعدم لحساب اللاحركة أو لحساب حركة أخرى معقدة .

وما بين مئات التماثيل الصغيرة والكبيرة التي تمثل آلهة وشياطين « تيبيتيين » ، محاطة بلوحات قماشية جدارية تقدم لك « اللاما » المقدس الاله المتجسد ، أو

الشخص الأهلي ، تداعب حاسة سمعك إيقاعات نحاسية بطيئة وموزونة لموسيقى شديدة التعقيد وأقرب إلى التجريد الحسابي، تخاطب ذهنك مباشرة وتنظم إيقاع الحركة الجسدية وتخلق هذا المناخ العقلاني الغريب فتحس وكأنك في معبد بوذي تمارس طقساً من طقوس اعدام الحواس ... إنك ما أن تعبر مدخل القاعة حتى تبدأ في فهم بعض معاني « النيرفانا » ، المعقدة .

والنيرفانا ليست الحضور و الغياب ، لا الظهور ولا الاختفاء ، أنها حالة لا أصل لها ، لا ينتظمها التطور ولا عدم التطور ، إنها كما يقول التقليد البوذي الفلسفي : « نهاية الألم . » أو النيرفانا .

— ٢ —

— أغلفة كتب من خشب محفور مطلي بالذهب تعود للقرن السادس عشر م . نقش عليها تجسيدات ناتئة تمثل « بوذا » عبر خمس وضعيات مختلفة وقد زينته جواهر صغيرة واحجار كريمة ، وكل وضعية جسمانية من الوضعيات الخمس للبوذا تمثل مرحلة روحية من مراحل ارتقاء القديس وتصعيده الذاتي ، وتساهم حركة الأيادي والأصابع في تكثيف الرمز .

ولما أن النظام البوذي يقوم أصلا على إخضاع الجسد وقهره فإن الحركة الجسدية تصل إلى أقصى تعقيدها الداخلي في تمثال رائع من البرونز للإله الشفيع — Samvara — القرن ١٦ م. حيث يمكن رؤية وجهه من الجهات الأربع تحوط جسمه أذرعة متعددة ، يحتوي في اثنتين منهم ، إمرأة ، ويملأ ما تبقى من أذرعة باسلحة مهلكة ، قاسي الملامح ، شرس ، ودموي وبدائي التعبير . وينتهي التمثال بخوذة معدنية تغطي رأس الاله وتوحد رؤوسه الأربعة .

إن دراسة حركة الأقدام في تمثال الاله الشفيع وكيفية تداخلها المعقد في بعضها البعض على نحو رمزي في حركة راقصة ذات مغزى جنسي توحيدي ، أمر يلوح مستحيلا حتى وإن تابع المرء تقصي ذات الحركية المعقدة للجسد في تمثال توأم يمثل الاله — Hevajra — ١٦ — ١٧ م متعدد الأوجه .

هذا التكثيف للحركة الجسدية يكتسب ملامح أكثر شفافية في تمثال برونزي يمثل الآلهة — Vajravârâhi — ١٧— ١٨ م التي يتسم وجهها بالقسوة ويزين رأسها تاج ينتهي على شكل حيوان . وتقدم الآلهة لنا وهي تؤدي حركة راقصة يستند جسدها من خلال الحركة على ساق واحدة وقد اتخذ انتصابها الجسماني أوضاعاً راقصة رمزية طقوسية . .

فإذا نظرنا بتمعن إلى قطع القماش واللوحات المنسوجة التي تمثل آلهة منوعة من الهمالايا والنيبال ، تلاحظ احتفاء

الحركة العنيفة والميل إلى السكون الجسماني لأن الانفعال هنا يبدأ في التلاشي حتى ينعدم في لوحة تمثل الاله Bon - Po .

– ٣ –

الأسلوب الفني أو منهج النحت والتصوير البوذي في محاولته لاقصاء الوضع الانفعالي عن المنحوت الذي يمثل شخصاً متألماً ، ينحو نحواً مخالفاً ويعتمد وسيلة إبراز معاكسة حين يبدأ في تقديم الانموذج النقيض للاله ، أي : الشيطان أو الملعون ، أو الحارس وفق التقليد البوذي .

في تقديم هذه النماذج عن حرس القوانين تتحول اللوحة أو التمثال إلى مجال حيوي يضج بالحركة وبالانفعال التي رأينا أن التمثل الآلهي يفتقدها . ففي « حارس قانون الـ : « Mahakala » ق ١٨ م . نرى وجهاً تنعدم القرابة بينه وبين وجه البوذا أو اللاما . والسبب الفلسفي في ذلك أن البوذا ، مرسوماً أو منحوتاً ، إنما هو حالة رمزية لما وراء الحواس ، عن شخص امتلك ارادته وتوصل إلى نقطة قصوى من التركيز الذاتي فاضحى منوراً . لأن :

« الذي يقدر على نسيان حواسه فلا يضعف أمام التجربة هو منور . . والذي يصبح كائناً بلا رغبة لأنه عرف الحقيقة هو منور . . »(١) أي أننا نقع هنا على حالة ذهنية متعالية ومقدسة : نهاية الألم . بينما يقدم الأنموذج الثاني حالة رمزية عن عالم الحواس والرغبات ، عن مخلوقات « ... غارقين في أمور تافهة . . »(٢) ، أي عن عالم منحط يطمح النظام البوذي أساساً إلى تجاوزه . فلا غرابة إذن في هذه الأجواء المحمومة الانفعالية الحسية التي تميز العالم الملعون ، والتي يبرزها الفن البوذي الرمزي من خلال رسم الجسد على نحو خاص يهتم بابرازه والتأكيد عليه بالوان صارخة وتضخيم حجم البطن ، بعكس اللوحات التي تمثل « اللاما » والتي تميل إلى اللون الأصفر الباهت وإلى إقصاء الشكل لان المتألهة . . « . . ماوراء كل شكل . . وماوراء الحركة والفعل . . »(٣) .

ويتميز حرس القوانين بشكلهم الشيطاني الوحشي الغولي ، تحوطهم علامات الموت والخراب ومخلوقات اثوية ترمز إلى الحواس. وأفضل مثال على ذلك لوحة من القرن الثامن عشر م ( تيبت ) تمثل حارس قانون

(١) البهاجافاد جيتا .
(٢) مزامير – توكارام .
(٣) البهاجافاد جيتا .

Mahākāla حيث نرى الحارس الرهيب الضخم الجثة له شكل غول رهيبة ينتصب في جو سبق لنا وصفه .

ولما كان التعليم الفلسفي الهندي يقول بأن الحركة كامنة في اللاحركة ؛ فإن حركة الحواس المتمثلة في الفن البوذي هي حركة غير حقيقية ، ويقدم لنا الجمود أو الذهول النيرفاني نموذجاً عن حركة أخرى معقدة ومتطورة وإن بدت ساكنة .

بقي أن نشير إلى احتواء المعرض على نصوص بوذية قيمة وعلى رسوم تمثل الجحيم هي أشبه بالرسوم السريالية ، ويقدم العالم عبرها من منظور عضوي متجانس وهي رسوم تعود للقرن التاسع عشر م ويمكن مقارنتها مع رسوم « جيروم بوش » وهي تمثل في أكثرها حركة وأفعال إله الموت .

باريس

## مناقشـات

# النحو واللغة

محمد الكسار



أصدرت المعرفة(*) عددها الممتاز ١٧٨ كانون الأول ١٩٧٦ تحت شعار « اللغة العربية والعصر » . وقالت على لسان رئيس تحريرها الأستاذ صفوان قدسي في مقاله الافتتاحي بأن محاولتها قد نجحت في رسم خارطة تفصيلية للمشهد اللغوي العربي المعاصر ودعت في الوقت نفسه إلى إثارة حوار جاد حول الموضوع المطروح للمناقشة بهدف سد أي نقص يمكن أن يكون قد أصاب محاولتها التي سعت – حسب رأيها – إلى أن تكون في مستوى الموضوع الخطير الذي تعالجه .

وقد أتيح لي في حينه الاطلاع على العدد المذكور فقرأته قراءة فاحصة مستأنية ولبيت دعوة المجلة إلى فتح باب الحوار . فكتبت مقالي الأول في مجلة الثقافة لشهر كانون الثاني لعام ١٩٧٧ م . تحت عنوان :

« على هامش عدد اللغة الممتاز لمجلة المعرفة » .

وقد رددت فيه على المقال الافتتاحي لرئيس التحرير لاعتقادي أنه يشتمل على تلخيص مجمل للمحاولة في خطوطها العريضة .

ورغم مضي مايقارب ستة أشهر على

(*) هذا المقال يناقش ماكتبه الأستاذ ( يوسف اليوسف ) في عدد حزيران ١٩٧٧ من المعرفة .

المقال المذكور فإن « المعرفة » لم تبادر للرد عليه .

وفي عدد آذار ١٩٧٧ لمجلة الثقافة نشرت مقالتي الثانية التي تناولت فيها الوحدة التي أريد لها أن تحتل مكان الصدارة وركزت بصورة خاصة على مقالة الأستاذ يوسف اليوسف « نحو فلسفة اللغة العربية » لاعتقادي بأنها تعبر عن فكرة الوحدة بوضوح أكثر من المقالين الآخرين وهما :

١ – الأسلوب وجدلية اللغة العربية للأستاذ فايز مقدمي .

٢ – العلاقة الجدلية بين اللغة والشعر للدكتور أحمد سليمان الأحمد .

وفي العدد ١٨٤ حزيران ١٩٧٧ نشرت « المعرفة » مقالا للأستاذ يوسف اليوسف رداً على مقالي المنشور في الثقافة عدد آذار ١٩٧٧ تحت عنوان : « مناقشات ضد عقلانية اللغة » .

وعلى هامش هذا المقال قالت المعرفة :

شرع الأستاذ الكسار في كتابة سلسلة مقالات في مجلة « الثقافة » حول عدد « اللغة العربية والعصر » الذي أصدرته المعرفة وكان مقاله الأول في الرد على مقال رئيس التحرير الذي نشر في العدد المذكور وسوف تعود « المعرفة » في وقت لاحق ، إلى إثارة الحوار حول هذه السلسلة من المقالات بعد الانتهاء من نشرها .

وإني اذ أحمد للأستاذ اليوسف مبادرته للمشاركة في الحوار وإذ آمل أن تفي « المعرفة بوعدها » لأرجو مخلصاً أن يكون من وراء هذا الحوار الهادئ الرصين البعيد عن الانفعالات خير كبير للغتنا العربية التي نشترك في حبها بل وتقديسها وإن تفرقت بنا السبل في إظهار هذا الحب والتقديس .

لقد جاء رد الأستاذ اليوسف علي – وهو في طليعة الشباب الذين أعتز بصداقتهم وأرجو للغتنا الخير على يديهم – بعيداً عن الانفعال العاطفي وإن لم يخل – من وجهة نظري – من وخزات خفية وناعمة .

لقد استهل الأستاذ اليوسف كلمته بقوله :

أحترم في الأستاذ محمد الكسار سعة إطلاعه على النحو العربي الموروث عن الأوائل كما احترم فيه تلك المحاولة التي بذلها من أجل تبسيط الإعراب والتي لقيت صدى واستحساناً لدى بعض الجامعات الأجنبية ، وكأني بالكاتب يريد بقوله هذا أن يوحي للقارئ بأن محاولتي من وحي أجنبي .

وتصحيحاً لما قد يثيره هذا الكلام من التباس فإني أبادر إلى القول إظهاراً للحقيقة ووضعاً للأمور في نصابها الصحيح :

لقد نشرت محاولتي على الناس في

شهر أيار من عام ١٩٧٦ م . في أول كتاب من سلسلة « النحو المعرب » التي أنا في صدد إخراجها تباعاً وقد سميته « المفتاح لتعريب النحو » . وقد شكلت في كل من مجمعي اللغة العربية بدمشق والقاهرة وبناء على طلبي لجنة خاصة من أعضاء المجمعين لدراسته وتقييمه . كما وزعته على عدد كبير جداً من ذوي الاختصاص في العالم العربي، وقد وردتني بعض التعليقات عليه ومازلت أتوقع عدداً آخر منها قبل أن أعمد إلى نشر الكتاب الثاني من السلسلة « لباب الإعراب » .

وقد تفضل دكتور السيد رزق الطويل مدرس اللغويات بكلية الدراسات الاسلامية والعربية بجامعة الأزهر ووافاني بتقرير مسهب عن النظرية اللغوية الجديدة التي تضمنها كتاب «المفتاح» جاء في الفقرة « د » منه مايلي :

من الطريف أن يسمي المؤلف نظريته « تعريب النحو » أي رده للصبغة العربية ، إلى بيئته وأمته الناطقة به . وكأنه يؤكد لنا من أول الأمر أنه تجديد جاء من واقع الأمة العربية وطبيعة لسانها ولم يأت هذه المرة من الغرب كما نعهد من نظريات أصحاب النظريات الذين يستوردون الفكر الغربي ليسكبوا يداً على لغتهم التي يرونها بعيدة عنه .

وأخيراً يختم الدكتور الطويل تقريره بالفقرة / هـ / فيقول :

. هذه النظرية في تقديري أمانة في عنق كل مشتغل بالنحو معنى به ، أن يحاول كل منهم من تعميقها وإمدادها بالبحوث والأدلة التي تساندها . حتى تأخذ بها أمتنا في يوم من الأيام . ولا تخافوا على التراث الضخم من كتب النحو القديم المملوء بالفكر الأعجمي فإن النظرية لم تهدمه وإنما تبسطه وتقدمه في قوالب عربية جديدة تنفي عن لساننا ماقيل عنه من غموض وتعقيد .

هذا وإنني احتفظ بردود خطية كثيرة من فطاحل علماء اللغة في عصرنا تثبت بما لايقبل الشك أن موقفي من فلسفة اللغة العربية قديماً وحديثاً يلقى كل التأييد . وأنا على أتم الاستعداد لنشر هذه الأقوال إذا اقتضى الحوار ذلك .

أما الرد على قول الأستاذ اليوسف :

شعرت حين قرأت رد الأستاذ الكسار أنه إنما كتبه ليتهجم على خصومه اللغويين المحدثين وهم خصوم تقليديون له .

فيكمن في طلب الرجوع إلى كتابي « المفتاح» – وقد أهديته نسخة منه – ليتأكد جيداً من أن النظرية اللغوية الجديدة التي تضمنها تأتي كحل وسط ومقبول جداً للرد على موقف جبهتين لغويتين متطرفتين ومتضادتين هما :

١ – جبهة المحافظين المقلدين التي ترى أن تغيير أي حرف في النحو الموروث جريمة بحق الفصحى لا تغتفر .

٢ – جبهة المجددين المهسترين – وأجل الأستاذ اليوسف عن أن ينسب إليها – وهي تدعو بصراحة إلى استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي واللهجات العامية المختلفة بالعربية الفصحى .

وقد حددت موقفي بوضوح من هاتين الجبهتين في مدخل مشروع « المفتاح » الذي نشرته في عام ١٩٧٣ م حيث قلت ما نصه :

«قارئي العزيز : لاشك أنك في قرارة نفسك بت تشفق علي وتعتبر إقدامي على اخراج هذا الكتاب ضرباً من المجازفة بسمعتي وكرامتي . فالمركب خشن والغاية بعيدة المنال ، والطريق إليها ملئ بالصخور والعقبات والألغام ، والزاد قليل . وإنك لتتساءل ماذا ستكون نتيجة هذه المجازفة ؟

وأسارع إلى تطمينك بأنني رجل واقعي في تفكيري لا تأخذ من الغرور مطية سهلة . فقد حددت هدفي في ضوء امكاناتي المحدودة وعنونت كتابي باسم « المفتاح » . وجل قصدي أن يقوم من بين الأجيال العربية الصاعدة من يحسن استخدامه فيفتح باب الاجتهاد في النحو على مصراعيه ليلج منه إلى داخل الهيكل المسحور في محاولة واعية وجريئة لاحداث انقلاب جذري في دولة النحو الأعجمية وإعادة صياغة النحو صياغة عربية خالصة تعتمد على أفضل مافي القديم والحديث من عناصر وأساليب لايستغنى عنها ، نافية جميع الشوائب والأوزان الدخيلة وأكون بعملي البسيط قد مهدت لوضع نحو عربي أصيل ومتطور ، يربط بين ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا بروابط متينة لا انفصام لعراها .

أما في الرد على دعوى الكاتب بأنني في ردي عليه لم أتناول أطروحاته بالتفنيد أو التمحيص شأني في ذلك شأن كل الردود التي كتبت من قبل ضد مقالة المعرفة الآنفة الذكر فلا بد لي من القول :

لورجع الأستاذ اليوسف إلى مقالي الأول وقرأه بروية وإمعان لأدرك بوضوح تام أنني لم أقصد من مقالاتي تحليل ماكتبه هو وما كتبه الآخرون في عدد المعرفة الممتاز تحليلا عاماً وشاملا لأتناول اطروحاته وأطروحات غيره بالتفنيد أو التمحيص ! وقلت في ذلك المقال :

هذا ولا بد لي من الإشارة مسبقاً إلى أن بحثي في هذا المقال والمقالات التي قد تليه سيقتصر على الجوانب التي لها مساس مباشر بالمشكلة اللغوية التي خصص عدد المعرفة لمعالجتها . وعلى نقد الحلول التي اقترحها بعض الباحثين .

وقلت في المقال نفسه أيضاً :

وفي جميع الحالات أراني مطالباً

بإعطاء رأي صريح في المحاولة وفي مدى النجاح الذي حققته في سعيها لرسم خارطة تفصيلية للمشهد اللغوي العربي المعاصر . وما إذا كانت أبحاث العدد قد نجحت فعلا في تغطية الجزء الأعظم من المشكلة المطروحة حسب اعتقاد المشرفين على المجلة ؟

وواضح من كلامي هذا أن نقدي منصب – وعلى وجه الحصر – على الذين خططوا للعدد لا على الباحثين أنفسهم وهم من مشارب شتى ! ولو نشر الأستاذ اليوسف مقاله في غير ذلك العدد من مجلة « المعرفة » ما كنت لأتعرض له ، فالذين يرون رأيه في ضرورة فلسفة اللغة العربية كثر وقد رددت عليهم في كتابي « المفتاح » بما فيه الكفاية .

أما ماذهب إليه الكاتب من أن العرب الأوائل ميزوا بدقة بين « نحوي ولغوي » فأمر لا يماري فيه أحد ، وهو يريد أن يعد من اللغويين لا من النحويين .

وما أخذته على « المعرفة » بوجه عام تقصيرها الفادح في معالجة المشكلة النحوية وكأني بها لم تعتبرها من صميم الموضوع المطروح للمناقشة هذا وإني إذ أحمد للأستاذ اليوسف أن يعلن تبرؤه من فلسفة جبر ضومط وإبراهيم أنيس التي تحارب حركات الإعراب ودعوته إلى أتمام ما بدأه « ابن جني » في بحث الاشتقاق . لأتوقف قليلا عند قوله :

« أنا أعتقد بأن مناهج التفكير التي صاغت عقلية الأستاذ الكسار تختلف كثيراً أو قليلا عن المناهج التي أخذت تصوغ عقلية جيلنا . ولهذا لا يمكن الالتقاء مع أناس يقفون ضد الفلسفة بوصفها المثل الأرقى للعقلانية » .

وأنا مع الكاتب في أن موقفي من أسرار اللسان العربي يختلف كثيراً عن موقف جيله من هذه الأسرار التي خفيت عليهم وعلى أساتذتهم من المستشرقين فراحوا يناصبونها العداء وقديماً قيل :

« الإنسان عدو لما يجهل » .

وفي نفس الوقت لا أظنني أذيع سراً إذا قلت إن عقليتي أيضاً تتناقض تناقضاً كبيراً مع عقلية التقليديين الجامدة على القديم ومعنى هذا أنني مضطر لأن أحارب في ميدان الإصلاح اللغوي على جبهتين . وأنا على أتم الاستعداد لمحاورة ممثلي الجبهتين ومناقشتهم بكل الموضوعية والعقلانية في آرائهم اللغوية تاركاً للرأي العام الواعي والمثقف من أبناء أمتنا من قراء المعرفة والثقافة أن يكون الحكم الحيادي والمنصف بيني وبينهم جميعاً .

وقبل أن أفرغ من ردي على كلمة الأستاذ اليوسف لا بد لي من التأكيد له ولغيره من الباحثين اللغويين المعاصرين بأن اللغة العربية في عصرنا الحاضر تعاني أزمة بالغة التعقيد والصعوبة وأن على من يعنيهم

مصير الفصحى أن يجندوا كل أمكاناتهم للتغلب عليها .

وهي أزمة «الإعراب وعلاماته» ، تلك الأزمة التي يقف منها الكاتب موقف الحياد أو اللامبالاة وينفي أن يكون له بها علاقة . وأنا في ردي عليه وعلى غيره ممن أسهم في عدد « المعرفة » إنما أردت إثبات هذه الحقيقة لأقول للمشرفين على « المعرفة » أنهم بإغفالهم بحث مشكلة الإعراب وعلاماته قد أغفلوا بالفعل الجانب الأهم من المشكلة اللغوية ولأدعوهم إلى تدارك هذا النقص الكبير في محاولتهم ثم لا يعنيني بعد ذلك كل ما وراء ذلك . لأنني أرى وألمس كيف تحشد القوى لإيهام المثقفين العرب المعاصرين — والأستاذ اليوسف واحد منهم — بأن الاستغناء عن حركات الاعراب لايؤثر في الفهم والافهام . فهو يقول :

إنني أتحفظ كثيراً إزاء كل طرح يقول بوجود أزمة لغوية، لأن العربية واسعة الصدر ، إذ باستطاعتك أن تقرأ وتخطئ في الإعراب دون أن يضيع المعنى إلا في بعض الأحيان النادرة .

وأخيراً أعود فأشكر للأستاذ اليوسف حوافزه الخيرة التي دفعته للرد على مقالي وآمل أن تتسع دائرة هذا الحوار البناء وأن يسهم فيه أكبر عدد ممكن ممن يعنيهم أمر هذه اللغة لعلنا نصل بالتالي إلى نتيجة إيجابية ترضى عنها العربية ويرضى عنها جمهور المثقفين على امتداد الوطن العربي الكبير . النبك ١٢ / ٦ / ١٩٧٧ .

★ ★ ★

مناقشات

# الانتظار السلبي وقوة الأمل

محمود منقذ الهاشمي



١

إذا كان النقاش حول السببية المطلقة في الكون قد آل إلى أنها « قضية خلافية » عند الأستاذ ميخائيل عيد الذي أحجم عن البرهنة العلمية عليها وظل مؤمناً بها ، وإلى أنها مسألة « أرى أن » عند الأستاذ زهير طحان الذي رأى أن « اللاسببية واللاحتمية معاً يحكمان عالم المادة » ، فإننا نكون جميعاً قد وصلنا إلى اتفاق واحد على الأقل هو أن الاعتقاد بالسببية المطلقة « لا يختلف في جوهره عن أي اعتقاد لا هوتي ، وبذلك يدخل هذا الاعتقاد ضمن القضايا الاعتقادية الإيمانية ، ويخرج عن دائرة العلم » ، كما ذكرت في « السببية والمنهج العلمي » .

إن ما بقي علي لأناقشه هو الاعتقاد بالسببية المطلقة ، لا من ناحية الصحة واليقين ، وإنما من ناحية الأثر والمآل . إلا أنني قبل أن أفعل ذلك سوف أقوم بتوضيح نقطة هامة في قانون السببية ، اقتضاه ما قرأته في مقالة الأستاذ يوسف اليوسف « ماالشعر العظيم » المنشور في عدد أيار من المعرفة ، حيث أراد أن يبحث في علة الجمال .

إن ما أغفله الأستاذ يوسف اليوسف هو أن العلاقة العلية علاقة بين شيئين دائماً ، وليست بين ظاهرة منفردة وظاهرة أخرى . فنحن نقول عادة عن الإنسان الذي تناول طعاماً فاتاً : إن تناوله ذلك الطعام علة موته أي أنه ما كان مات لولا تناوله ذلك الطعام . ولكن علينا أن نلاحظ أن الطعام

ليس العلة الوحيدة لموت ذلك الرجل بل يجب أن نضيف عوامل أخرى مثل تركيب جسم الرجل وحالته الصحية وربما بعض ظروف الجو . قد لا يؤدي تناول رجل آخر للطعام نفسه إلى موته إذا كان تركيب جسمه أقوى بناء وكانت صحته من القوة بحيث تكون لديه قدرة معينة على مقاومة مافي ذلك الطعام من مواد سامة . فالعلة في موت هذا الرجل إنما هي مجموعة شروط حين تجتمع تتم الوفاة . هذا هو المثال الذي ضربه مل على العلاقة السببية ، وهي أحرى أن نلمسها في علاقة الأثر الأدبي بجمهور القراء الذين أغفلهم الأستاذ يوسف اليوسف . إنني لا أدعو الناقد أن يدرس كل قارئ على حدة ، بل أن يدرس الاختلافات العامة بين القراء ، وهي اختلافات نفسية وثقافية واجتماعية تؤدي بالضرورة إلى اختلاف الاستجابة للعمل الأدبي . والناقد ، وهو يمثل أحد الاختلافات العامة ، ومتميز في آن معاً ، يؤدي دوره النقدي حين يقنع القارىء بنقده ، لا حين يسن قوانين عامة للاستجابة الفنية .

فالإحساس بالقهر قد يكون مقرفاً في بعض الأحيان ، ويستدعي بيتاً من الشعر لجون وبستر : « ضع حداً لنحيبك ثم اذهب بعيداً » . وما يفرح إنساناً من وضع اجتماعي معين قد لايفرح غيره . ولقد بدا لي من قراءتي لمقالته أنه يحسب أن للجمال وجوداً موضوعياً مطلقاً في الوجود على الإنسان أن يكتشفه . وليس الجمال والقبح مما ما نحب ونكره . وما نحبه أو نكرهه مرتبط ، ولاريب ، بتكويننا البيولوجي والنفسي وبوضعنا الاجتماعي وبثقافتنا وموقفنا من الحياة والإنسان . وكل ذلك ليس ثابتاً في كل واحد منا ، على الأقل ، ثبوتاً مطلقاً ، ولذلك فإن فن الناقد هو « الإقناع » لا تشريع قواعد عمومية إطلاقية ثابتة غير مقنعة في معظم الأحيان .

٢

إننا الآن ، وفي كل مرة ، نكتب دون أن يتملكنا ما يسمى في علم النفس الاجتماعي « الشعور بالفريق الذي يرى من واجبه أن يهزم خصمه » . وهو شعور أناني غير اجتماعي . وحتى التماسك بين أعضاء « فريق » واحد مع خصومة كل من يخرج عن هذا الفريق ليس بالشعور الاجتماعي الصحيح . إنما هو امتداد للأنانية .

٣

سوف نقوم أخيراً بتبيان أثر الاتجاه العلمي الخالص مستثيرين على ذلك بعلم النفس اليونغي والفرويدي . إن كارل غوستاف يونغ يبين لنا أن الحاضر لايتحدد بطريق الماضي ( العلية ) فقط ، بل يحدده المستقبل كذلك ( الغائية ) . يقول : « إن العقل يعطي من جانب صورة لما ترسب عن

الماضي ، ويعطي من جانب آخر صورة للمعرفة المتولدة بكل ما سيحدث ، وهذا بقدر ما تخلق النفس مستقبلها بنفسها » . ويشير إلى أن العلية والغائية مجرد طريقين تعسفيين للتفكير يستخدمها العالم للتنظيم ولفهم الظواهر الطبيعية ؛ فالعلية والغائية لايوجدان ذاتيهما في الطبيعة . ويبين أن الاتجاه العلي الخالص من المحتمل أن يؤدي إلى خلق الاستسلام واليأس لدى الإنسان ، لأن الإنسان من وجهة نظر العلية سجين ماضيه ، لايستطيع إبطال ما قدتم بالفعل وقوعه . ومن الناحية الأخرى ، فإن الاتجاه الغائي يمنح الإنسان شعوراً « بالأمل » وبوجود ما يعيش من أجله . ( إن الغائية التي نعنيها هنا هي الغائية الإنسانية لا غائية الكون ) .

وفي علم النفس الفرومي نتقدم خطوة أخرى لنميز بين الأمل الذي هو العنصر الحاسم في كل محاولة للارتقاء والتغيير الاجتماعي نحو دينامية ووعي وفكر أكبر ، وبين الانتظار السلبي الذي هو شكل مموه لليأس والعجز والجدب . فعند المنتظرين السلبيين رجاء ، ولكنهم لا يملكون ما يدفعهم إلى التصرف وفاقاً لحركة قلبهم ، وإذا لم يمنحوا الضوء الأخضر فإنهم لايكفون عن الانتظار . و « إذا كان الانتظار السلبي هو شكل مموه لليأس والعجز فثمة شكل آخر من القنوط والإرهاق ، يتخذ تماماً القناع المقابل – قناع اللفظية والمغامرية ، قناع اللامبالاة تجاه الواقع ، والدونكيخوتية » . ونميز كذلك بين الأمل الشعوري الذي قد نضطر إليه وبين الأمل اللاشعوري أو الباطني ونعلم إذا زال الأمل ماذا يحل بقول فروم : « إن النزعة التدميرية هي ، بلغة سيكولوجية ، البديل للأمل ، كما هو الموت بديل الحب والحياة والفرح بديل للغم » .

٤

لايمكننا بطريقة الشرح وحدها أن نفهم تماماً « الانتظار السلبي » ، ولابد لنا من أن نتقراه بصورة عيانية في ميدان التجربة . وههنا ندخل عالم الفن الذي هو من بعض النواحي أغنى من « العلم » لأن العلم يقدم لنا معرفة عن التجربة على حين أن الفن يقدم التجربة نفسها ، وتبدو قيمة الفن الرفيع من جهة أخرى في قدرته على امتصاص النتائج العلمية وعلى إغناء العلم بالفروض الجديدة .

وفي « التبين » Recognition ، لا في « التعلم » تكمن القيمة الأساسية للعمل الفني . ليس العمل الفني العظيم هو الذي يعلمنا ما لا نعرف ، وإنما حسبه أن يحيينا في « انكشاف » جديد يطلق فينا المشاعر النزوعية ويجعلنا « نتبين » ما كنا عرفناه أو مالم نعرفه بعد .

وها نحن نحاول أن نتبين « الانتظار السلبي » في قصة « وأزهرت شجرة التفاح »

لفاروق مرعشي المنشورة في عدد أيار من « المعرفة » . حيث يطلب إنسان محكوم عليه بالإعدام من مدير سجنه أن ينقله إلى سجن بلدته يقضي فيها آخر ساعات عمره فيودع شجرة التفاح الأثيرة إلى نفسه عبر نافذة السجن هنالك ، ثم يعود مع حراسه إلى زنزانته الإفرادية وينتظر . وفي انتظاره يستسلم لأحلام يقظته ، وهي أحلام لاتفارق شجرة التفاح والطفولة . وفي نهاية الانتظار يقتاده الخفير إلى مدير السجن الذي قال له :

( نأسف ... طلبك مرفوض ) !

وأضاف وهو يقلب الأوراق أمامه بلامبالاة . :

( ومع ذلك ... فإن شجرة التفاح قد اجتثت منذ زمن بعيد ) . وتنتهي القصة دون أن تنجح في إبانة الانتظار السلبي إبانة فنية ، فما يشوش على الانكشاف الفني إنما هو السجن والحكم بالإعدام اللذان يحيطان الانتظار السلبي بظلال قاتمة من التبرير تحجب الكثير من الصورة الحقيقية . وهيهات للانتظار السلبي المقهور من جهة ثانية أن يكون له من قوة التأثير في النفس ، ولاسيما بتلك الصورة المجدبة التي نرى فيهاسجيناً محكوماً بالإعدام ، ولا نعلم لماذا ، يرفض له طلب ما . فالقصة مختلة التوازن ، ولم تفلح في إيقاظ أي من مشاعرنا النزوعية أو تحفزنا إلى أي شيء . فهي فنياً خالية من القيمة . وسنرى على سبيل المفارقة كيف تدهشنا الموهبة العظيمة حينما تتعرض لموضوع مشابه ، وهي موهبة كافكا التي طالما قلده عدد من الشبان فأشبهوه إلا فيما يجعل من كافكا كاتباً ذا قيمة .

ففي أحد فصول « القضية » يصور لنا كافكا رجلا يصل إلى الباب الذي يؤدي إلى السماء ( الشريعة ) ويتوسل إلى الحارس أن يسمح له بالدخول ، فيجيبه بأنه لا يستطيع ذلك الآن . وعلى الرغم من أن الباب يظل مفتوحاً ، فإن الرجل يقرر أنه يحسن صنعاً لو انتظر حتى يحصل على الإذن بالدخول . فيمكث وينتظر أياماً وسنوات . ويستمر يطلب في انتظام السماح له بالدخول وهو يتلقى الإجابة نفسها على الدوام . وكان الرجل طوال هذه السنين يلاحظ حتى البراغيث التي تعلو ياقة الحارس . وفي النهاية يصبح طاعناً في السن ، وإذ يشعر بدنو موته ، يسأل أول مرة : « لم لم يسع أحد غيري ، طيلة هذه السنوات ، إلى الدخول ؟ » فيجيبه الحارس : « لم يكن في وسع أحد غيرك الوصول إلى هذا الباب ، لأنه كان مخصصاً لك . والآن فإنني أغلقه » .

إن الرؤية الفنية النفاذة هي التي جعلت باب الشريعة مفتوحاً ، وجعلت الرجل لا يقدم على أي فعل ( على الرغم من أن ما يحيط به يجعله حر الحركة ) سوى

الانتظار ، وصدمتنا بعدما عذبتنا بطول السنين الضائعة على باب الشريعة بأن الباب كان مخصصاً لذلك الرجل دون أن تكون الصدمة ناتئة على الحدث ، مما شحنتنا بعاطفة التدارك التي حرضتنا على قهر الانتظار السلبي فينا والتطلع إلى ما يمكننا أن نفعل ، وإلى أن الفرصة دون العمل غير ذات جدوى . « لو كان للرجل أكثر من هذا الانتظار السلبي لأمكنه الدخول ولأمكن لشجاعته في مخالفة إرادة البير وقراطية أن تكون الفعل المحرر الذي يمكن أن يقود إلى القصر المشع » .

ولا يبدو لي السجن ومديره مع الحكم بالإعدام في قصة المرعشي غير صورة حالة نفسية قاصرة عن الرؤية الفنية النفاذة ، وهي صورة « الظروف التي لا تتغير ولا ترحم » والتي هي الذريعة التي يتذرع بها المازوخيون دائماً لتبرير مشاعر الدونية والعجز والهوان والعذاب .

ولولا أنني أجد في فاروق المرعشي كاتباً موهوباً قادراً على تجاوز تقصيره ، وجديراً بالدراسة والتحليل ، لما كتبت عن قصته أي شيء .

* * *

# الأمانة العلمية في مجلة «العربي»

د. حسان الحاج ابراهيم

السيد رئيس التحرير :

قال : « ماسر هذا الهزال الملحوظ في مجلاتنا العربيات ، وسر ماتنشره من غيث وزبد ؟ » .

قلت : « هي أسباب عديدة وليست سبباً واحداً بينا ، ومنها ان لم يكن أهمها مانلحظه من استخفاف تلك المجلات بقرائها وكتابها » .

قال : « وكيف ذلك ؟ » .

قلت : « إن المجلات العربية تعامل كتابها وقراءها كدمى الزجاج التي تخشى عليها العطب من نقد أو خلاف في الرأي أو وجهة النظر ، أو تعامل كتابها وقراءها كما يعامل الطبيب أولئك المرضى الذين تماثلوا من الداء دون أن يتم شفاؤهم بعد ؛ فهو لا يزال يمنعهم أشياء ويحميهم من أشياء ، ويخشى عليهم انتكاس الداء بعد طول الرجاء ، وتعذر البرء بعد أمل الشفاء . »

وقد هممت غير مرة أن أستشهد على حديثي ذاك ببعض ماكان بيني وبين عدد من المجلات العربية ، ولكنني آثرت الصمت ، وتشعب بنا الحديث بعد ذلك حتى بعد بنا عن الصحف والمجلات . والقراءة والكتابة . ولكني أعود إلى البيت فأفكر في الذي كان بيننا من حوار ، ثم أهم بكتابة ذلك كله ، واستئمان ( المعرفة ) عليه ، ونفسي تنهاني عن ذلك ، وتحذرني منه أشد التحذير ، وكأني بها تقول : « إياك ثم إياك ، فهو والله جهد ضائع وسعي حرام ، واني لأربأ بمن كان في مثل سنك ودرايتك أن يخف حلمه ، فتغره الأحلام عن حقائق الأمور » .

ولكني لم أطمع نفسي ، ولم أستطع إلا أن أكتب اليكم بعد طول التردد والاحجام ، عن قصة واحدة أو طرفة نادرة مما كان بيني وبين مجلة من تلك المجلات ، ولذلك سبب تعلمونه في حينه ، وعلى الله التكلان .

. . . . . .

مبدأ قصتي منذ عام وبعض العام ، إذ قرأت في مجلة العربي الكويتية في عددها الصادر في شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٥ مقالا للدكتور فاخر عاقل لم يكن له ، وانما ترجمه عن أصل انكليزي دون أن يشير إلى ذلك أدنى إشارة . وقد أدهشني ذلك من الدكتور العاقل ، فكتبت لمجلة العربي رسالة بهذا الخصوص ، تجدون نسخة منها مرفقة مع هذا الكتاب ، أهملتها العربي شهوراً ولم تشر إليها ، وكأن لم يكن شيء .

فصبرت حيناً وانتظرت ، ولكن ... دون جدوى . ثم اني استخرت الله ، وأرسلت للعربي رسالة أخرى أذكرهم فيها برسالتي الأولى ، فماذا ترون العربي فاعلا ؟ ؟

لقد أرسلوا لي ، اي والله ، دراً حمله البريد إلي ذات يوم ، فازددت منهم عجباً وانكاراً ، إذ لم يكن ردهم إلا أن قالوا انهم حولوا رسالتي إلى الدكتور العاقل ليرى رأيه فيها . وقد صورت لكم ذلك الرد وأنا لا زال أعجب في نفسي كيف ترد مجلة محترمة رداً كهذا . وكأنما كان يعجزني أن أكتب للدكتور العاقل مباشرة دون وساطة العربي بيننا .

أفلا يحق لي بعد ذلك أن أسيء الظن في العربي وسائر المجلات العربية التي تنحو نحوها ؟ ؟

أو لا يحق لي ، وقد مضى عام وبعض العام دون أن تشير العربي إلى رسالتي ، أن أكتب اليكم لعلي ألقى عندكم خيراً ؟

وماأظنكم تعجبون إذا أهمل الدكتور العاقل الرد على رسالتي ، وماذا تراه يقول ؟

توارد خواطر ؟ ؟ أم يقول أنه ذكر في مقاله أنه ترجمة وفات المحرر طبع ذلك ؟ أم يسكت ويرجو من الله الستر والعافية ؟ وقد آثر الدكتور العاقل أن يصمت ويرجو من الله الستر والعافية .

وقد أرسلت ، فتجشمت له ماتجشمت ، وكل ماأرجوه هو أن لا أكون بعصياني نفسي قد أسأت ، فبذلت ضائعاً ، وسعيت حراماً .

١٩٧٧/٦/١ د. حسان الحاج ابراهيم .

## نص رسالتي إلى (العربي)

اطلعت في عدد تشرين الأول ١٩٧٥ من العربي الغراء على مقال للدكتور فاخر عاقل عن البوذية . وقد سرني بادىء ذي بدء أن يكون بيننا كتاب يكتبون عن الأديان الأخرى والحضارات المختلفة ، ولكني اذ شرعت في قراءة المقال ، بدأ يخامرني شعور كأن قد قرأت المقال من قبل . ولكن شعوري هذا بقي غامضاً ، ثم اني لم استغرب مثل هذا الشعور وعللته بكون المعلومات التي أطالعها في المقال هي من قبيل المعلومات العامة التي يلقنها الشداة في المدارس عن البوذية أول مايلقنون ، فلا غرابة أن أحس بالفتى لها وأنا أراني مشتغلا بالبوذية منذ ست سنوات جاهداً على الغوص في أسفارها ومتونها ، على وشك أن أنهي كتاباً أعده عنها . ولكني ماكدت أقلب الصفحة ، وأستقبل المبادىء الأثني عشر التي أخذ الكاتب يعددها ، حتى تيقن ذلك الشعور لدى ، وذكرت فجأة أين كنت قرأت هذا المقال من قبل . ولما كنت على سفر فلم يكن بالامكان عندها العودة إلى مصدر المقال للتأكد من ذلك الشعور ، حتى إذا قدمت من سفري ذاك ، عدت إلى المصدر المذكور ، فإذا المقال مأخوذ عنه جملة وتفصيلا ، مترجم عنه ترجمة صحيحة أحياناً ، خاطئة أحياناً أخرى .

أما المقدمة فهي مستقاة من كتاب لـ Christmas Humphrey بعنوان Buddhism من منشورات شركة Penguin البريطانية . والمؤلف المذكور هذا رئيس الجمعية البوذية في لندن .

يقول المؤلف ( صفحة ٧٣ من كتابه آنف الذكر ، طبعة ١٩٧٤) :

« في عام ١٩٤٥ شعرت الجمعية البوذية في لندن بحاجة إلى ملخص موجز عن البوذية بحيث يمكن طبعه على شكل كتيب يوزع مجاناً في القاعات ، على ألا يزيد عن ثلاث صفحات ونصف الصفحة . وقد كان من أثر الشعور بهذه الحاجة أن عمد رئيس الجمعية البوذية فاقترح اثني عشر بنداً يلخص فيها مفهومه عن البوذية ، وقد حاول أن يجعل بنوده تلك عامة ما أمكن ، بحيث يتفق عليها البوذيون جميعاً مع بعد الذي بينهم من خلاف . ثم أنه كان في زيارة لليابان لعرض بنوده تلك على اجتماع ضم سبع عشرة فرقة من فرق البوذية الكبرى . وقد قبلت هذه المبادىء بعد لأي ، كما وافق عليها بعد ذلك كبار البوذيين في سيام والصين وبورمة وسرنديب والتبت ... » .

وقد قابلت بين البنود المذكورة وبين

المبادىء التي يعددها الدكتور العاقل في مقاله المذكور فإذا هي مطابقة كل المطابقة ، ألا أن الدكتور أخطأ في الترجمة أحياناً مما سنذكر عنه أمثلة أدناه ، كما أنه عمد إلى البنود الأربعة الأخيرة فبتر منها أواخرها رغبة في الإيجاز ، أو لعله مل الترجمة والنقل بعد حين .

ثمن أخطائه اللغوية أن الكاتب قال (صفحة ٧٥) :

« 6. Life being one, the interests of the past should be those of the whole ».

وقد ترجم ذلك الدكتور عاقل فقال « ٦ – بما أن الحياة واحدة، فإن مصالح الجزء يجب أن تكون قبل مصالح الكل » (صفحة ١١٧). ولا أدري لماذا جعل الدكتور العاقل مصالح الجزء قبل مصالح المجموع ، ألعله كان على عجلة حين ترجم ، أم أنه أخطأ فلم يعد إلى ما ترجم ليصلح منه أو يصلح فيه ؟

كذلك فقد ترجم الدكتور عاقل تعبير «The - all - enlightened one »

» بقوله « الواحد الكلي المتنور » وهي ترجمة ركيكة لا أدري كيف استساغها الدكتور ، وهي لا تستساغ .

الا أن هذه الأخطاء اللغوية ، ماذكرنا منها أعلاه وما أهملنا ذكره ، تهون جميعاً عند الخطأ الفاحش الذي وقع فيه الدكتور حين عمد إلى أشهر مبادىء البوذية فشوهه تشويها وسلخه عن أصله سلخاً . ونحن قد نغفر له أن لا يحسن الانكليزية فيخطىء في فهمها وترجمتها ، ولكن أتراه أيضاً لم يقرأ عن البوذية في حياته إلا هذا الكتاب الذي نقل عنه مقاله ؟ ليت شعري فكيف تراه يجرؤ على التصدي لكتابة مقال عن البوذية وهو يجهل أهم مبادئها ، ونعني بهذا الحقائق الشريفة الأربعة ، وهي أشهر شيء يتعلمه المتعلمون عن البوذية ، لايكاد يجهلها إلا الجاهل بهذا الدين كل الجهل . وأول هذه الحقائق كما ترد في البند السادس من بنود كرسمس همفري هو « The omnipresence of suffering ».

أو كما عبر عنها البوذا في أولى مواعظه . وهي الموعظة المشهورة في التاريخ البوذي . وتعرف « بموعظة إيجاد مملكة الشرع » ، إذ قال بوذا : « تلكم أيها الرهبان هي حقيقة المقاساة الشريفة ، فالولادة محفوفة بالألم ، والهرم أليم ، وكذلك المرض ، والموت مؤلم ، وحصول المكاره مؤلم ، وفقدان الرغائب مؤلم ، وكل شهوة لا تتحقق تؤلم ». فالألم دائم الوجود معنا ، دائم الصحبة لنا على الأرض .

تلك هي الحقيقة الشريفة الأولى ، فماذا فعل بها الدكتور العاقل غفر الله له وجعلنا وإياه من العاقلين ؟ لقد ترجمها الدكتور هكذا (صفحة ١١٧) :

« لقد قال البوذا بحقائق أربعة سامية وهي ، (١) الله كلي الوجود . . »

أستغفر الله ، وما علاقة الألم بالله ؟ أرجو أن يطمئنني الدكتور العاقل سريعاً فيزعم أن هذا خطأ مطبعي ، وإني والله لأرجو ألا يكون الأمر غير ذلك . وفقنا الله لما فيه الصواب والسلام عليكم .

(أرسلت لمجلة العربي في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٥)

مناقشات

# غياب الفكر القومي ..
# أم تغييبه ؟

علي العبد الله



في عدد المعرفة (١٨٤) كتب الأستاذ صفوان القدسي مقالا قيماً بعنوان « هموم قومية » استعرض فيه بعض همومه وهمومنا القومية .

ونحن إذ نشكر له جهده ، نراه قد جانب الحقيقة في فقرة هامة من مقاله ، وهي الفقرة الخاصة بـ « غياب المفكر القومي » .

يقول : ( هناك أولا مايمكن أن نطلق عليه اسم غياب المفكر القومي . ولوحاولنا تقصي الأسباب التي أدت إلى هذا الغياب لعرفنا أن ثمة أسباباً شتى ، فهناك غياب لدور الفكر في حياتنا ... لكن غياب دور الفكر من حياتنا شيء ، وغياب المفكر نفسه شيء آخر تماماً لأنه كثيراً ما يحدث أن يوجد مفكرون لكن ظروفاً اجتماعية أو سياسية تعطل فعاليتهم وتأثيرهم في الحياة العامة ، والسبب الأكثر أهمية لغياب المفكر القومي هو أن إيثار السلامة داء تفشى في حياتنا بصورة منقطعة النظير ، واستشرى هذا الداء بحيث أصاب المفكرين . وحين وجد المفكر القومي إن دوره ليس غائباً بحكم غياب دور الفكر من حياتنا فحسب وإنما لأنه متهم وموصوم ، فإنه آثر الصمت ، أي آثر السلامة ) .

فهل صحيح هذا الكلام ؟ ! .

إن القول بغياب المفكر القومي يحتمل تفسيرين :

أولهما : أن ثمة نموذجاً – للمفكر القومي – في الذهن نحاول استخدامه مقياساً نقيم من خلاله المفكر القومي ، وهذا فيما أتصور يعكس خطأ منهجياً نابعاً من تصور أن المفكر – المذكور – يجب بالضرورة أن يكتب عن أمور وقضايا بعينها : عناصر الأمة . الشعور القومي . الوطنية والقومية . والإقليمية، .... الخ ( كالحصري والأرسوزي مثلا ) .

غير أننا نستطيع القول وبصدق إن هذا الكلام غير صحيح علمياً ، لأن كل مرحلة تاريخية لا بد لها من نمط في الفكر يواكب حركة النهوض الاجتماعي والقومي ، لأن أنماطاً في التفكير القومي قد تكون مقبولة في ظروف التبشير والتوعية والتحريض ، لكنها ليست كافية ، بل لا بد أن يتابع الفكر القومي معالجة مشكلات هذه الأمة التي عالج تكونها وعواملها وتاريخها .

لا بد بعد أن قال المفكر القومي نظريته في الأمة أن يكتب نظريته للأمة ، تعالج واقعها ومستقبلها وأن يطرح أساليباً للنضال في سبيل تحقيق الهدف .

هذا يعني أننا بحاجة إلى معالجة لأمور : التجزئة ، التحرير التخلف ، الاستقلال ، الاستبداد ، القهر ، الاستغلال ، البيروقراطية ، الإقليمية الجديدة ...

كل هذا يبرر وجود نمط جديد للمفكرين القوميين ، حتى نصل غايتنا الكبرى : ( دولة الوحدة العربية الاشتراكية الديمقراطية ) .

فإذا كان هذا ما يقصده الاستاذ صفوان فإني أدعوه لمراجعة قوائم الكتب والدراسات التي تناولت هذه الظواهر والتي كتبتها أقلام قومية من بينها أقلام (عبدالله ريماوي . عبد الكريم أحمد . شاكر مصطفى . عبدالله عبدالدايم . نديم البيطار . عصمت سيف الدولة . أحمد حيدر . منيف الرزاز . صفوان قدسي . ...... الخ ) .

ثانيهما : ان عملية مقصودة تتناول ظاهرة ( المفكر القومي ) تديرها قوى الشعوبية الجديدة – والتعبير للأخ صفوان – والسلطات الإقليمية والامبريالية محاولة التعتيم على المفكر التقدمي وذلك لإسقاطه كدور أولا وكوجود ثانياً .

إن عمليات التعتيم والملاحقة تدهش كل ذي قلب . يكفي أن نعلم أن العشرات من كتب الفكر القومي محاصرة ولا يحق

لها دخول معظم الأقطار العربية، وإن الفكر القومي يلاحق ويجلد ( اغتراب كثيرين عن أقطارهم ، ومصادرة حرياتهم ) . إننا – بالطبع – لا نطالب الإقليمية القديمة والجديدة أن تسكت عن القوميين التقدميين وأن تسهل عملهم وصولا إلى غايتهم . فهذا أمر مخالف لطبيعة الأشياء ، ومناقض لقانون الصراع الاجتماعي . أما أن يقول هذا الكلام مفكر قومي كالأخ صفوان لغير مقبول ، غير مقبول تماماً أن ندخل في لعبة تغييب المفكر القومي التي تديرها أجهزة السبر لتيتك الاجتماعي ( توجيه حركة الشعوب بطرق غير مباشرة ) . إن مفكراً قومياً قد قال مؤخراً ما معناه : إن الفكر الصهيوني قد تسلل إلى العقل الإقليمي العربي . .

فهل نسمح له بالتسلل إلى الفكر القومي ؟ ! .

إن هذا مالا يرضاه قومي ، وأظن أن الأخ صفوان لا يرضاه . . كذلك .

مواقف

# محو الأميّة وتعليم الكبار في الوطن العربي

سميح عيسى



تعتبر مشكلة الأمية من أخطر أعداء رسالة التربية والثقافة والعلوم بل من أخطر أعداء التقدم الصناعي والزراعي والاجتماعي والحضاري على الاطلاق ... حيث يتعرض لها أكثر من ٥٥بالمئة من البشر–هؤلاء الذين يجدون أنفسهم محرومين من أدوات المعرفة ومصادرها – كما يجدون انفسهم محرومين من التزود بوسائل العمل المنتج الخلاق ومن فهم تركيب كلمات لغتهم في عصر العلم والنور والمعرفة والحرية ليستطيعوا بحق الاسهام بشكل فعال في حمل رسالة الأمة – وفي عمليات التنمية الشاملة التي يعتبر الانسان موضوعها بدءاً ونهاية ووسيلة وغاية . . لأنه صانعها ومحركها والمنتفع بها .

والذي كتب عن محو الامية وتعليم الكبار وعن الأمية في الثلاثين عاماً الاخيرة كثير والذي قيل فيه كثير والذي بذل في سبيله أيضاً من مختلف الجهات الرسمية والشعبية كثير جداً ..

ولعل من المفيد – الآن – تقديم صورة مركزة سريعة لواقع الحال في ميدان محو الأمية وتعليم الكبار في الساحة العربية . .

## واقع العمل في حقل محو الامية وتعليم الكبار :

مما لا شك فيه أن التوعية والاعلام بمشكلة الأمية وأبعادها ومنعكساتها الخطيرة في مختلف المجالات ( الاجتماعية – الاقتصادية – السياسية . . الخ ) قد تطورت بشكل واضح في السنوات الأخيرة على الصعيدين القومي والقطري . . وبالتالي فإن الاهتمام بمعالجتها والقضاء عليها قد أصبح مطلباً رسمياً وشعبياً – وهماً كبيراً من هموم المجتمع بكل فئاته وتنظيماته ولو حاولنا الآن رصد واقع الحال في ميدان محو الأمية وتعليم الكبار لوجدنا بكل وضوح التالي :

١ – إن معظم الأقطار العربية ليست لديها وسيلة دقيقة ( بيانات علمية صحيحة ) لتصنيف السكان أو الأميين إلى البيئات الجغرافية وإلى قطاعات الانتاج والعمل المتنوعة الحالة التي تقف عقبة كبيرة في معرفة حجم الامية ومنعكساتها وأبعادها من جهة . . ووضع الخطط النظرية غير الدقيقة من جهة أخرى . .

٢ – لم تصدر بعد القرارات السياسية الخاصة بمحو الأمية وتعليم الكبار . . التي تدلل على كونها شكلا ومضموناً في مستوى حجم المشكلة وطرق معالجتها . .

٣ – صحيح أن قضية محو الأمية وتعليم الكبار قد نالت اهتماماً رسمياً وشعبياً في الأقطار العربية بعد مؤتمرات الاسكندرية الخاصة بمحو الأمية ، الأمر الذي أدى إلى انشاء هيئات عليا وأجهزة مركزية رسمية على المستوى القطري من أجل التخطيط لمواجهتها والإشراف على الجهود المبذولة بشأنها من قبل المؤسسات الرسمية والمنظمات والاتحادات الشعبية ، والجمعيات . . الخ ، ولكن هذه الهيئات وتلك الأجهزة لم تتم بالصورة التي تسمح لها بالقيام بمهامها المتعددة . وبالتالي فإن عمل معظم الجهات المعنية فيه الكثير من الارتجال والحماسة غير العلمية .

٤ – لذا فإن معظم الجهود في مجال محو الأمية وتعليم الكبار مازالت حكومية ( رسمية ) وإن العمل الشعبي الجماهيري فيه مازال ضئيلا ومتأرجحاً بين الروتين والواقعية .

٥ – مما لا شك فيه أن تشريعات محو الأمية من المسائل الهامة التي من شأنها أن تنظم العمل وتحدد مساراته ومسؤولياته وجهات تنفيذه ، كما تضع الضمانات التي تكفل سير العمل وأدائه وطرق ووسائل التنسيق والتكامل بين الجهات المسؤولة ومن الملاحظ أن التشريعات الحالية فيها من الثغرات والنواقص والسلبيات الشيء الكثير ، الأمر الذي يبقيها في المجال النظري البعيد كلياً عن ميدان التطبيق العلمي .

وبالتالي قصورها عن مواجهة المشكلة مواجهة حاسمة .

٦ – من الملاحظ أن التخطيط لمحو الأمية وتعليم الكبار في معظم الأقطار العربية ( الخطط العامة والمرحلية والسنوية ) لم يأخذ الصفة العلمية ولم يواكب المفهوم المتطور لمحو الأمية وتعليم الكبار بحيث يتكامل التخطيط لمحو الأمية مع بقية الأنشطة والخطط الاقتصادية والاجتماعية والتربوية ... الخ .

ويظهر هذا بوضوح في نوعية الجهات التي تقوم بوضع الخطط ونوعية الأفراد الذين يسهمون فيها . فجميعها جهات رسمية فنية تتبع في معظم الأحيان وزارات التربية أو الوزارات المسؤولة عن أجهزة محو الأمية الرسمية ( الشؤون الاجتماعية والعمل – الثقافة والإرشاد ) . وهذا الأمر يفسح المجال لأن تقوم كل جهة ما تعمل في حقل محو الأمية بوضع خططها بمعزل عن خطط الجهات الأخرى وبالتالي يبقى شعار مواجهة قضية محو الأمية مواجهة وطنية قومية شعاراً ليس إلا . وتبقى أيضاً أهداف الخطط ومتابعتها وتقويمها في مجال اللامسؤولية والضياع والهامشية .

٧ – مازالت الموازنات المخصصة لنشاط محو الأمية وتعليم الكبار حتى الآن ضئيلة وعاجزة عن مواجهة المشكلة مواجهة شاملة وحاسمة ، فالاعتمادات المالية المخصصة معظمها رسمية متواضعة ، وتدل أيضاً الدراسات والبحوث في هذا الميدان على أن لكل جهة من الجهات الرسمية والشعبية العاملة في حقل محو الإمية وتعليم الكبار موازنتها الخاصة القليلة والبعيدة عن التكامل مع الموازنات الأخرى . . وبالتالي فإن معايير وقواعد انفاقها يختلف من جهة إلى أخرى .

٨ – لم تزل خطط الدراسة والكتب الدراسية والوسائل والمعينات الخاصة بمحو الأمية تقليدية بعيدة عن مواكبته المفهوم المتطور لمحو الأمية وتعليم الكبار وهذا ليس بالأمر الغريب بعد معرفة مجموعة الحقائق السالفة الذكر – لأن عملية محو الأمية متكاملة من جميع الجوانب .

٩ – لم تعبأ بعد ( ولو بشكل معقول ) الامكانات البشرية والمادية والرسمية والشعبية في ميدان تنفيذ خطط وبرامج محوا الأمية ... الخ

١٠ – مازال أشكال وطرق وأساليب التنسيق بين مختلف الجهات العاملة في حقل محو الأمية وتعليم الكبار تعتبر أشكالا وطرقاً وأساليب تقليد ية نظرية بعيدة عن الأهداف المرسومة في هذا المجال . ولعل هذا يعود إلى كثير من المسائل من أهمها عدم النظرة الجادة لحركة محو الأمية وتعليم الكبار وإلى نوعية تشريعات محو الأمية ومستوى

التخطيط على الصعيد القومي أو القطري .

والآن . . إذا كان هذا هو واقع الحال والأحوال في ميدان محو الأمية وتعليم الكبار في معظم الأقطار العربية إن لم يكن في كل المنطقة العربية . .

ترى ما العمل على مواجهة هذا الواقع . . وما هي الطرق والوسائل التي تنهض بهذا الواقع إلى مستوى المسؤولية وإلى العمل الجاد والأفضل في ميدان محو الأمية وتعليم الكبار ؟ .

... للاجابة على هذه التساؤلات . . أعتقد أن باستيعاب واقع العمل في حقل محو الأمية وتعليم الكبار وبخاصة النقاط المذكورة سابقاً وبدراستها وتحليلها ... يمكن الوصول إلى الحلول والوسائل والطرق التي تكفل السير بعمليات محو الأمية إلى الأهداف المطلوبة . .

ولكن ريثما يتم الارتقاء إلى معالجة الواقع بشكل علمي وجاد وفعال من قبل الجهات المعنية واستصدار القرارات السياسية الموضوعية في مستوى حجم المشكلة وابعادها

لعل التفكير جدياً الآن بدراسة طرق وأساليب التنسيق في حقل محو الأمية وتعليم الكبار بهدف الوصول إلى أنسب الصيغ العلمية لهذا التنسيق ... ربما يمهد الطريق أيضاً للارتقاء بالعمل في هذا المجال . . نحو الأفضل .

التنسيق :

ورد في معجم / متن اللغة العربية ، واللسان العربي التالي :

نسق الدر : نظمه في السلك .

ونسق بين الشيئين : تابع بينهما .

نسق الشيء : نظمه .

تنسقت الأشياء بعضها إلى بعض : تتابعت .

التنسق من كل شيء : ماكان على طريقة ونظام واحد عام .

في ضوء ما تقدم يمكن تحديد مفهوم التنسيق بين هيئات ( مؤسسات ) محو الأمية على النحو التالي :

التنسيق :

هو ربط وتنظيم سير مختلف الهيئات المشتركة في عمل واحد حتى يتألف منها كل متماسك ، عمله مترابط ومتناغم ومتكامل .

## اهداف التنسيق :

وبناء عليه يمكن تحديد أهداف التنسيق على النحو التالي :

١ - القضاء على التناقضات والازدواجية القائمة بين الجهات العاملة في حقل محو الأمية ( تخطيطاً - وتنفيذاً - وتدريباً - ومتابعة ... الخ ) .

٢ - عدم السماح بهدر وبعثرة الجهود

والامكانات والطاقات في ميدان محو الأمية وتعليم الكبار .

٣ – تسريع الانجاز من آجل تحقيق الأهداف المباشرة وغير المباشرة في عمليات محو الأمية وتعليم الكبار .

## مجالات التنسيق :

– لورجعنا قليلا إلى النقاط البارزة الواردة تحت فقرة ( واقع العمل في حقل محو الأمية وتعليم الكبار ) .

– وأكدنا من جديد أن مسؤولية محو الأمية وتعليم الكبار ليست مسؤولية وزارة ما أو منظمة ما بل هي مسؤولية قومية تقع على عاتق جميع الإدارات والمؤسسات والهيئات والمنظمات الرسمية والشعبية والخاصة وجميع النقابات المهنية والاتحادات والجمعيات والاندية وأصحاب الاعمال والمتعلمين . والأميين وفق قواعد وأحكام التشريعات الخاصة بمحو الأمية وتعليم الكبار وقرارات المجالس العليا ( الهيئات العليا ) المسؤولة ( عن رسم السياسة العامة لمحو الأمية وتعليم الكبار ووضع الخطط العامة والمرحلية والإشراف على متابعتها وتنفيذها ) . . .

– وعرفنا أيضاً المجالات الرئيسية التي تتضمنها عمليات محو الأمية ومنها :

( التخطيط – التدريب – إعداد المواد التعليمية – المتابعة والتقويم – التمويل البحوث والدراسات التوثيق وتبادل المعلومات – الدعوة والاعلام .. الخ . )

.. لأدركنا بكل وضوح أهمية وجود حد أدنى ( على الأقل ) من التناسق والترابط والتكامل بين جميع الجهات المعنية على صعيد كل قطر ( الرسمية وغير الرسمية ) فكراً وتطبيقاً حتى لا تتعارض فلسفتها وتتضارب جهودها لتصبح استثماراً ضائعاً لا عائد ولا جدوى من ورائه من جهة – وحتى تتحقق الأهداف المرجوة من جهة أخرى . .

ولنحاول الآن أن نتبين كيفية التنسيق في المجالات التالية :

## التخطيط والتنظيم والاحصاء :

ان التنسيق لابد أن يبدأ من مستوى التخطيط فتكون هناك خطة لمحو الأمية على صعيد كل قطر عربي تشترك في وضعها وتنفيذها الهيئات والمجالس والأجهزة والمؤسسات والجهات المعنية بمحو الأمية مع تحديد واضح لمسؤوليات كل جهة وهيئة وجهاز والأنشطة التي تقوم بها والفرص المتاحة لتبادل المعونات والخبرات بينها .

... لماذا ؟

لأن عملية التخطيط السليم في مجال محو الأمية وتعليم الكبار تقوم على أساس المشاركة لاتستبد بها فئة من المختصين أو يقتصر العمل فيها على جهاز معين

أو وزارة معينة وإنما ينبغي أن تتعدد الجهات التي تسهم فيها وتتعدد المستويات التي تنشأ فيها تلك المساهمة خاصة بعد أن تطور مفهوم محو الأمية وأصبح جزءاً لا يتجزأ عن بقية الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية ، والحضارية . . الخ

وبالتالي أصبح من مسؤولية المجتمع ككل ...

لهذا وجدنا في معظم الأقطار العربية ( إن لم يكن في جميعها ) صدور تشريعات محو الأمية التي أكدت على مبدأ الشمول للمساهمة في محو الأمية . فجعل كل تشريع الهيئة العليا ( المجلس الأعلى – اللجنة العليا ) المسؤولة رسمياً عن رسم السياسة العامة لمحو الأمية ووضع وإقرار الخطط العامة والمرحلية ممثلة للوزارات المختلفة وللمؤسسات النقابية والمهنية والشعبية الرئيسية . واشترط تكوين لجان محلية في المحافظات ( صورة مصغرة عن الهيئة العليا ) تتفرع من مستوى المحافظة إلى مستوى القرية .

وحتى نكون على مستوى الكلمة المسؤولة ونلتزم الجانب الموضوعي والعلمي لابد من الاعتراف أن الهيئات العليا ( المجالس العليا – اللجان العليا ) هي هيئات صورية ورسمية لا تجسد الأهداف التي خلقت من أجلها إلا من الناحية الشكلية . . كما أن الأجهزة المركزية والفرعية لمحو الأمية على صعيد القطر وعلى صعيد المحافظات والمناطق . .الخ تعاني من خلال واقعها الحالي من تبعية إدارية وعدم تكامل فيما بينها تقيد حركتها وتقلل من قدرتها على أخذ زمام المبادرة وبذل الجهود ورصد الامكانات لتحقيق عملية التنسيق والتكامل في مجال التخطيط وغيره من المجالات . .

إذ يلاحظ على سبيل المثال : أن بعضها مجرد قسم من أقسام أو إدارة من إدرات وزارة أو منظمة ما صفتها رسمية غير جماهيرية بالإضافة إلى كونها تعاني من عجز في توفر قيادات عليا بها من حيث التخصص والخبرة والمقدرة على الابتكار واتخاذ القرارات الحاسمة كما تعاني من عدم توفر الإدارات والأقسام المتخصصة اللازمة للإحاطة بعمليات محو الأمية وتعليم الكبار .

فمن أجل تحقيق أهداف التنسيق ، وبخاصة في مجال التخطيط لابد من إعادة النظر إذن في التشريعات الحالية وفي تنظيم الهيئات والأجهزة القيادية المركزية والفرعية أفقياً وعمودياً في مستوى حجم المشكلة وأبعادها . . على أسس وقواعد تنظيمية وعملية جديدة .

آ – على صعيد القطر :

١ – المجلس الوطني لمحو الأمية وتعليم الكبار :

آ – يترأس المجلس في كل قطر رئيس مجلس الوزراء، ويكون ممثل التنظيم السياسي ( في حال وجود تنظيم سياسي واحد فقط ) معاوناً للسيد الرئيس ويتكون أيضاً من وزراء الوزارات المعنيه صاحبة العلاقة ومن رؤوساء المنظمات الشعبية والاتحادات ومن بعض الخبراء والفنيين ( أعضاء ) ويكون مدير الجهاز القيادي المركزي لمحو الأمية وتعليم الكبار عضوا وأميناً للسر . وبذلك يتحقق مبدأ الشمول في مساهمة جميع الجهات المعنية في قيادة عمليات محو الأمية وفي إتخاذ القرارات وتجاوز التناقضات ، والإزدواجية . . الخ . . لماذا ؟ .

ب – لأن المجلس الوطني المركزي لمحو الأمية هو السلطة العليا المسؤولة سياسياً ورسمياً وجماهيريا عن تحقيق مهمة محو الأمية وعليه اتخاذ جميع التدابير والاجراءات اللازمة لتحقيق هذه المهمة وعلى الأخص مايلي :

– رسم السياسة العامة لمحو الأمية وتعليم الكبار ومناقشة الخطة العامة والخطط المرحلية والفرعية لمحو الأمية وتعليم الكبار (المرفوعة من الجهاز القيادي المركزي المتفرغ لمحو الأمية وتعليم الكبار ) ومتابعة تنفيذها وترتيب أولويات العمل .

– مناقشة واقرار أسس تعليم الأميين ومناهجه وبرامجه المختلفة وتحديد المستوى المطلوب الوصول إليه .

– إحداث الاجهزة الفنية والإدارية المتنوعة وتشكيل اللجان الفرعية والفنية من مستوى المحافظ وحتى أصغر وحدة إدارية .

– مناقشة مشروعات تحديد فئات وأصناف الأميين الذين يدعون للالتحاق بدورات محو الأمية وتنسيق ذلك مرحلياً وإقرار القواعد الخاصة بتأجيل دعوة بعض الأميين أو اعفائهم من التعلم وقبول أو رفض أعذارهم وأعذار المتعلمين ، ممن تخلفوا عن الدعوة الموجهة إليهم .

– مناقشة مشروعات تحديد فئات وأصناف المتعلمين الذين يكلفون بتعليم الأميين مع بيان مدة التكليف .

– مناقشة وإقرار ما يقع على عاتق كل جهة من الجهات الرسمية والشعبية والخاصة عن تنفيذ خطة محو الأمية سواء ماكان على نفقة تلك الجهة أم كان بمساعدة من المجلس ووضع القواعد والأنظمة اللازمة لذلك .

– مناقشة وإقرار نظام الحوافز ، والمكافآت ومنح الأوسمة للناشطين من الأميين والمتعلمين والمؤسسات . . الخ التي تنجز تحرير العاملين لديها من الأمية .

– النظر في قبول الاعانات والهبات والتبرعات ومناقشة وإقرار الموازنة العامة

والمرحلية لعمليات محو الأمية وتعليم الكبار .

٢ – الجهاز القيادي المركزي المتفرغ لمحو الأمية وتعليم الكبار :

– جهاز مستقل فنياً وإدارياً ومالياً يرتبط بالمجلس الوطني المركزي لمحو الأمية ، ويتكون من مدير ومعاون مدير ورؤساء إدارات يتم تعيينهم من قبل رئيس المجلس الوطني ( رئيس مجلس الوزراء ) بشرط أن يكونوا على مستوى جيد من الخبرة والكفاءة والشعور بالمسؤولية .

وتضم الإدارات مجموعة من العاملين الاكفاء في مختلف المجالات وحسب الحاجة الفعلية – ويستطيع الجهاز الاستعانة في أداء عمله بخبراء من مختلف الاختصاصات العاملين في الجهات الرسمية وغير الرسمية .

– أما مهام الجهاز فهي واضحة المعالم والأبعاد من خلال تكوينه التنظيمي الذي يشتمل على الإدارات التالية :

– إدارة العلاقات العامة والاعلام
– إدارة التخطيط والاحصاء
– ادارة التدريب والدراسات والمطبوعات
– إدارة التفتيش والمراقبة .
– إدارة الشؤون المالية والإدارية .

... ويمكن تحديد مهام إدارة التخطيط والاحصاء التي تلعب دوراً هاماً وفعالاً في مجال التنسيق بين الجهات المعنيه في هذا المجال على النحو التالي :

١ – إعداد الخطط لدراسات وبحوث ميدانية بالتعاون والتنسيق مع الجهات المعنية ( الاجهزة الفرعية في المحافظات – المؤسسات والمنظمات والخبراء العرب والمحليين . . الخ ) تكون أساساً لوضع مشاريع الخطة العامة لمحو الأمية على صعيد القطر والخطط المرحلية والسنوية في ضوء تشريع محو الأمية بحيث تضمن هذه الدراسات والبحوث الربط بين برامج محو الأمية وتعليم الكبار وبرامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . الخ سواء في اختيار قطاعات الأميين الذين يدعون للدراسة أو في البرامج التعليمية أو في برامج الثقافة والتوجيه المهني . . ثم عرضها على المجلس الوطني لمناقشتها واقرارها .

٢ – تحديد الإطار العام لفئات الدارسين والمتعلمين ممن ينطبق عليهم التشريع وتصنيفهم ( وترتيب أولوياتهم وإعداد المشاريع الانتقالية المركزة بالتعاون والتنسيق أيضاً مع الجهات المعنية ورفعها إلى المجلس الوطني لمناقشتها وإقرارها .

٣ – تنظيم العلاقة وتنسيقها بين الجهاز القيادي المركزي المتفرغ لمحو الأمية وتعليم الكبار والجهات العاملة في حقل محو الأمية وتعليم الكبار في القطر ، ومع المنظمات العربية والدولية .

٤ – دراسة التقارير وحصر وتصنيف المشكلات ومعوقات التنفيذ في ميدان العمل لجميع الجهات والعمل على اقتراح الحلول والبدائل المناسبة وعرضها على المجلس الوطني لأتخاذ القرارات المناسبة في مجال التخطيط والتنفيذ .

٥ – إعداد نظام الاختبارات والنتائج ومنح شهادات التحرر ومسك السجلات اللازمة .

٦ – إعداد مواصفات الاستمارات الخاصة بالبيانات الاحصائية بالتعاون والتنسيق مع الجهة المعنية بالاحصاء في القطر والجهات الأخرى لحصول على قوائم شاملة تحدد فئات وأصناف الأميين وحصر اعدادهم حسب تعريف الأمي ووفق فئات السن والجنس ومواقع العمل والحالة الاجتماعية والعمل على ترتيبها حسب أولويات التنفيذ وفقاً للخطة المرسومة .

٧ – إعداد قوائم بفئات واصناف المتعلمين وامكاناتهم التعليمية ومواقع عملهم ومسك السجلات اللازمة .

٨ – رفع تقارير احصائية وبيانات علمية وتقارير موضوعية سنوية مرحلية إلى المجلس الوطني على ضوء نتائج المشروعات المنفذة في القطاعات المختلفة .

ب – على مستوى المحافظة :

١ – تشكل في المحافظة لجنة ثلاثية مكونة من :

– السيد المحافظ .

– السيد أمين التنظيم السياسي القائد

– رئيس الجهاز القيادي لمحو الأمية في المحافظة .

تشرف على شؤون محو الأمية في المحافظة .

٢ – يشكل في المحافظة جهاز قيادي لمحو الأمية يربط بالسيد المحافظ ، يتكون من الأقسام التالية :

– قسم التخطيط والدراسات والاحصاء .

– قسم الاعلام والتوعية .

– قسم التأهيل والتدريب والمتابعة

– قسم الشؤون المالية والادارية

٣ – لكل محافظة جمعية عامة لمحو الأمية يرأسها السيد المحافظ ، وتضم في عضويتها :

– مديرو المناطق التابعة للمحافظة .

– رؤساء شعب التنظيم السياسي القائد

– رئيس وموظفو الجهاز القيادي لمحو الأمية في المحافظة .

– رؤساء أجهزة محو الأمية في المناطق .

– مندوبو المنظمات الشعبية في المحافظة .

تجتمع الجمعية العامة بشكل دوري

لمناقشة سير العمل ، وبيان المعوقات والصعوبات والبحث في كيفية تذليلها بالجهود المحلية أن أمكن ، أو رفعها إلى الجهاز القيادي المركزي لمحو الأمية والبحث كذلك في المقترحات التي ترد لتسريع العمل في محو الأمية على نطاق المحافظة .

ج –على مستوى المنطقة :

١ – تشكل في المنطقة لجنة ثلاثية مكونة من :

– السيد مدير المنطقة .
– السيد أمين التنظيم السياسي في المنطقة .
– رئيس جهاز محو الأمية في المنطقة

تشرف هذه اللجنة على شؤون محو الأمية في المحافظة .

٢ – يشكل في المنطقة جهاز لمحو الأمية يربط بالسيد مدير المنطقة يتكون من الأقسام التالية :

– قسم الاعلام والتوعية .
– قسم الشؤون المالية والإدارية .
– قسم المتابعة .

٣– لكل منطقة جمعية عامة لمحو الأمية يرأسها السيد مدير المنطقة وتضم في عضويتها :

– أمين التنظيم السياسي في المنطقة .
– رئيس جهاز محو الأمية في المنطقة
– امناء التنظيمات السياسية في النواحي والقرى .
مندوبو المنظمات الشعبية .

تجتمع الجمعية العامة بشكل دوري لمناقشة سير العمل ، وبيان المعوقات والصعوبات والبحث في كيفية تذليلها بالجهود المحلية أن أمكن أو رفعها إلى لجنة المحافظة ، والبحث كذلك عن المقترحات التي ترد لتسريع العمل في محو الأمية على على نطاق المنطقة .

– ومن الممكن إقامة تنظيمات مماثلة إلى حد ما على مستوى الناحية والقرية من خلال ممارسة العمل ومعرفة متطلبات هذه المستويات .

د – ولاستكمال الصورة التنظيمية القيادية اللازمة لعمليات محو الأمية من جميع جوانبها – لضمان عمليات التنسيق والتكامل مع الجهات المعنية.. الخ بشكل جاد وفعال لابد من تحقيق التالي :

– تشكيل مكتب متفرغ لمحو الأمية وتعليم الكبار في كل وزارة ومؤسسة من وزارات الدولة ومؤسساتها المعنية لتنفيذ قرارات المجلس الوطني المركزي لمحو الأمية والأجهزة واللجان المركزية الفرعية في المحافظات والمناطق . ولتنسيق العمل والتعاون معها في مختلف المجالات .

– ان يتولى التنظيم السياسي القائد والمنظمات الشعبية والاتحادات قيادة عملية محو الأمية في قطاعاتها المختلفة في جميع المحافظات بالاتفاق والتنسيق مع الجهات المعنية في المحافظة ومن أجل ذلك تشكل لجنة محو الأمية متفرغه في قيادة التنظيم السياسي وفي كل منظمة واتحاد لهذه الغاية يتبعها لجان فرعية متفرغة في المحافظات .

والآن بدراسة التنظيم المذكور في مجال التخطيط نرى بكل وضوح تحقيق المبادىء الاساسية التالية الضرورية في مجال التنسيق بالنسبة للتخطيط والاحصاء والتنظيم :

– تنظيم أعمال المجلس الوطني المركزي لمحو الامية وتعليم الكبار – وأعمال الجهاز القيادي المركزي لمحو الامية وتعليم الكبار على بعدين رئيسيين :

بعد افقي ذي اتجاهين – اتجاه جغرافي يشمل فروع المجلس الوطني في المحافظات والمناطق والنواحي ... واتجاه وظيفي يشمل تعيين المهمات والمسؤوليات، أما البعد الآخر فهو بعد عمودي يتجه إلى العمق ويتضمن تكوين الجهاز القيادي المركزي وفروعه في جميع المحافظات والمناطق والنواحي ايضاً وتحديد المهمات والمسؤوليات في مجال التنظيم والتنفيذ والمتابعة . . وبذلك يتحقق التفاعل واللقاء والتكامل وحصر المسؤوليات .–

– تحقيق مبدأ الشمول في المساهمة في قيادة عمليات محو الأمية – والتخطيط لها ومتابعة التنفيذ .

– مرور البيانات والاقتراحات والمعلومات والتقديرات الخاصة باعداد الخطة العامة لمحو الامية وتعليم الكبار والخطط المرحلية والسنوية وغيرها من المهمات والمسؤوليات عبر شبكة متكاملة واضحة المعالم والابعاد من القاعدة الى القمة والعس صحيح ... وبذلك يتحقق شرط أساسي منشروط التخطيط السليم وهو المشاركةالديمقراطية المتكاملة لجميع الاجهزة والجهات في اطار من التنسيق المنظم...وبالتالي اتخاذ القرارات الصلبة الموضوعيةوفق تقديرات علمية وموضوعية ايضاً من قبل القيادات العليا في حقل محو الامية وتعليم الكبار ..

– توفر الظروف والعوامل الايجابية للقضاء على الازدواجية والتناقضات وهدر الامكانات في ميدان العمل .

قراءة نقدية في العدد الماضي من المعرفة

# العرب المعاصرون والتاريخ العربي

د. شكري فيصل



من عادتي حين آخذ عدد المعرفة الجديد أن لاأتخلى عنه إلا حين أنتهي من قراءته ، أو من قراءة الكثرة الكاثرة من مقالاته . . إن ذلك لايتأتى من تقديري للمجلة ولكتابها ولكثير مما ينشر فيها فحسب ، ولكنه يأتي من أن المطبوعات : كتباً ومجلات ، تتكاثر بين أيدينا . . ونحن ننصرف ، مكرهين ، عن متابعة الصحافة إلا بالقدر الذي يحفظ خيط الصلة بها . . ولكننا لانستطيع أن ننصرف عن الكتب والمجلات التي تملأ دروبنا كلها . . إن متابعة القراءة في هذا البحران الفكري والاجتماعي والسياسي لايسوغها إلا أنها نوع من متابعة حركة الفكر العربي . . . ومن ذا الذي يملك

هموم أمته ثم يملك أن يسكت عن هذه المتابعة أيا كانت أبحاثه الجامعية أو وظيفته العلمية أو تخصصه الضيّق ؟

من أجل ذلك أجدني ، وأحسب أني أشارك الكثيرين من مثقفينا ، في هذا التأرجح بين الجريدة والمجلة والكتاب . . يتبدّد بين هذه الثلاثة . . الحدث اليومي لابدّ من أن نفتح عليه عيوننا وأن نرقب كيف يراه الآخرون وكيف يعرضونه ، وأن نرى من خلال الجريدة هذه الأقلام الناشئة الشابة وأن تخالطنا هذه الآمال العريضة بها أو هذا الاشفاق المشفق عليها . . والمجلة الشهرية صلتنا الرتيبة بكتابنا ومفكرينا ، وبقضايا الفكر والثقافة . . منها نعرف كيف تطرح هذه الآراء أو تلك وكيف تعالج . وما هي النزعات التي تستبد بها والنظريات التي تشدّها والخلفيات التي تتحكم فيها . . ثم يظل الكتاب مع ذلك هو الصورة الأكمل للمعرفة التي لانزال ننشدها أيا كانت أسناننا وأعمارنا واهتماماتنا .



— ٢ —

وفي العدد الأخير من المعرفة لم أملك أن أتابع القراءة على النحو الذي ألفتُ . . استوقفني في البداية مقال الأستاذ صفوان القدسي ، وأحسست أيّ ألم عميق يداخل روح الكاتب وهو يتحدث عن هذه المواقع الدفاعية التي آل إليها الفكر القومي . . وأيّ أسى يخالطه وهو يرسم تضاريس الفكر القومي ، واستبد بي التفكير في هذه المشاهد الثلاثة من مشاهد فكرنا القومي : غياب المفكر القومي ، والشعوبية

الجديدة، وما قادت إليه هذه الشعوبية من سلب العرب فضائلهم، الأمر الذي بدا أكثر مابدا في صورة النيل من التاريخ العربي ورميه بكل نقيصة والهجوم عليه من كل وجه .

ولكن ماكدت — بحكم العادة — أتابع قراءة العدد ، وانغمس في كل الدروب التي رسمها ونظمها في خط واحد على تشعبها — الاستاذ حافظ الجمالي في مقاله عن « العرب والفكر العلمي » حتى وجدتني أعاني هذا الضيق المزدوج . . أعاني مثل هذا الضيق الذي كان يعانيه صاحب المقال الأول، ثم أعاني هذا الضيق الذي كان يعانيه صاحب المقال الثاني. وعلى الرغم من أن المقالين يختلفان في المنطلق، ويختلفان في المادة والتفاصيل ، فإنهما يلتقيان على هذا الأسى البالغ ، وعلى شيء من تشاؤم، وعلى شيء كثير من النعي على الحياة العربية الحاضرة: المقال الأول ينعى عليها قصورها في حق الفكر القومي ، والمقال الثاني ينعى عليها قصورها في تأخرها الاجتماعي وضمورها العلمي ..



كلاهما إذن « هموم قومية » : مقال الأستاذ القدسي يقول إن الفكر القومي بائس لأنه كان وكان ، ثم آل إلى كذا وكذا .. ومقال الاستاذ الجمالي يقول إن الحياة الفكرية بائسة؛ وحين يبدأ مقاله يحدثك عن الهناء والشقاء وعن إزالة عناصر الشقاء والحرص على استيفاء الهناء فهو لايحدثك عن حياة فردية لإنسان بعينه . ولكنه يحدثك عن هذه الشعوب العربية كلها التي أنهكها هذا الشقاء وهذا التخلف ، والتي لاتعرف إلا هناء الشعارات . . في النشرات الرسمية والأرقام الخادعة وهناء قرارات القمم الصغرى والكبرى ، وبيانات الرحلات والوفود والزيارات . . بينما هي تغرق إلى ما فوق قمة الرأس في شقاء لانظير له في كل مسالك العيش ومسارب الحياة وأشكال المجتمع .

وعلى نحو ماتحدث الاستاذ الجمالي عن غياب الفكر العلمي كان حديث الأستاذ قدسي عن غياب المفكر القومي والفكر القومي .

وكما مضى الأستاذ حافظ الجمالي يصنّف هؤلاء الذين تحدثوا عن الفكر العربي العلمي ، منطلقاً من مقال لأدونيس في جريدة الثورة إلى دراسة الدكتور وصفي حجاب ، ثم قفز به خاطره إلى « ملاحظات سابقة لكتاب عرب قدماء ذكر منهم ابن خلدون أولاً ثم انتقل إلى الجاحظ في تسلسل زمني صاعد لا هابط . . كذلك كان مضي الأستاذ صفوان يتحدث عن الفكر العربي في صورته الريادية عند ساطع الحصري ثم في صورته عند الأرسوزي التي يصفها بأنها « تشييد صرح فلسفي لمرحلة النهوض » ثم في الصور الأخرى التي آل إليها بعد ذلك في هذه الشعوبيات الجديدة التي نشأت في غياب المفكر القومي وتواري الفكر القومي والهالة الكالحة التي تلقى ، من هنا وهناك ، على الحياة العربية لتخرج بها عن صورها الحقيقية الزاهية ولتطمس ألوانها الأصلية .

— ٣ —

لم أشعر أني أمام مقالين أو أمام كاتبين وإنما شعرت أنني أمام مقال واحد وكاتب واحد . . كلّ من الكاتبين كانت له ظروفه التي يكتب من خلالها ، ونهجه الذي كان يأخذ به ، وحذره الذي يريد أن يسترشد به حتى لايساء فهمه على هذا النحو أو ذاك ، من أولئك أو من هؤلاء . . ولكنك تستطيع أن تقول إن أحدهما كان يقول : إننا نعيش نكسة قومية في نطاق الفكر القومي ، وأن الآخر كان يقول إننا نعيش في مثل ذلك من النكسة الاجتماعية والعلمية .

ويضع الأستاذ الجمالي ، في آخر مقاله ، كثيراً من التفاؤل ويعود لينتهي من حيث ابتدأ فيعاود الحديث عن الشقاء والهناء من غير أن يتعب القارئ وقد طال المقال بالحديث عن أسباب الشقاء والهناء . على حين يكتفي المقطع الأخير عند الأستاذ قدسي بهذا التساؤل الانكاري الذي يضع القارئ في خضم هذه الحيرة العميقة التي أثارها منذ الكلمات الأولى .

وأيّاً كان مابين المقالين من التقاء أو تناء ، من اتفاق أو افتراق ؛ فقد كان لهما كليهما هذه القدرة القادرة على الإثارة العنيفة . . وإني لعلى مثل اليقين أن هذه الإثارة التي امتلكتني قد امتلكت كذلك كل قارئ آخر . . لأنها طرحت مطرح التداول هذه الهموم الصامتة أو التي طال عليها الصمت ، والتي يجدر أن تكون موضع الحوار والحديث حتى نخلص من ذلك كله إلى مثل الرأي الواحد ، وحتى تستبين تماماً مسؤولية المثقفين والمفكرين في هذه الفترات التي شغل فيها الفكر القومي - بحكم الأحداث الثقيلة أو بحكم الأنظمة التي ولدتها هذه الأحداث أو بهما معاً - عن أن يمارس نشاطه وأن يطلق فعالياته وأن يكون له كذلك ، على الأقل ، صوته المسموع .

- ٤ -

وفي تقديري أن من العسير أن يتوقف المرء عند كل ماجاء في هذين المقالين . . انهما ، في جملتهما تسجيل أو إشارة لكثير مما نرى أونسمع أونعاني في جانب الفكر أوالمجتمع في مجال الثقافة والحضارة .. وأرجو أن تكون هنالك مشاركات أخرى كثيرة ينفرد كل منها بنحو من أنحاء البحث .

وحسبي اليوم أن أقف عند الجانب التاريخي من هذين المقالين . . لأني أعتقد أنه حين تستقيم لنا الحقائق التاريخية فإننا نستطيع أن نستبعد كثيراً من الشبهات التي أثارها المقالان ، وبخاصة مقال الأستاذ الجمالي ، أو حاولا الوقوف عندها .

اتهامُ الفكر العربي ورميه بالقصور الذاتي ، واتهام التاريخ العربي والإنحاء عليه بكل لائمة ، ليسا بالشيء الجديد . .

في الماضي البعيد كانت الشعوبية تنتقص العرب وتثير مثالبهم وتسكت عن محاسنهم . وفي الحاضر تتخذ الشعوبية الجديدة مثل هذا المسار . . ولكنها تضيف إلى ذلك هذه الحملة المركزة على التاريخ العربي وهي حملة تريد أن توصل عندك إحساساً بالأنفة من هذا التاريخ أو الإشفاق عليه على الأقل والتقزز منه ومحاولة الاحتيال على أحداثه .. ويتخذ ذلك أشكالاً مختلفة . بعضها يحاول أن يكون علمياً ، بل إن بعضها يحاول أن يكون قومياً . . وأبرز ذلك هذه الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ العربي .

وسأتحدث عن هذين الأمرين تباعاً . . وسأبدأ بحكاية إعادة التاريخ العربي كما تريد أن تفهمها بعض الأقلام .

لاأحب أن أستعيد ماكتبه المرحوم الأستاذ ساطع الحصري . . ولا أن أقف عند الذي كتبه الأستاذ حافظ الجمالي « ص ٢٩ — ٣٠ » من أن التاريخ العربي مليء بالعنف..ولكني أريد أن أضع الأمر ، في البداية ، موضعه الصحيح فإن استقام لنا رأي مشترك كنّا في غنى عن المناقشة في كثير من التفاصيل .

٥

لماذا نعيد كتابة التاريخ ؟ . ماهي البواعث على ذلك ؟

إنهم يقولون إنه تاريخ الملوك والأمراء والثورات والاضطرابات والعنف . وإنه تاريخ الدمار والقتل والمعارك .. وإنه .. وإنه ..

لو قلت ، في محاولة أولى ، أن مصدر هذه الأحكام كلها أننا نجهل التراث لبدا ذلك ، لبعض الأذهان ، تعصباً منا للتراث . . ولكني أريد أن أصّر على أن الذين يقولون هذا الكلام ويلقونه هنا وهناك ويسمعه الذين يسمعونه فيصدّقونه بحكم الفراغ الذهني ــ هؤلاء جميعاً ينظرون إلى التاريخ العربي من جانب واحد . . إنهم غالباً مايتوقفون عند قراءة الطبري وابن الأثير وهذه السلسلة من بعدهم ، من هذا التاريخ . . بل أن بعضهم ينظر إلى هذا الجانب بعين واحدة . . وإنهم إنما يجتذبهم ــ بسبب أو آخر ــ هذه الأحداث السياسية الغالبة ولكنهم لايتوقفون عند الأحداث الأخرى الحضارية أو الاشارات الكثيرة الثقافية التي تخرج عن هذا النطاق .



وأتجاوز بعد ذلك ــ قطعاً للجدل ــ لأقول أننا نلتمس تاريخنا في العادة في هذا النوع من الكتب التي اسمها كتب التاريخ . . ولكن تاريخنا ليس قاصراً على هذه الكتب ولامنكمشاً في حدودها أو محتبساً في صفحاتها . . قد يكون تاريخنا السياسي ــ أو بعضه ــ في هذه الكتب ولكن تاريخنا العلمي والحضاري والفكري ماثل في الكتب التي أؤكد أن كثيرين لاينظرون فيها ، وهي الكتب التي نطلق عليها كتب التراجم .

وليس صحيحاً ــ أو ليس دقيقاً ــ أبداً مايقولونه أحياناً من أننا

لم نكتب تاريخنا الحضاري ولم نحاول تسجيله . . لقد كتبناه وسجلّناه في كثير من وقائعه وفي كثير من جزئياته . . ولكننا لانحسن التماسه لأننا نلتمسه في كتب التاريخ المعهودة المعروفة ، ولا نحاول أن نلتمسه في الكتب التي تزخر به أو بمواده الأولى ، أي في كتب التراجم التي تتحدث عن العلماء والمفكرين والأدباء وأصحاب الرأي والفكر والفلسفة ؛ وفي كتب الطبقات التي لم تدع عالماً في ضرب من ضروب المعرفة دون أن تتحدث عنه . . وهل أقول إن كثرة منا توشك أن تكون —حين تتحدث عن التاريخ—بعيدةعن طبقات الأدباء والنحاة والمفسرين والقراء والفقهاء والمتصوفة والمعتزلة، لاتعود إليها إلاّ لماماً، ولا تنصرف إلى أنها هي منجم تاريخنا الفكري والحضاري . . وأننا — في نطاق حركتنا الفكرية — عرفنا التاريخ الحضاري على هذا النحو . . ولكنّ الأمر — وأوشك أن أقول بحكم هذه الأنظمة التعليمية أو بحكم القوى الخفية التي تحجب ماتحجب وتظهر ماتظهر — التبس على كثيرين وفات الكثيرين . . ولم يبق أمامنا إلا هذه الاتّهامات البارزة ، نطالعها حيث استدارت منا الوجوه وحيث تصوّبت منا العيون .



— ٦ —

هل أنا في حاجة إلى أن أضرب الأمثلة ؟ . . ألا يوحي ضرب المثل بشيء من البساطة . . ومع ذلك فلنتحدث عن واحد من هذه الكتب .

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي الذي ولد أواخر القرن الرابع الهجري « ٣٩٢ هـ »وتوفي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري « ٤٦٣ هـ » كتاب ضخم في أربعة عشر مجلداً . . إن اسمه تاريخ بغداد . ولكنه ، في الحق،تأريخ لكل الحركة العلمية بكل وجوهها

وأضربها واتجاهاتها وألوانها التي عرفتها بغداد حتى وفاة المؤلف . . إنه تأريخ لكل عالم عاش في بغداد أو جازها أو عاج بها . . إنه — كما يقول الخطيب في هذه التعريف الموجز المحكم « تاريخ مدينة السلام ، وخبر بنائها وذكر كبراء نزّالها ، وذكر وارديها وتسمية علمائها » . . وهو لذلك يتضمن آلاف التراجم لآلاف العلماء . . فهل حاول الذين يتحدثون عن تاريخنا الفكري والحضاري أن ينظروا فيه وأن يحاولوا استخلاص الصور التاريخية منه ؟ . . أليس عجيباً أن لا يصدر عن هذا الكتاب وقد طبع منذ نصف قرن تقريباً — رحم الله هذا الوراق العالم الذي أقدم على طباعته — إلا دراسة واحدة هي دراسته . .

لقد وُضعنا ( والفاعل مجهول أو متعدد أو هما معاً ، ومايقول البلاغيون عن تجهيل الفاعل معروف ) في مواضع متكررة . . علمونا من التاريخ أشياء معينة ، ولفتونا دائماً إلى هذه الأشياء . . ثم حجبوا كل ماعداها . .



فليس الأمر إذن أمر إعادة كتابة التاريخ . . ولكنه معرفة هذا التاريخ أولاً ، ثم فقهه بعد ذلك . ثم تعليمه أو طريقة تعليمه .

لقد أرادونا أن نفهم تاريخ بغداد من خلال الخلاف بين الأمين والمأمون ، وصورة الحياة العباسية من خلال مجون أبي نواس ، وصورة الحياة في صدر الإسلام من خلال الشعر القبلي أو من خلال الشعر الغزلي . . وحتى صورة الجاهلية أهملوا كل شعر طيب حكيم فيها ليحدثونا عن الدم والقتال والغزو .

لم يفعلوا ذلك في كتب التاريخ ، ولكنهم فعلوا ذلك حتى في

المواد الأخرى . . في الأدب ومأأشد قصور هذا الذي يدرس في الأدب . . في كتب القراءة والنصوص . . وأحياناً في أمثلة النحو والصرف . . وحين تحاول أن تؤلف في هذه المادة وأن تقدم شواهدك من القرآن الكريم أو من الحديث الشريف أو من روائع البيان فسيسرعون إلى اتهامك بإحدى تهمتين : إما بالتعصب وإما بالتصعيب ، تصعيب المادة .

— ٧ —

وهل أحتاج أن أضرب مثلاً آخر لهؤلاء الذين يحرصون على ابراز الوجه الدامي للتاريخ العربي الاسلامي ؟

في تراثنا كتاب معروف باسم تاريخ مدينة دمشق . . ولكن كل الذين يصطنعون الحديث عن دمشق ، قلب العروبة النابض ( إنه نابض حقاً ، ولكنا أصبحنا لانعرف تسارع نبضه أو بطئه ، ولا كيف نفسر ايقاعات هذا النبض ) ويتكئون عليه ، هؤلاء جميعاً ينسون أن هناك تاريخاً بهذا الاسم يقع في ثمانين مجلداً ، كتبه عالم من أبرز علمائنا ومحدّثينا معروف بابن عساكر . . ولو جئت تحدث بعضهم في ذلك لضحك من هذه التسمية . . بل قد يستغرق في هذا الضحك ويتخذ منه مادة نكتة ( هل أقول إن ذلك حدث فعلاً . . ) لايحترمون إنساناً ( لاأقول إنساناً عربياً ولاعالماً جليلاً ) أمضى مايزيد عن خمسين عاماً متقطعاً لكتابة هذا التاريخ . . لكتابة تاريخ الشام كله : لايسجل الأحداث الدامية ، ولكنه يسجل ترجمة لكل عالم أو رجل ذي بال . . فيذكر ( مَنْ حلّها من أماثل البرية واجتاز بها وبأعمالها من ذوي الفضل والمزيد من أنبيائها وهداتها وخلفائها وولاتها وفقهائها

وقضاتها وعلمائها ودُراسها وقرائها ونحاتها وشعرائها ورواتها، من أبنائها وأثباتها، وضعفائها وثقاتها، وذكر مالهم من ثناء ومدح، وإثبات مافيهم من هجاء وقدح، وإيراد ماذكروه من تعديل وجرح، وحكاية مانقل عنهم من جد ومرح، وبعض ماوقع إليّ من رواياتهم؛ وتعريف ماعرفت من موالدهم ووفياتهم ) .

هذا التاريخ إذن ليس تاريخ لمدينة دمشق وإنما هو تاريخ لبلاد الشام التي كانت دمشق عاصمتها ، ثم هو تاريخ لهذا الوطن العربي الكبير لأن العلماء كانوا يتنقلون بين هذه المدن والعواصم جميعاً يطلبون العلم هنا وهناك . . فتاريخ ابن عساكر إذن ، في كثير من وجوهه ، هو تاريخ هذه الحركة الفكرية الثقافية وتاريخ الحركة العلمية والحضارية .



ولكن الكتاب لايقدر له ناشر جريء في مصر كما قدر لتاريخ بغداد . . وإنما ينهض المجمع العلمي العربي ( مجمع اللغة العربية الآن ) ليصدر ثلاث قطع منه . . ثم يتوقف العمل في ذلك ربع قرن من الزمان . فلماذا كان هذا التوقف.. وماهي العقبات التي واجهته.. ولو كنا أوفياء حقاً لتاريخنا ، غُيُراً عليه ، أكان يبقى نشر هذا الكتاب حبيس الأوهام الكثيرة والصعوبات المصطنعة ؟ .

— ٨ —

وهل يقولون بعد ذلك : يجب أن نعيد كتابة تاريخنا . . ولماذا لانقول يجب أن نعرف أولاً تاريخنا ؟

إني أفهم إعادة كتابة التاريخ على أنها هذا الوقوع على كل عناصر الأحداث ، وهذا الإلمام بكل جوانب الحياة . . وأفهم أن ذلك هو

غرض الصفوة التي تدعو هذه الدعوة وتعمل لها . . ولكن العلّة ليست أبداً في التاريخ ، وإنما هي في معرفته وفقهه ومقدار مايكون من تدريسه .

ولقد ذكرتُ مثلين . . ومؤرخونا يعرفون أن هناك مئات من الأمثلة ومن الكتب التي لايمكن أن يستغني عن النظر فيها مؤرخ يريد أن يعرض تاريخ أمته . . وإن هناك أعداداً فوق أن تحصر في مقال من كتب البلدان والتراجم والطبقات ـ وكلها فروع من فروع التاريخ ـ يجب أن تكون بين أيدينا قبل أن يكون بين أيدينا كتب التاريخ السياسي . . هذا إذا سلمنا أن هناك كتباً خالصة للتاريخ السياسي .

ــ ٩ ــ

وأنا بعدُ لاأريد أن أعود إلى مثل الحجج التي ساقها الأستاذ المرحوم ساطع الحصري من تماثل مابين التاريخ العربي وتاريخ الشعوب الأخرى في الذي خالطهما من اضطراب وعنف . . ولا أريد أن أؤكد ماقاله من أن في تاريخ الأمم الأخرى فوق الذي في تاريخنا . . . ولكنني أريد أن أشير إلى فارق كبير في هذا القياس جدير أن ننبّه إليه .

فهذا الأمر الذي كان من أحداث التاريخ العربي إنما كان مشتركاً بين هذه الشعوب جميعها التي كانت تؤلف الدولة الاسلامية . . لقد جاء الاسلام إلى هذه الأمم جميعاً بفكرة الدولة العالمية الكبيرة . . ولما دخلت هذه الشعوب في هذا الدين وأخذت تنصهر في هذا المجتمع كان لابدّ في هذا الانصهار من مثل هذه العصبيات والفتن . وكان لابدّ مع هذه الفتن من دماء . . ولكن كان لابدّ من أن تكون هذه الدماء نقاطاً مضيئة على طريق التعارف الذي نادت به الدعوة الاسلامية والانصهار الذي عملت له . . وفي عصور سابقة حظها دون حظوظ هذا العصر من التواصل ، كان لابدّ أن تقع مثل هذه الأحداث .

وإذا نحن حاولنا أن نربط بين مدى ماكان من هذه الأحداث وبين مدى ماكانت تطمح إليه من جهة ، وما كان من امتداد الدولة الزماني ومن اتساعها المكاني من جهة أخرى — إذا نحن صنعنا هذه الموازنة بين جملة هذه العناصر أدركنا أن كل ماكان من دماء لايكاد يعدل ماسفك من دماء في حرب من حروب العالم المتمدن المعاصر .

— ١٠ —

هذا إلى شيء آخر نغفله ، فنحن نتحدث عن مفاهيم معاصرة من الحوار والسلام والتسامح والتخلي عن الذات مقابل مفاهيم أخرى من الالتصاق بالذات والتطرف، من الماضي .. ونتناسى أن ماينادون به الآن لايحققونه فيما بينهم ولايحققونه فيما بينهم وبين الشعوب الأخرى . ولكنه بضاعة يصدرونها وينالون من غيرهم بها . وتذكر ان شئت أحداث آسيا وافريقية بعد الحرب العالمية الثانية ، وأحداث أوروبا قبل الحربين العالميتين وبعدهما .

فإذا تجاوزنا عن ذلك ، عن تحقيقهم له أوعدم تحقيقهم ، كان لابدّ لنا أن نلاحظ أن محاولة النظر إلى التاريخ القديم وأحداثه بمثل النظرة « المثالية » المعاصرة هو الذي يقود إلى مثل هذه الانحرافات والأحكام ، وهو الذي يجعلنا نتزلق في كثير من الأخطاء في تصوراتنا للعصور الماضية وحكمنا عليها . إن النسبية هنا تظلّ جزءاً من موضوعية البحث ومن دقة الحكم .

— ١١ —

وبعد ، فإن المعرفة الحق والمعرفة الدقيقة والعميقة للتاريخ ، بكل

وجوه التاريخ السياسي والعلمي والفكري ، هي التي يمكن أن تضع حداً لكل هذه الهجمات « المرسومة » على التاريخ العربي . . وهي التي يمكن أن تعيد إلينا ثقتنا به ، وتعيده إلينا جزءاً من ضمير حي متحرك مندفع بغاياته ومثله ، تؤلف أحداثه كلها الدافع القوي للسعي وراء هذه المثل ، وتجعل حياتنا مرتبطة بجذورها ، مغتذية بهذه الجذور ، متصلة بها ومتابعة لها .

إن مثل هذه المعرفة الحق هي التي تمكّن لنفوسنا في نفوسنا . . وإلا فليس هناك ، نحو حياة الفرد وفي حياة الجماعة ، أشنع من هذا الضلال : أن نَضِلّ أنفسنا فلا نجدها . وإن ننشدها فلا نقع عليها ، أو لانقع عليها إلاّ من خلال هذه الصور المشوّهة التي تزرع في أذهاننا وفي قلوبنا زرعاً هدفه أن تخلق في تذوقنا هذه المرارة لهذا التاريخ ، وفي أفئدتنا هذا النفور منه ، وفي طباعنا هذه الكراهية له ، وفي وجودنا الحاضر هذا التنافر منه . . حتى لايكون لنا لاوجود قديم نستمد منه ، ولاوجود جديد نطمئن له . ولا وجود مستقبل نتطلع إليه . . وحتى لايكون لنا مثل هذه الدوافع والحوافز التي لابدّ منها في حياة الشعوب ، كما أنه لابدّ منها في حياة الأفراد .

إن هذا هو المعنى الكبير الذي نقصد إليه حين نتحدث عن التراث وعن إحياء التراث وعن النظر في هذا التراث وعن نشدان الأصالة من خلال هذا التراث .

إننا لانريد التراث لامشغلة عن الحاضر ولاملهاة عنه . . ولكننا نريده فهماً لجذور هذا الحاضر ، وتغذية له قدر ماتكون التغذية مفيدة . . ونريده نفياً للشبهات التي تحتاط به وبناء لا تأكيداً لهذه

الشبهات . . كما نريده معاونة على رسم المستقبل ، نرسمه نحن ولا يرسم لنا ، ونحمي براعمه قبل أن تقتل هذه البراعم رياح جليدية أو رياح حارة من هنا وهناك .

إن اهتمامنا بالتراث ليس زينة من الزينة ، ولا زخرفاً من الزخرف ؛ ولكنه وجود من الوجود ، ونقاط خلفية للوجود المتقدم .

وكذلك يستقيم لنا بعدُ أن نظفر بتاريخنا بعد أن نكون قد عرفنا هذا التاريخ ، وأن نبرئه — إذا كان بريئاً — من هذه التهم التي نكيلها له كيلاً ، ونهيلها عليه إهالة .



لقد رجوت أن أتحدث عن أمرين هما ركيزة هذه الهموم التي أثارها مقال الاستاذ حافظ الجمالي ومقال الاستاذ صفوان قدسي . هما اتهام التاريخ العربي ، واتهام الفكر العربي .

وأحسب أن في الذي قدمت مايكفي أن نكفّ عن اتهام هذا التاريخ . وأن نبادر إلى اتهام أنفسنا أولاً في موقفنا من جهالة هذا التاريخ أو الانصراف عنه ، أو ترديد أشياء هي سلسلة من الأخطاء المتراكبة .

أما عن الفكر العربي ، عن دعوى قصوره الذاتي ؛ فذلك ماأرجو أن أتحدث عنه في مقال مقبل إن شاء الله .

والشكر للأستاذين الصديقين أنهما أباحا لي أن أقول للناس ماكنت أهمس به في نفسي .

*

## تصويب

تعتذر « المعرفة » عن الخطأ الذي وقع في الآية الكريمة الواردة في مقال الأستاذ الدكتور شكري فيصل « التطور الأجتماعي والتطور اللغوي » المنشور في العدد ١٨٣ ( أيار ١٩٧٧ ) ، وصواب الآية : « ثم ارجع البصر كرتين ينقلب . . . »